

دلائل النبوة

وأعلام رسالة النبي محمد ﷺ

الله
رسول
محمد

سيد عبد العزيز

اختصار و تقديم دكتور

مصطفى حلمي

دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الإبداع

الطبعـــة الأولـــى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

رقم الإيداع القانونى : ١٧٥١ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى : 2-88-6157-977

٤ شارع الأسـقـفـيـة - المنشـيـة - الإسكندرية

جمهورية مصر العربية

تليفاكس : ٤٨٣٣٤٠٥ / ٠٣ - ٣١٦٦١١٨ / ٠١٢

www.dar-alebdaa.com

E-mail:info@dar-alebdaa.com

دلائل النبوة

وأعلام رسالة النبي محمد ﷺ

وهو مختصر كتاب

(الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)

لابن تيمية[1]

٦٦١-٧٢٨هـ

اختصار وتقديم د/مصطفى حلمي

دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الأتباع

(١) النسخة الأصلية قدم لها وأشرف على طبعها على السيد صبيح المدنى ط مكتبة المدنى جلة سوق الندى ومطبعة المدنى ٦٨ شارع العباسية القاهرة ٢٧ رجب ١٣٨١هـ ٤ يناير سنة ١٩٦٢م



مختصر

كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية

وعنوانه الأصلى

[الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح]

•••



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد،

فقد كانت مناسبة إصدار هذا الكتاب، أنه عندما طُلب منّى التقديم لبحث علمىّ، عن موقف الشاعر الفرنسى «فولتير» من الرسول ﷺ فى مرحلة السب والقذف ثم مرحلة التراجع والإقرار بنبوة النبى ﷺ[1] ورأيت قبل كتابة المقدمة الرجوع إلى السفْر الضخم لابن تيمية بعنوان **«الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»** لمعرفتى بأنه عالج فيه كثيراً من القضايا المتصلة بعقائد النصارى -كما فنَّد فيه اتهاماتهم الكاذبة للرسول ﷺ مدللا على صدق نبوّته بأدلة سمعية من كتبهم المعتمدة نفسها، وأدلة عقلية صريحة لا يسع المرء الباحث عن الحقيقة بإخلاص إلا أن يسلّم بها، باستثناء الذين فى قلوبهم مرضٌ والمعرضين عن طلب الحق. وأمام كتاب ضخم تربو عدد صفحاته على ١٤٠٠ صفحة، ولا يقبل عليه إلا المتخصصون رأيت أن أَفْضَلَ منهج لتقديمه للقرّاء والإفادة منه فى مخاطبة أهل الكتاب، هو استخلاص ما يتصل بدلائل نبوة نبينا محمد ﷺ السمعيّة والعقلية وأشرت إلى نصوص أخرى تتصل بموضوع الكتاب، مع إيضاح مواضعها لمن يرغب الرجوع إليها للاستزادة.

(١) وكان عنوان الكتاب «أدباء أوروبا والإسلام وتداخل المصالح الشخصية مع المهمة المقدسة - «الأديب والفيلسوف الفرنسى «فولتير» أنموذجًا للأستاذ محمود عبد العزيز محمود راضى. (تحت الطبع).

ونقدّم للقارئ العزيز بعض الأفكار التى ناقشها ابن تيمية بكتابه:

ففى الجزئَين الأول والثانى من الكتاب دخل ابن تيمية مع النصارى فى مناقشات جدلية تناولت قضايا حول المصادر وما حدث فيها من تحريف، فإن **«الإنجيل الذى بأيديهم فإنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ولا أملاه على من كَتبه، وإنما أملاه بعد رفع المسيح «متىّ» و «يوحنا» وكانا قد صحبا المسيح، ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر، ومرقص ولوقا- وهما لم يريا المسيح عليه السلام، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعض أخباره، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله»**[1]

وعن شخصية المسيح -عليه السلام- فإن علماء النصارى الذين هداهم الله، بينّوا ما وقع فى ذلك «من تحريف لمعانى الكتب التى عندهم، وذكروا مما عندهم من النصوص الصحيحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله مما يتبيّن به بطلان قولهم، وأنهم ممن تركوا المحكم من الآيات واتبعوا المتشابه»[2].

ويذكر ابن تيمية أن «تعظيمهم للصليب واستحلالهم لحم الخنزير وتعبدهم بالنصرانية وامتناعهم من الختان، وتركهم طهارة الحدث والخبث... كلها شرائع أحدثوها واتبعوها بعد المسيح عليه السلام»[3].

وكذلك الصلوات والصوم والأعياد، وعيد الصليب (الذى أظهرته هيلانه الحرانية أم قسطنطين بعد المسيح عليه السلام بمائتين من السنين... فإن ذلك كله من بدعهم التى ابتدعوها بلا كتاب أنزل من الله تعالى) وكذلك ناقش قول بعضهم أن للمسيح طبيعتين من الله تعالى[4] «أحدهما لاهوتية من طبيعة

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ١، صـ٣٥٦.

(٢) نفسه جـ٢ صـ٢١٧.

(٣) نفسه صـ١٢٣.

(٤) نفسه جـ١ صـ١٥٥.

كلمة الله وروحه، وطبيعة ناسـوتية التى أُخذت من مريم العذراء واتحدت به، وبعضهم له أقوال تناقض هذا، وكل فريق منهم يكفر الآخر»[1].

كما ذكر أنه وقع اشتباه فى قصة الصلب «وقد قام الدليل على أن المصلوب لم يكن هو المسيح -عليه السلام- بل شبهه وهم ظنّوا أنه المسيح، والحواريون لم يروا أحد منهم المسـيح مصلوبًا، بل أخبرهم بصلبـه بعض من شهد ذلك من اليهود»[2].

أمّا الجزآن الثـالث والرابع من الكتاب فقد خـصصّهما فـى الغالب لإثبات صدق نبوة نبينا محمد ﷺ وكان منهجى هو اختصار ما ورد بهما، لذلك فقد اخترت للمختصر عنوانًا جديدًا، وهو: [**دلائل النبوّة وأعلام رسالة النبىّ محمد ﷺ**]، ليتناسب مع المادة العلميـة التى جمعتها، ويصلح هذا المختـصر لمخاطبة أهل الكتاب بالأدلة السمعـية المنقولة من بعض كتبهم المعتـمدة والأدلة العقلية الصريحة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شـهيد، حتّى يعيدوا النظر فى الموقف العدائى الشائن[3] الذى يقفـه بعضهم إزاء الرسول ﷺ وليـضعوه فى مكانته اللائقة، ويقدرونّه حق قدره ﷺ.

تقول الدكـتورة لورا فاليـبرى: «قـام أعداء الإسلام الألداء الذين أعـماهم الحقـد والتعصب واتهـموا رسول الله ﷺ ذلك الرجل النبـيل الذى كان ينظر إليه قبل الرسالة نظرة إكبار وإجـلال من جميع مواطنيه لما تحلّى به من الأمانة

---

(١) نفسه جـ٣ صـ١٢٥. (٢) نفسه جـ٢ صـ١٤.

(٣) وظاهرة عـداء الغرب -لا للرسـول ﷺ - وحده بل للإسلام كـدين، وهذه الظاهرة أكـدّها أحد الغربـيين وهو جاك بيـرك المعروف بترجـمته لمعـانى القرآن الكريم، فقـد مات الرجل «وهو على يقـين بأن الغرب يضمـر كل الشر للدين الإسـلامى والذى سيـجعله عـدواً بديلا عن الشيـوعية...وهو مـا حدث فـعلاً لا قولاً».

من مقال د/ سـعيد اللاوندى بعنوان مـصر باقية وكلهم زائلون» جـريدة الأهرام ٢ شوال سنة١٤٣٠هـ- ٢١ سبتمبر سنة٢٠٠٩م.

والسجايا الكريمة، وكانت التهمة التى رموه بها مما لا يقبله عقل ولا يمكن أن يسلّم بها عاقل»[1].

ويقول الدكتور هدلى: «ليس فى وسع الإنسان فى الحقيقة إلا أن يعتقد أن مدبجى وناسجى هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى ولا أول مبادئ دينهم وإلا لما استطاعوا أن ينشروا فى جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم أنها محض كذب واختلاق»[2].

● سبب تأليف الكتاب:

صرّح شيخ الإسلام ابن تيمية فى مقدمة كتابه عن سبب تأليفه فقال [وكان من أسباب نصر الدين وظهوره أن كتابًا ورد من قبرص -من بولص الراهب- فيه الاحتجاج لدين النصارى، بما يحتج به علماء دينهم وفضلاء ملّتهم قديمًا وحديثًا من الحجج السمعية والعقلية، فاقتضى أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب؛ لينتفع بذلك أولوا الألباب ويظهر ما بعثه الله به رسله من الميزان والكتاب»[3].

وكنا نتوقع -فى ضوء هذا التعليل- أن يعنون الكتاب بـ«الرد على الرسالة الواردة من قبرص»، أو «الرد على الرسالة الواردة من -بولص الراهب- أسقف «صيدا» الأنطاكى، مثلا، ولكنَّا نُفاجأ باختيار اسمًا آخر قد اختاره ابن تيمية عامدًا ليوحى للقارئ بدلالة خاصة، فما السبب؟!

إذا استرجعنا الحقبة التاريخية التى كتب فيها ابن تيمية الرد على رسالة «بولص الراهب» لاتضّح لنا أنها كانت حافلة بالمعارك الحربية مع التتار.

(١) د/ لورا فيتشيا فاليرى «محاسن الرسلام» ص٢١ نقله من الايطالية إلى العربية طه فوزى بمحكمة استئناف مصر الأهلية مطبعة الجامعة الإسلامية.
وقدّم له شكيب أرسلان بتاريخ ١٧ جمادى الآخر ١٣٥٢م.

(٢) اللورد هدلى -رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية- كتاب «مختار إيقاظ الغرب للاسلام» ص١٠٠ تعريب إسماعيل حلمى البارودى مطبعة الجريدة بالإسكندرية ١٩٢٢م

(٣) الجزء الثانى صفحة ١٩.



ونتوقف عند حادثة تثير الدهشة؛ لصلتها بعنوان الكتاب «بمفهوم المخالفة» فربّما كان اختيار العنوان له صلة بالشعار الذى رفعه النصارى حينذاك بعد سقوط دمشق فى أيدى التتار، إذ سجّل ابن كثير هذه الحادثة بكتابه «البداية والنهاية» بقوله: «. . .وسلموا البلد والقلعة إلى أمير يقال له ابل سيان، وكان -لعنه الله- معظّمًا لدين النصارى، فاجتمع به أساقفهم وقساوسهم، فعظمّهم جداً، وزار كنائسهم؛ فصارت لهم دولة وصولة بسببه، وذهبت طائفة من النصارى إلى هولاكو وأخذوا معهم هدايا وتحفا، وقدموا من عنده ومعهم أمان فرمان من جهته، ودخلوا باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس وهم ينادون بشعارهم ويقولون: ظهر الدين الصحيح . . دين المسيح. ويذمّون دين الإسلام وأهله، ومعهم أوانى فيها خمر، لا يمرّون على مسجد إلا رشوا عنده خمرًا، وقماقم ملآنة خمرًا، يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون فى الأزقّة والأسواق، أن يقوم لصليبهم»[1].

ونحن نرجِّح أن ابن تيمية استاء لشناعة الحادثة، ووجد من الأنسب أن يضع لكتابه عنوان: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، والله أعلم.

والحق أن الهجمة الصليبية المتعاونة مع الهجمة التتارية، تُسّجل وصمة عار فى جبين تاريخ الغرب برّمته، وتفضح طبيعته الدموية. يقول الأستاذ إبراهيم السليمان الجبهان «ويثمر السفاح بين الصليبية والوثنية غزوة التتار الهمجيّه، عندما ألب «**لويس التاسع**» طاغية فرنسا نظيره «**هولاكو**» طاغية التتار على المسلمين، فأقبلت جيوش السفّاحين وكأنها إعصار مدمّر تدك المدن وتقتل

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» جـ١٣ ص٢١٩، الطبعة الأولى سنة١٩٦٦ مكتبة المعارف بيروت- مكتبة النصر الرياض.

الأبرياء، وتهلك الحرث والنسل ويسقط فى بغداد وحدها ١,٨٠٠,٠٠٠ قتيل من المسلمين، ويسقط فى سوريا من القتلى ما يقرب من نصف هذا العدد، ويعترف الأسقف الصليبى «دى ميشيل» بأن الحملة المغولية «حملة صليبية نسطورية» تعلق بها أمل الغرب فى القضاء على الإسلام والمسلمين»[١].

وقد اشتدت حينذاك حملات تشويه الإسلام والإساءة إلى الرسول ﷺ اشتدّت مع حملات الحروب الصليبية وهى الجانب الدّعائى أو -الإعلامى- لهذه الحروب التى تهدف إلى تبريرها لشعوب الغرب؛ -حتى تتحمس وتشارك فيها- يقول محمد أسد المهتدى إلى الإسلام «لا شك أن الأذى الذى جلبته الحروب الصليبية لم يقتصر على اصطدام استعملت فيه الأسلحة، بل كان أولاً وقبل كل شىء أذىً عقليًا نتج عنه تسميم العقل الغربى ضد العالم الإسلامى عن طريق تفسير التعاليم والمثل العليا الإسلامية تفسيراً خاطئًا متعمَّداً، لأنه إذا كان للدعوة إلى حملة صليبية أن تحتفظ بصحتها، فقد كان الواجب والضرورى أن يُسمّى نبىّ الإسلام ﷺ بعدّو المسيح عليه السلام وأن يصوّر دينه بأكلح العبارات كينبوع للفسق والفجور والانحراف عن الحق، وفى أيام الحروب الصليبية ذاتها تخللت العقل الأوروبى وبقيت فيه تلك الفكرة المضحكة القائلة: «إن الإسلام كان يدعو إلى عبادة الشهوة وإلى القوة الوحشية، دينًا يدعو إلى إقامة الشعائر الدينية بدلاً من تطهير القلب»[٢].

(١) إبراهيم السليمان الجبهان (الباحث فى إدارة البحوث العلمية بالسعودية) كتابه بعنوان: (ما يجب أن يعرفه المسلم من حقائق عن النصرانية والتبشير) ص٣٦ بدون تاريخ.

(٢) محمد أسد «الطريق إلى الإسلام» صـ٢٢ / ٢٣ ترجمة عفيف البعلبكى نقلا عن كتاب طارق سرى «المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق فى «التراث الإسلامى» ص١٢١، مكتبة النافذة بالقاهرة سنة ٢٠٠٦م.

ولا يشك عاقل فى استمرارية الحروب الصليبية حتى عصرنا الحاضر باعتراف الغربيين أنفسهم، فقد قال الدكتور بيترس سميث فى كتابه سيرة المسيح «إن هذا الاستيلاء على بيت المقدس عام ١٩١٨ كان حربًا صليبية ثامنة فأدركت المسيحية غايتها» وقد علّق الدكتور محمد حسين هيكل -رحمه الله- على ذلك بقوله «ولقد يكون من الحقّ أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين وإنما نجح بمجهود اليهود الذين سخّروهم؛ ليحققوا حلم إسرائيل القديم»(١).

ويُلاحظ أن ابن تيمية كان متقيداً بمنهج القرآن الكريم فى مخاطبة أهل الكتاب فيطالبهم بالتخلّص من أحقادهم المتوارثة، ويذكّرهم بما ورد ببعض كتبهم بالميثاق الذى أخذه الله -عز وجل- على النبيين قبله-وهم يؤمنون بهم.

ففى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقد أورد الإمام ابن كثير فى تفسيره قول على بن أبى طالب وابن عمه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه «ما بعث الله نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بُعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه»(٢).

وقال أبو الحسن القابس: اختصّ الله تعالى محمداً ﷺ بفضل لم يؤته غيره، أبانه به وهو ما ذكره فى هذه الآية.

(١) محمد حسين هيكل «حياة محمد ﷺ» صـ٥٧٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م.
وقد أثبت عبارة الماريشال اللّنبى الذى استولى على بيت المقدس فى ١٩١٨ بقوله «اليوم انتهت الحروب الصليبية» ونضيف شعار الحرب الصليبية التى أعلنها رئيس أمريكا السابق «بوش» فى حربه ضد أفغانستان والعراق.

(٢) ابن كثير «تفسير ابن كثير» المجلد الثانى صـ٥٦ طـ دار الشعب بالقاهرة بدون تاريخ تحقيق عبد العزيز غنيم - محمد أحمد عاشور - محمد إبراهيم البنا.

وقيل: أن يبيّنه لقومه، ويأخذ ميثاقهم أن يبيّنوه لمن بعدهم، وقوله (ثم جاءكم) الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ.

وروى عن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- أنه قال فى كلام بكى به النبى ﷺ (أى رثاه به) فقال: «بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضلك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم، فقال: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ**﴾ [الأحزاب: ٧].

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النّار يودّون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقهم يُعذَّبون يقولون: ﴿**يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ**﴾ [الأحزاب: ٦٦][(١)].

ومن المعروف أن لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب آخر بعنوان (**النبوّات**) ولكن تكاد تنحصر قضايا النبوَّة التى عالجها ابن تيمية فيه ببيان تميّز معجزات الأنبياء التى هى آياتهم وبراهينهم، وهى مختصة بهم ليست معتادة للآدميين، مع بيان الفرق بين خوارق الأنبياء وخوارق السحرة، وبيان أن الفلاسفة لم يقدرّوا النبوّة حق قدرها (وقد ضلّ بهم طوائف من المتصوفة المدعّين للتحقيق وغيرهم كابن عربى وابن سبعين)[(٢)]، ويضم الكتاب أيضًا قضايا متفرقة فى العقيدة والرد على الفرق الكلامية والفلاسفة.

ولكن عند مناقشة ابن تيمية لموضوع النبوات حرص على رسم الطريق الذى يعرف به البشر الأنبياء فيقول: (طريق معرفة الأنبياء كطريق معرفة نوع من الآدميين خصّهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء

---

(١) القاضى عياض (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ صـ٤٦ مكتبة دار التراث بالقاهرة ١٤٢٥-٢٠٠٤.
ويقول القاضى عياض (وهو ﷺ أكثر الرسل معجزة وأبهرهم آية وأظهرهم برهانًا) ص٢٦٤.

(٢) ابن تيمية (النبوات) ص٢٣ دار الفتح- بدون تاريخ.

أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء، ولذا إنما يقرر الرب تعالى فى القرآن أمر النبوّة وإثبات جنسها بما وقع فى العالم من قصة نوح وقومه وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم فيذكر وجود هؤلاء وأن قومًا صدّقوهم وقومًا كذّبوهم. ويبيّن حال من صدّقهم وحال من كذّبهم فيعلم بالاضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء ويتبيّن وجود آثارهم فى الأرض فمن لم يكن رأى فى بلدة آثارهم فليسر فى الأرض ولينظر آثارهم وليسمع أخبارهم المتواترة)[1].

وفى مخاطبة ابن تيمية لأهل الكتاب، يبيّن أن الله تعالى أثبت وجود جنس الأنبياء ابتداءً كما فى السور المكية حتى يثبت وجود هذا الجنس وسعادة من اتبعه وشقاء من خالفه، وتظهر نبوة محمد ﷺ؛ لأن ما جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء، **وهذا أصل عظيم ينبغى معرفته.**

أمّا من نازع من أهل الكتاب فى نبوّة محمد ﷺ، فإمّا أن يكون لجهله بما جاء به وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال **طلاّب الرياسة بالدين منهم،** لأن قصص الأنبياء تدّل على نبوّة محمد ﷺ بطريق الأولى، إذ كانوا من جنس واحد ونبوته ﷺ، أكمل[2].

ويدلل شيخ الإسلام كمال نبوته ﷺ بحاله مع الجن والإنس (فحال نبينا ﷺ مع الجن والإنس أكمل من حال سليمان عليه السلام فإن طاعتهم له كانت طاعة ملكية فيما يشاء وأما طاعتهم لمحمد ﷺ فطاعة نبوّة ورسالة فيما يأمرهم به من عبادة الله وطاعة الله واجتناب معصية الله)، وكذلك تظهر صفة الكمال بأن الله تعالى أمر الرسول ﷺ بالجهاد. يقول ابن تيمية [فإن سليمان ﷺ كان نبيّاً ملكًا ومحمد ﷺ كان عبدًا رسولاً مثل إبراهيم وموسى

(١) ابن تيمية (النبوات) ص٢٣ دار الفتح- بدون تاريخ.
(٢) نفسه ص٢٤.

وسليمان مثل داود ويوسف وغيرهما -مع أن داود وسليمان ويوسف هم رسل الله أيضًا دعوا إلى توحيد الله وعبادته كما أخبر الله أن يوسف دعا أهل مصر ولكن بغير معاداة لمن لم يؤمن ولا إظهار مناوأة بالذم والعيب والطعن لما هم عليه كما كان نبينا محمد ﷺ أول ما أنزل عليه الوحي، وكانت قريش إذ ذاك تقرّه ولا تنكر عليه، إلى أن أظهر عيب آلهتهم ودينهم وعيب ما كان عليه آباؤهم وسفّه أحلامهم، فهنالك عادوه وآذوه، وكان ذلك جهاداً باللسان قبل أن يؤمر بجهاد اليد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١]، وكذلك موسى مع فرعون أمره بأن يؤمن بالله وأن يرسل معه بنى إسرائيل وإن كره ذلك وجاهد فرعون بإلزامه بذلك بالآيات التى كان الله يعاقبهم بها إلى أن أهلكه الله وقومَه على يديه)[1].

التزام ابن القيم بمنهج شيخه:

ولابن القيم -التلميذ المقرّب لشيخه ابن تيمية -كتاب فى الأديان بعنوان (هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى) وكان له موقف خاص جادل فيه بعض علماء النصارى وأقام عليهم الحجّة على إثبات نبوّة النبى ﷺ، إذ لم يجدوا بداً فى نهاية المناظرة من الاعتراف برسالته ﷺ، ولكن (زعموا أنه لم يُرسل إليهم!).

قال الإمام ابن القيِّم: ودار بينى وبين بعض علمائهم مناظرة فى ذلك فقلت له أثناء الكلام: ولا يتم لكم القدح فى نبوة نبينا ﷺ إلا بالطعن فى الرب تعالى والقدح فيه ونسبته إلى أعظم الظلم والسفه والفساد تعالى الله عن ذلك، فقال: كيف يلزمنا ذلك؟ قلت: بل أبلغ من ذلك لا يتم لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالى وبيان ذلك أنه إذا كان محمد ﷺ

(١) نفسه ٢١٢.



عندكم ليس بنبى صادق وهو بزعمكم ملك ظالم فقد تهيأ له أن يفترى على الله ويقول عليه ما لم يقله ثم يتم له ذلك ويستمر حتى يحلل ويحرم ويفرض الفرائض ويشرع الشرائع وينسخ الملل ويضرب الرقاب ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق ويسبى نساءهم وأولادهم ويغنم أموالهم وديارهم ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض وينسب له ذلك كله إلى أمر الله تعالى له به ومحبته له والرب تعالى يشاهده وما يفعل بأهل الحق وأتباع الرسل وهو مستمر فى الافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلى أمره ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر وأعجب من ذلك أنه يجيب دعوته ويهلك أعداءه من غير فعل منه نفسه ولا سبب بل تارة بدعائه وتارة يستأصلهم سبحانه من غير دعاء منه ﷺ ومع ذلك يقضى له كل حاجة سأله إياها ويعده كل وعد جميل ثم ينجز له وعده على أتم الوجوه وأهنئها وأكملها، هذا وهو عندكم فى غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أكذب ممَن كذب على الله واستمر على ذلك ولا أظلم ممن أبطل شرائع أنبيائه ورسله وسعى فى رفعها من الأرض وتبديلها بما يريد هو وقتل أولياءه وحزبه وأتباع رسله واستمرت نصرته عليهم دائمًا والله تعالى فى ذلك كله يقوّيه ولا يأخذ منه باليمين ولا يقطع منه الوتين وهو يخبر عن ربه أنه أوحى إليه أنه لا أظلم ممن أفترى على الله كذبًا أو قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شيء ومَن قال سأنزل مثل ما أنزل الله، فيلزمكم معاشر من كذّبه أحد أمرين لا بد لكم منهما إما أن تقولوا لا صانع للعالم ولا مدبر ولو كان للعالم صانع مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة وجعله نكالاً للظالمين إذ لا يليق بالملوك غير هذا فكيف بملك السموات والأرض وأحكم الحاكمين؟ الثاني: نسبة الرب إلى ما لا يليق به من الجور والسفه والظلم وإضلال الخلق دائمًا أبد الآباد لا بل نصرة الكاذب والتمكين له من الأرض وإجابة دعواته

وقيام أمره من بعده وإعلاء كلماته دائمًا وإظهار دعوته والشهادة له بالنبوة قرنا بعد قرن على رؤوس الأشهاد فى كل مجمع وناد، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين؟ فلقد قَدَحْتم فى رب العالمين أعظم قدح وطعنتم فيه أشد طعن وأنكرتموه بالكلية ونحن لا ننكر أن كثيرًا من الكذابين قام فى الوجود وظهرت له شوكة ولكن لم يتم له أمره ولم تطل مدته بل سلط عليه رسله وأتباعه فمحقوا أثره وقطعوا دابره واستأصلوا شأفته، هذه سنته فى عباده منذ قامت الدنيا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فلما سمع منى هذا الكلام قال: معاذ الله أن نقول إنه ظالم أو كاذب بل كل منصف من أهل الكتاب يقر بأن من سلك طريقه واقتفى أثره فهو من أهل النجاة والسعادة فى الأخرى. قلت له: فيكف يكون سالك طريق ومقتفى أثره بزعمكم من أهل النجاة والسعادة؟ فلم يجد بداً من الاعتراف برسالته ولكن لم يُرسِل إليهم، قلت: فقد لزمك تصديقه ولا بد وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسول رب العالمين إلى الناس أجمعين كتابيهم وأميهم ودعا أهل الكتاب إلى دينه وقاتل من لم يدخل فى دينه منهم حتى أقروا بالصَّغار والجزية، فبهت الكافر ونهض من فوره. والمقصود أن رسول الله ﷺ لم يزل فى جدال الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم إلى أن توفى وكذلك أصحابه من بعده وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتى هى أحسن فى السور المكية والمدنية وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحجّة إلى المباهلة وبهذا قام الدين وإنما جُعل السيف ناصرًا للحجة وأعدل السيوف سيف ينصر حجج الله وبيّناته وهو سيف رسول الله ﷺ وأمّته[1].

---

(١) ابن القيمّ (زاد المعاد فى هدى خير العباد ﷺ) ص٧١٠/ ٧١٢ تحقيق د/ خليل شيحا- دار المعرفة- بيروت ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.



ويتضح المنهج المبتكر لابن تيـمية فى إثبات نبوة نبينا مـحمد ﷺ إذا قارناه بمنهج البيهـقى الذى أوجز فى الاستدلال عليـه بما ورد فى كتب أهل الكتاب من تنبؤات بالرسـول ﷺ، فخصصّ بابين فـقط أحدهما: [صفـة رسول الله ﷺ فى التوراة والإنجيل وسائر الكتب، وصفة أمته].

والثانى بعنوان: [ما وُجد من صورة نبينا محمد ﷺ مقرونة بصورة الأنبياء قبله بالشام][(1)].

ويأتى التـرجيح أيضًـا فى صف شيخ الإسـلام بالمقارنة بينه وبين القـاضى عيـاض -رحمـه الله تعالى- الذى لم يعـرض لدلائل نبوة الرسـول ﷺ عند علماء أهل الكتاب إلا بفصل واحد (وهو الفصل السابع والعشرون) ويقع فى نحو ثلاث صفحـات فقط بعنوان (أخباره وصفاته وعـلامات رسالته ﷺ عند أحبار ورهبان وعلماء ذلك الزمان)[(2)].

● وختامًا، **أرجو من القرّاء الأعزاء** -بعد الاطلاع على أحد جـوانب سيرة الرسول ﷺ بـهذا الكتـاب، الانطلاق للإحاطة بسـيرته العطرة الشـاملة التى تشغل جوانب حياة المسلم كلها -جليلها ودقيقها[(3)] -والسير على هداها عملاً بقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ [الأحزاب: ٢١].

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ﷺ لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى (٣٨٤- ٤٥٨هـ) من ص٣٦٥ إلى ص٣٩١ السفر الأول تحقيق د/ عبـد المعطى قلعجى دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٢) القـاضى عـياض (الشـفـا بتعـريف حـقـوق المصطفى ﷺ ص٣٧٥ مكتبـة التـراث بالقـاهرة ص ١٤هـ/ ٢٠٠٤م.

(٣) وأوصى بقراءة كتاب الإمام ابن القيم (زاد المعاد فى هدى خيـر العباد ﷺ) فإنه من أفضل وأشمل ما كتب فى سيرة النبى ﷺ.

وعندئذ يتحقق فعلاً، ما يراه القاضى عياض، إذ (**يشرق قلب المؤمن باليقين، وتملأ أنواره جوانح صدره، ويقْدُرُ العاقل النبى ﷺ حق قدره**)[1].

وإنى لأشارك الدكتوره عائشة عبد الرحمن -رحمها الله تعالى- فى رأيها بعد ما سردت سيرة الرسول ﷺ وقامت برحلة معها فقالت: (**هى مشاهد مما اجتليتُ وسيطرتْ على وجدانى، ومواقف شدَّت إليها تأمُّلى بجاذبّية آسرة، وارتبط فيها الماضى الحىّ بالحاضر المشهود، فما تتجلّى لنا رؤى الماضى ومشاهده، إلا لتؤنس وحشتنا وتهدى خُطانا، ولنذكر نعمة الله الكبرى أن أعزّنا بالإسلام وبعث فينا المصطفى ﷺ (شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً)**)[2].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى ٤ شوال سنة ١٤٣٠هـ
٢٣ سبتمبر سنة ٢٠٠٩م

---

(١) القاضى عياض (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ) ص١٠/١١ مكتبة التراث بالقاهرة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. ولاحظ استخدامه وصف (العاقل) -أى أن الذى لا يقدره ليس بعاقل).

(٢) د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): مع المصطفى ﷺ ص١٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٢م.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة الخاصة بكتاب أدباء أوربا والإسلام وتداخل المصالح الشخصية فى المهمة المقدسة(*)

● إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فهو المهتدى، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد..

فقد ظهر الوجه القبيح لحضارة الغرب، وزالت عنه مساحيق التكنولوجيا والتقدم العلمى، واتضح زيف شعارات السماحة والديمقراطية وحقوق الإنسان، وطغا على السطح ما تكنه هذه الحضارة فى أحشائها من عنصرية حاقدة، وهى ملوثة الأيدى بدماء الشعوب المغلوبة على أمرها من دول العالم الثالث -وأغلبه من المسلمين- الذين واجهوا الاستعمار بالجهاد المسلح، وقدموا الملايين من الشهداء فى حروب صليبية مستمرة لإتكاد تتوقف.

وقد تزامنت الحرب الصليبية[1] التى أعلنت على العراق وأفغانستان، مع انتشار الرسوم المسيئة لرسول الله ﷺ، مما دفع بالمسلمين إلى الغضب الشديد

(*) مقدمة كتاب (أدباء أوروبا والإسلام وتداخل المصالح الشخصية مع المهمة المقدسة «الأديب والفيلسوف الفرنسى «فولتير» أنموذجًا) للأستاذ محمود عبد العزيز محمود راضى (تحت الطبع).

(١) أعلن الرئيس السابق بوش الابن صراحة أنها حرب صليبية ثم تراجع. ولكن أكدها وزير الإعلام الصربى أثناء حرب (البوسنة) بقوله (نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة) إبراهيم نافع (جنون الخطر الأخضر وحملة تشويه الإسلام) ص١٦٩ مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

ولا ننسى عبارة اللنبى فى القدس سنة ١٩١٧ بانتهاء الحملات الصليبية، وصياح القائد الفرنسى بدمشق (لقد عدنا يا صلاح الدين).

والاحتجاج بالمظاهرات الصاخبة والمقاطعة الاقتصادية، وارتفعت الأصوات هنا وهناك لوضع حد حاسم لوقف تلك الإساءات التى تنال من سيد الخلق نبينا محمد ﷺ.

والكتاب الذى بين أيدينا يقدم دراسة علمية مؤثقة لأحد مشاهير أدباء أوروبا (فولتير) -صاحب الحظ الأوفر فى الإساءات إلى الرسول ﷺ بمسرحيته بعنوان (محمد ﷺ أو التعصب) ألتى كتبها عام ١٧٤١م ثم قدمتها (الكوميدى فرانسيز) فى باريس عام ١٧٤٢م. وقد وصف القائد الفرنسى نابليون بونابرت المسرحية حينذاك بأنها تستند إلى عملية تزييف للحقائق التاريخية عن النبى ﷺ، واتهم فولتير بأنه تخلى عن التاريخ الصحيح والضمير الإنسانى!

ومن المعلوم أن تكذيب الأنبياء والافتراء عليهم وسبهم ظاهرة قديمة صاحبت الأنبياء جميعًا، وقد سرد ابن تيمية آيات قرآنية عديدة تتضمن أقوال الكفار فى الأنبياء، ثم قال (وقد أخبر سبحانه وتعالى أن هذه سنة الكفار فى الأنبياء قبله ﷺ كما قال ﴿ **كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣] وقال تعالى: ﴿ **مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقد أخبر سبحانه أن الكفار قالوا عن موسى عليه السلام إنه ساحر وإنه مجنون، فقال فرعون ﴿ **إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ** ﴾ [الشعراء: ٢٧] وقوله: ﴿ **إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ** ﴾ [طه: ٧١].

وذكر تعالى عن اليهود أنهم قالوا على مريم بهتانًا عظيمًا: فقول اليهود فى المسيح من جنس أقوال الكفار فى الأنبياء، وكذلك قول كفار أهل الكتاب فى خاتم الأنبياء محمد ﷺ تسليما).

وما الموقف العدائى الأول لفولتير إلا حلقة من سلسلة الأحقاد القديمة التى يكنها الغرب للإسلام وللرسول ﷺ، تقول عالمة مقارنة الأديان كارين أرمسترونج (فإننا فى الغرب بحاجة أن نخلص أنفسنا من بعض أحقادنا القديمة[1]، ولعل شخص محمد ﷺ يكون مناسبًا للبدء. . . وقد أسس دينًا وموروثًا حضارياً لم يكن السيف دعامته- برغم الأسطورة الغربية- ودينًا اسمه الإسلام، ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق)[2].

وفى سياق عرضها لسيرة الرسول ﷺ، يبدو أنها تدعو لتصحيح الأخطاء والأكاذيب المتوارثة وإعادة النظر فيها بروح نزيهة ومنهج علمى محايد: (لأننا نعرف عن محمد ﷺ -أكثر مما نعرف عن مؤسس أى دين من الأديان الرئيسية الأخرى، وإن دراسة حياته يمكن أن تهبنا إدراكًا عميقا ومهماً لطبيعة التجربة الدينية)[3].

وبهذا التوجيه السديد، فإن آرمسترونج كأنها تدعونا أيضًا -معشر

---

(١) يقول ابن تيمية (فإنه معلوم أن كثيراً من أهل الكتاب، كان عندهم من البغض له والعداوة وتكذيبه والحرص على إبطال أمره، ما أوجب أن يفتروا أشياء لم توجد، ونسبوا إليه أشياء يعرف كذبها كل من عرف أمره حتى آل الأمر ببعضهم إلى أن يفسروا قول المسلمين (الله أكبر) بأنه أكبر صنم وأن النبى ﷺ أمر بتعظيم هذا الصنم (الجواب الصحيح جـ٣ صـ٢٩٦).

(٢) كارين آرمسترونج محمد ﷺ ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عنانى كتاب سطور (١) طبعة ثانية ١٩٩٨م.

(٣) نفسه صـ٢٤.

وفى موضع آخر من الكتاب تصور موقف الغرب من الإسلام بقولها (وظل الإسلام يمثل تحدياً لا يتوقف للغرب حتى القرن الثامن عشر. أما الآن فيبدو أن حربًا باردة ضد الإسلام توشك أن تحل محل الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتى) صـ٣٦.

المسلمين- إلى مخاطبة أهل الكتاب بمنهج علمائنا السابقين ومنهم ابن تيمية، الذى خصص فصولا كثيرة بكتاب (**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**) لدعوة أهل الكتاب للرجوع إلى كتبهم التى تبشر بمجيء الرسول ﷺ (وقد استخرج غير واحد من العلماء من الكتب الموجودة الآن فى أيدى أهل الكتاب من البشارات بنبوته ﷺ مواضع متعددة، وصنفوا فى ذلك مصنفات)[1] ويضيف إلى ذلك قوله (وتواتر عن خلق كثير من أهل الكتاب أنه موجود فى كتبهم، وتواتر من كثير ممن أسلم أنه كان سبب إسلامهم، أو من أعظم سبب إسلامهم علمهم بذكره فى الكتب المتقدمة)[2].

وقد وفق الأستاذ محمود عبد العزيز فى عرض موقف (فولتير) من الإسلام فى مرحلتى شبابه وشيخوخته، إذ كان فى الأولى يكيل فيه الخزعبلات للإسلام ورموزه ومقدساته، ثم تحول فى شيخوخته لإزالة الأفكار السيئة التى رسخت فى العقول، وأصبح المؤلف بهذه الدراسة غير مسبوق، لأننا نعلم من تاريخنا الثقافى المعاصران الأستاذ توفيق الحكيم قام بنقد (فولتير) نقداً قاسيًا بسبب موقفه المسيء من الإسلام ورسوله ﷺ، ولكنه لم يتنبه إلى (تحوله المحمود) فى نهاية حياته.

وكان الأستاذ توفيق الحكيم قد وصف هجوم (فولتير) على الإسلام، وتجريح شخص الرسول ﷺ بأنه هجوم وتجريح يستنكره أى إنسان يعرف الإنصاف إلى قلبه سبيلا، وقال (ولست أدرى كيف يمكن للمرء أن يقتنع بعمل هذا المفكر الحر وهو يكتب هذا الكتاب الذى ينحط بالفكر، ويعصف بحريته، كيف يقتنع المرء بأنه حقاً أمام مفكر حرّ، يتملق وينافق ويستجدى؟!)[3].

---

(١) ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٣ صـ٢٩٣.

(٢) نفسه صـ٢٩٥.

(٣) سامح كريم (قمم وأقطار إسلامية) صـ١٤٢. دار ألف للنشر -دار الوفاء للنشر ١٩٨٤م.

وكان محقاً فى هذا الوصف بعد اطلاعه على عبارة الإهداء لكتابه عن (محمد) ﷺ للبابا «بنوا» الرابع عشر بقوله (فلتستغفر قداستك لعبد خاضع من أشد الناس إعجابًا بالفضيلة إذ تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة بربرية -يقصد النبى محمد ﷺ-. . . فلتأذن لى قداستك فى أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة، وإنى مع الإجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القدسيتين)[1].

وأبدى **توفيق الحكيم** دهشته من موقف **(جان جاك روسو)** أيضًا الذى تناول أعمال **(فولتير)** بالنقد، وباطلاعه على نقده لتمثيلية محمد ﷺ كان يأمل رده الحق إلى نصابه، ولكن خاب أمله لأن «روسو» هو الآخر لم يدفع عن محمد ﷺ ما ألصقه (فولتير) به كذبا، وكأن (ما قيل عن النبى الكريم ﷺ لا غبار عليه عندهم، ولا حرج)[2].

ويأتى الآن الأستاذ محمود عبد العزيز ليستكمل بحث موقف **(فولتير)** من الرسول ﷺ، إذ انتهى به الأمر إلى الإقرار بسمو مكانته العظمى، وأنه سيد الخلق بحق.

ومن مميزات كتابه أيضًا أنه أتى بتوصيات متشعبة وبناءة، وهى جديرة بالتنفيذ الفورى إن خلصت النوايا فى الدفاع عن نبينا محمد ﷺ بالوسائل العصرية المتاحة، وأضيف إليها اقتراح ترجمة كتابه كاملا إلى اللغة الفرنسية -والإنجليزية أيضًا إن أمكن- أو الإكتفاء بترجمة الفصل الثالث الذى يبين عودة **(فولتير)** إلى الحق.

وإنى لأشكر المؤلف على جهده فى جمع مادته العلمية المنتقاة من مصادر مختلفة، ومصاغة بموهبة باحث ينتظر له بمشيئة الله تعالى مستقبل زاهر.

---

(١) نفسه صـ١٤٢.

(١) نفسه صـ١٤٩.

وأسأل الله تعالى أن يوفقه فى تقديم المزيد من المؤلفات النافعة للمسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

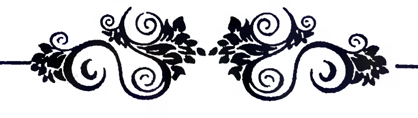
وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى ١٢ رمضان ١٤٣٠هـ

٢/٩/٢٠٠٩م

●●●



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٨١].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده،

قال ابن تيمية فى مقدمته لكتاب «**الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**»:

وقد خصّ الله تعالى محمداً ﷺ بخصائص ميزّه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين وجعل له شرعة ومنهاجًا، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين، كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس، هداهم الله بكتابه ورسوله ﷺ لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطًا عدلاً خياراً[1].

طرق معرفة النبوة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

قد ذكرنا فى غير موضع أن النبوة تُعلم بطرق كثيرة وذكرنا طرقًا متعددة فى معرفة النبى الصادق والمتنبى الكذاب، غير طريق المعجزات.

فإن الناس كلما قويت حاجتهم إلى معرفة الشىء، يسر الله أسبابه، كما يسر ما كانت حاجتهم إليه فى أبدانهم أشد.

فلما كانت حاجتهم إلى النفَس والهواء أعظم، منها إلى الماء كان مبذولاً لكل أحد فى كل وقت.

ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت، كان وجود الماء أكثر لذلك.

(١) ابن تيمية (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) جـ١ صـ٦.

فلما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم، كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها.

ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك، أقام الله سبحانه من دلائل صدقهم، وشواهد لنبوتهم، وحسن حال من اتبعهم وسعادته، ونجاته وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم وشقاوته وجهله وظلمه، ما يظهر لمن تدبر ذلك ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وهذا الذى ذكرناه، من اعتبار الشيء بنظرائه وموافقيه وأشباهه، واعتباره بأضداده ومخالفيه، حتى يعرف فى المتشابهين أيهم أكمل وأفضل، وفى المختلفين أيهم أولى بالحق والهدى، والعدل موجود فى سائر الأمور علمها وعملها، كعلم الطب والحساب والنحو والفقه وغير ذلك، فيمتنع -مع العلم والعدل- أن يقال: جالينوس كان طبيبًا، وأبقراط لم يكن طبيبًا، أو أن يقال: الأخفش كان نحويًا، وسيبويه لم يكن نحويًا، أو أن زفر والحسن بن زياد، ويونس بن خالد السمتى كانوا فقهاء، وأبو حنيفة لم يكن فقيهًا، أو أن أشهب، وابن القاسم، وابن وهب كانوا فقهاء، ومالك لم يكن فقيها، أو أن المزنى والبويطى والربيع كانوا فقهاء، والشافعى لم يكن فقيهًا، أو أن أبا داود وإبراهيم الحربى وأبا بكر الأثرم كانوا فقهاء، وأحمد بن حنبل لم يكن فقيهًا، أو أن عليًا كان إمام عدل وأبو بكر وعمر لم يكونا إمامى عدل، أو أن نور الدين الشهيد كان عادلا، وعمر بن عبد العزيز لم يكن عادلا، أو أن كوشيار كان يعلم الهيئة وبطليموس لم يكن يعرف الهيئة، أو أن أبا على بن الهيثم كان يعرف علم الهندسة وإقليدس لم يكن يعرف ذلك، أو أن النابغة الجعدى كان شاعرًا، والنابغة الذبيانى لم يكن شاعرًا، أو أن يقال: إن القمر مستنير، والشمس ليست مستنيرة، أو أن عطارد نجم ثاقب ثقب ضوءه، والمشترى ليس



بنجم ثاقب، أو أن مسلمًا كان عالمًا بالحديث، والبخارى لم يكن كذلك، أو أن كتابه أصح من كتاب البخارى. ونحو ذلك مما يطول تعداده.

المسيح عليه السلام بَشَّر بمحمد ﷺ

والنصارى لهم سؤال مشهور بينهم، وهو إن منهم من يقول: «محمد ﷺ لم تبشر به النبوات، بخلاف المسيح فإنه بشرت به النبوات».

وزعموا أن من لم تبشر به، فليس بنبى.

وهذا السؤال يورد على وجهين:

أحدهما: أنه لا يكون نبيًا حتى يبشر به.

والثانى: أن من بشرت به أفضل أو أكمل، ممن لم تبشر به، أو أن هذا طريق تعرف به نبوة المسيح، اختص به.

وأنتم قد قلتم: ما من طريق تثبت به نبوة نبى إلا ومحمد ﷺ تثبت نبوته بمثل تلك الطريق وأفضل.

فأما هذا الثانى، فيستحق، الجواب، وأما الأول فنحن نجيبهم عنه أيضًا لكن هل يجب الإجابة عنه؟ فيه قولان، بناء على أصل.

وهو أنه: هل من شرط النسخ الإشعار بالمنسوخ؟ ولنظار المسلمين فيه قولان:

أحدهما: أنه لابد إذا شرع حكمًا يريد أن ينسخه، فلابد أن يشعر المخاطبين بأنى سأنسخه، لئلا يظنوا دوامه، فيكون ذلك تجهيلا لهم.

والثانى: لا يشترك ذلك.

وأيضًا، فمن بعث بعد موسى بشريعة، هل يجب أن يكون مبشرًا به؟ فيه قولان.

وبكل حال، فلا ريب عند علماء المسلمين أن المسيح عليه السلام بشر بمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] و[الأنعام: ٢٠] فى موضعين من القرآن، أحدهما فى التوحيد أو القرآن، والآخر فى القبلة، والقرآن ومحمد ﷺ.

فقال فى الأول: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٩، ٢٠] وهذا فى سورة الأنعام، وهى مدنية.

وقال فى سورة البقرة وهى مدنية: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ



عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٤-١٤٧] وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وقال تعالى: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٩] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤] وقال تعالى: ﴿إِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وإذا كان كذلك، فيقال: معلوم باتفاق أهل الملل، أنه ليس من شرط نبوة

كل نبي، أن يبشر به من قبله، إذ النبوة ثابتة بدون ذلك، لا سيما ونوح وإبراهيم وغيرهما، لم يعلم أنه بشر بهما من قبلهما، وكذا عامة الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل، لم يتقدم لهم بشارات، إذ كانوا لم يبعثوا بشريعة ناسخة، كداود وأشعيا وغيرهما.

وإنما قد يدعى هذا، فيمن جاء بنسخ بعض شرع من قبله، كما جاء المسيح بنسخ بعض أحكام التوراة، وكذلك محمد ﷺ.

ففي مثل هذا يتنازع المتنازعون من علماء المسلمين وغيرهم: هل يشترط أن يكون قد أخبر بذلك قبل النسخ على قولين.

وحينئذ فنقول: فالمسلمون يقولون: شريعة التوراة والإنجيل لم تشرع شرعًا مطلقًا، بل مقيدًا، إلى أن يأتي محمد ﷺ، وهذا مثل الحكم الموقت بغاية لا يعلم متى يكون، كقوله تعالى: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ [البقرة: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿**فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا**﴾ [النساء: ١٥] ومثل هذا جائز بإتفاق أهل الملل.

وهل يسمى هذا نسخًا؟ فيه قولان:

قيل: لا يسمى نسخًا، كالغاية المعلومة، كقوله تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾ [البقرة: ١٨٧] فإن ارتفاع وجوب الصيام بمجيء الليل، لا يسمى نسخًا باتفاق الناس.

فقيل إن الغاية المجهولة، كالمعلومة.

وقيل: بل هذا يسمى نسخًا، ولكن هذا النسخ جائز باتفاق أهل الملل، اليهود وغيرهم.



وعلى هذا فثبوت نبوة المسيح ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما لا تتوقف على جواز النسخ المتنازع فيه، فإن ذلك إنما يكون فى الحكم المطلق، والشرائع المتقدمة لم تشرع مطلقًا.

وسواء قيل: إن الإشعار بالناسخ واجب، أو قيل: إنه غير واجب، فعلى القولين قد أشعر أهل الشرح الأول، بأنه سينسخ.

فإن موسى بشر بالمسيح، وكذلك غيره من الأنبياء.

وموسى والمسيح وغيرهما من الأنبياء بشروا بمحمد ﷺ.

وإذا كان هذا هو الواقع. فنبوة المسيح ومحمد ﷺ، لا تتوقف على ثبوت النسخ المتنازع فيه.

وحينئذ فنقول: العلم بنبوة محمد ﷺ ونبوة المسيح لا تتوقف على العلم بأن من قبلها بشر بهما، بل طرق العلم بالنبوة متعددة.

فإذا عرفت نبوته بطريق من الطرق، ثبتت نبوته عند من علم ذلك وإن لم يعلم أن من قبله بشر به.

لكن يقال: إذا كان الواجب أو الواقع، أنه لابد من إخبار من قبله بمجيئه، وأن الإشعار بنسخ شريعته، من قبله واجب أو واقع، صار ذلك شرطًا فى النبوة، من علم نبوته، علم أن هذا قد وقع، وإن لم ينقل إليه.

فإذا قال المعارض: عدم إخبار من قبله به، قد يقدح فى نبوته، فإنه إذا قدر أنه لم يخبر به من قبله والإخبار شرطًا فى النبوة، كان ذلك قدحا.

قيل: الجواب هنا من طريقين:

أحدهما: أن يقال: إذا علمت نبوته بما قام عليها من أعلام النبوة، فإما أن يكون تبشير من قبله به لازمًا لنبوته، واجبًا أو واقعًا، وإما أن لا يكون لازمًا.

فإن لم يكن لازما لم يجب وقوعه وإن كان لازمًا علم أنه قد وقع.

وإن كان ذلك لم ينقل إلينا. إذ ليس كل ما قالته الأنبياء المتقدمون علمناه ووصل إلينا.

وليس كل ما أخبر به المسيح؛ ومن قبله من الأنبياء، وصل إلينا وهذا مما يعلم بالاضطرار.

ولو قدر أن هذا ليس فى الكتب الموجودة لم يلزم أن المسيح ومن قبله لم يذكروه، بل يمكن أنهم ذكروه وما نقل. ويمكن أنه كان فى كتب غير هذه الكتب. ويمكن أنه كان فى نسخ غير هذه النسخ فأزيل من بعضها ونسخت هذه مما أزيل منه وتكون تلك النسخ التى هو موجود فيها غير هذه؛ فكل هذا ممكن فى العادة لا يمكن الجزم بنفيه.

فلو قدر أنه ليس فى هذه الكتب الموجودة اليوم بأيدى أهل الكتاب، لم يقطع بأن الأنبياء لم يبشروا به.

فإذا لم يمكن اليهود أن يقطعوا بأن المسيح لم يبشر به الأنبياء، ولا يمكن أهل الكتاب أن يقطعوا بأن محمداً ﷺ لم تبشر به الأنبياء، لم يكن معهم علم بعدم ذلك، بل غاية ما يكون عند أحدهم ظن، لكونه طلب ذلك، فلم يجده.

ودلائل نبوة المسيح ومحمد ﷺ قطعية يقينية لا يمكن القدح فيها بظن، فإن الظن لا يدفع اليقين، لا سيما مع الآثار الكثيرة المخبرة بأن محمداً ﷺ كان مكتوبًا باسمه الصريح فيما هو منقول عن الأنبياء، كما فى صحيح البخارى أنه قيل لعبد الله ابن عمرو: «أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ فى التوراة فقال: إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن: يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين. أنت عبدى ورسولى. سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا تجزى بالسيئة السيئة، ولكن تجزى بالسيئة الحسنة، وتعفو وتغفر، ولن أقبضه حتى



أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صما. وقلوبًا غلفا، بأن يقولوا: لا إله إلا الله».

ولفظ التوراة والإنجيل والقرآن والزبور، قد يراد به الكتب المعينة، ويراد به الجنس، فيعبر بلفظ القرآن عن الزبور وغيره، كما فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ: **«خفف على داود القرآن، فكان ما بين أن يسرح دابته إلى أن يركبها يقرأ القرآن»** والمراد به قرآنه، وهو الزبور، ليس المراد به القرآن الذى لم ينزل إلا على محمد ﷺ.

وكذلك ما جاء فى صفة أمة محمد ﷺ «أناجيلهم فى صدورهم» فسمى الكتب التى يقرؤونها -وهى القرآن- أناجيل.

وكذلك فى التوراة: «إنى سأقيم لبنى إسرائيل نبيًا من إخوتهم أنزل عليه توراة مثل توراة موسى» فسمى الكتاب الثانى توراة.

فقوله: «أخبرنى بصفة رسول الله ﷺ فى التوراة» قد يراد بها نفس الكتب المتقدمة كلها، وكلها تسمى توراة، ويكون هذا فى بعضها.

وقد يراد به التوراة المعينة، وعلى هذا فيكون هذا فى نسخة لم تنسخ منها هذه النسخ؛ فإن النسخ الموجودة بالتوراة التى وقفنا عليها، ليس فيها هذا.

لكن هذا عندهم فى نبوة أشعيا قال فيها: «عبدى الذى سرت به نفسى أنزل عليه وحيى، فيظهر فى الأمم عدلى. ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك، ولا يسمع صوته فى الأسواق، يفتح العيون العور، والآذان الصم، ويحيى القلوب الغلف، وما أعطيه، لا أعطى أحدا، يحمد الله حمدًا جديدًا، يأتى من أقصى الأرض، وتفرح البرية وسكانها، يهللون الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية، لا يضعف ولا يغلب، ولا يميل إلى الهوى مشقح، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصبة الضعيفة، بل يقوى

الصديقين، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذى لا يطفى أثر سلطانه على كتفيه».

وهذه صفات منطبقة على محمد ﷺ وأمته، وهى من أجل بشارات الأنبياء المتقدمين به.

ولفظ التوراة، قد عرف أنه يراد به جنس الكتب التى يُقرّ بها أهل الكتاب، فيدخل فى ذلك الزبور، ونبوة أشعيا، وسائر النبوات غير الإنجيل.

فإن كان المراد بلفظ التوراة والإنجيل فى القرآن هذا المعنى، فلا ريب أن ذكر النبى ﷺ فى التوراة بهذا الاعتبار، كثير متعدد ظاهر، كما سنبين بعضه.

وحينئذ فتكون التوراة فى قوله: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧] متناولة لجنس الكتب التى يقر بها أهل الكتاب.

ولفظ الإنجيل يختص بما عند النصارى ولهذا لم يذكر كونه فى الزبور مع أنه مذكور فيه، إذ كان مندرجا فى لفظ التوراة.

الطريق الثانى من الجواب: أن نبين أن الأنبياء قبله، بشروا به. وهذا هو دليل مستقل على ثبوته، وعلم عظيم من أعلام رسالته.

وهذا أيضًا، يدل على نبوة ذلك النبى إذ أخبر بأنباء من الغيب مع دعوى النبوة، ويدل على نبوة محمد ﷺ لإخبار من تثبت نبوته بنبوته.

هذا إذا وجد الخبر ممن لا نعلم ثبوته، ولم يذكر فى كتابنا.

وأما من ثبتت نبوته بطرق أخرى، كموسى والمسيح، فهذا مما تظاهر فيه الأدلة على المدلول الواحد، وهو أيضًا يتضمن أن كل ما ثبتت به نبوة غيره، فإنه تثبت به نبوته، وهو جواب ثان، لمن يجعل ذلك شرطًا لازمًا لنبوته.



الأنبياء قبل الرسول ﷺ بشَّروا به وذكروه بالمدح والثناء

ثم العلم بأن الأنبياء قبله، بشروا به يعلم من وجوه:

أحدها: ما فى الكتب الموجودة اليوم بأيدى أهل الكتاب من ذكره.

الثانى: إخبار من وقف على تلك الكتب وغيرها، من كتب أهل الكتاب، ممن أسلم، وممن لم يسلم، بما وجدوه من ذكره بها.

وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب، كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله ﷺ، وأنه موجود عندهم **وكانوا ينتظرونه وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه، من غير رهبة ولا رغبة.**

ولهذا قيل: إن المدينة فتحت بالقرآن، لم تفتح بالسيف كما فتح غيرها.

وقد أخبر الله بذلك عن أهل الكتاب فى القرآن قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾ [البقرة: ٨٧- ٩٠].

ومثل ما تواتر عن أخبار النصارى بوجوده فى كتبهم، مثل إخبار هرقل ملك الروم، والمقوقس ملك مصر صاحب الإسكندرية، والنجاشى ملك

الحبشة، والذين جاءوه بمكة، وقد ذكر الله عنهم في القرآن في قوله عن اليهود ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال عن النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣].

وقال ابن إسحق: حدثني محمد ابن أبي محمد، عن عكرمة، أو عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس «أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه».

فقال معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة، **يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ، ونحن أهل شرك، وتخبرونا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته ﷺ**.

فقال سلام بن مشكم، أخو بني النضير: ما جاءنا شيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم.

فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وقال أبو العالية وغيره: كانوا -يعني اليهود- إذا استنصروا بمحمد ﷺ على مشركي العرب يقولون: **«اللهم ابعث هذا النبي الذي تجده مكتوبًا عندنا حتى يعذب المشركين ويقتلهم»**.



فلما بعث محمدًا ﷺ ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدًا للعرب وهم يعلمون: أنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآيات ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾.

وروى ابن إسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى، ثم الطفرى، عن رجال من قومه قالوا: «ومما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه، أنا كنا نسمع من رجال يهود، كنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل الكتاب، عندهم علم ليس عندنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: **قد تقارب زمان نبى يبعث الآن، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم**» فكنا كثيرًا ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث الله رسوله ﷺ رسولا من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به وكفروا به ففينا وفيهم نزلت هؤلاء الآيات التى فى البقرة: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة:٨٩].

قال ابن إسحاق: وحدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة الأنصارى قال: حدثنى من شيت من رجال قومى عن حسان بن ثابت الأنصارى قال: «والله إنى لغلام يفقه، ابن سبع سنين أو ثمان سنين، أعقل كل ما سمعت إذ سمعت يهوديًا يقوم على أطم يثرب، يصرخ: «يا معشر اليهود» فلما اجتمعوا عليه قالوا: «مالك ويلك؟» قال: «**طلع نجم أحمد ﷺ الذى يبعث الليلة**».

وروى أبو زرعة بإسناد صحيح عن أسامة بن زيد عن أبيه زيد بن حارثة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ وهو مُرْدِفِيَّ، ثم أقبل رسول الله ﷺ فى

يوم حار من أيام مكة حتى إذا كنا بأعلى الوادى، لقيه زيد بن عمرو بن نفيل فقال له رسول الله ﷺ: «يا ابن عمرو مالى أرى قومك قد شنفوك؟».

قال: أما والله، إن ذلك لغير مـأثرة كانت منى فيـهم، ولكن أراهم على ضلال.

فخرجت أبتغى هذا الدين، فأتيت إلى أحبار يثرب، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: «ما هذا بالدين الذى أبتغى».

فخـرجت حتى آتى أحبـار خيبـر، فوجدتـهم يعبدون الله ويشـركون به، فقلت: «ما هذا بالدين الذى أبتغى».

فقال لى حبر من أحبار الشام: «إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحدًا يعبد الله به إلا شيخ بالجزيرة».

فخرجـت، فقدمت عليه فـأخبرته بالذى خرجت له، فـقال: «إن كل من رأيت فى ضلالة، ممن أنت؟».

قال: قلت أنا من أهل بيت الله، ومن أهل الشوك والقرظ.

فقال: إنه قد خـرج فى بلدك نبى، أو خـارج قد خرج نجـمه، فـارجع فصـدقه وابتعهُ وآمن به، فرجـعت فلم أحس شيئًـا بعد، قال: فـأناخ رسول الله ﷺ بعيره فقدمنا إليه السفرة.

قال زيد: ما أكلِ شيئًا ذبح لغير الله، فتفرقا، فجاء رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت.

قال زيد: وأنا معـه، وكان صنمان من نحاس يقال لهـما «أساف» و«نائلة» مسـتقبل الكعبـة، يتمسح بهـما الناس إذا طافوا، فقـال رسول الله ﷺ: **«لا تمسهما، ولا تمسَّح بهما»**.



قال زيد: فقلت في نفسي، وقد طفنا، لأمسهما حتى أنظر ما يقول، ممستهما فقال رسول الله ﷺ: «ألم تنهه؟» فلا والذى أكرمه، ما مسستهما حتى أنزل الله عليه الكتاب. ومات زيد بن عمرو بن نفيل قبل الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ **«إنه يبعث أمة وحده»**.

وروى البخارى حديث خروج زيد بن عمرو قريبًا من هذا اللفظ.

وقال ابن إسحاق حدثنا صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد عن سلمة بن سلامة بن وقس، قال: «كان بين أبياتنا يهودى، فخرج على بادى قومه بنى عبد الأشهل ذات غداة، فذكر البعث والقيامة، والجنة والنار، والحساب والميزان، فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثا كائن بعد موت، وذلك قبل مبعث رسول الله ﷺ، فقالوا: «ويحك يا فلان» أو «ويلك» وهذا كائن؟ إن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويجزون عن أعمالهم؟

قال: نعم والذى يحلف به، لوددت أن حظى من تلك النار، أن يوقدوا أعظم تنور فى داركم، فيحمونه، ثم يقذفونى فيه، ثم يطينون على، وإنى أنجو من تلك النار غدًا.

فقيل: يا فلان، فما علامة ذلك؟

قال: نبى يبعث من ناحية هذه البلاد، وأشار إلى مكة واليمن بيده.

قالوا: فمتى نراه؟

فرمى بطرفه فرآنى وأنا مضطجع بفنايات أهلى وأنا أحدث القوم فقال: إن يستقد هذا الغلام عمره يدركه.

فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وإنه لحى بين أظهرهم، فآمنا به وصدقناه، وكفر به بغيًا وحسدا.

فقلنا له: يا فلان، ألست الذى قلت ما قلت، وأخبرتنا؟ قال: ليس به».

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه: أن غلامًا يهوديًا كان يخدم النبى ﷺ فمرض، فأتاه رسول الله ﷺ يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة.

فقال له رسول الله ﷺ: **«يا يهودى أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى، هل تجد فى التوراة صفتى ومخرجى؟»** قال: لا.

قال الفتى: **بلى والله يا رسول الله إنا نجد فى التوراة نعتك ومخرجك، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ﷺ.**

فقال النبى ﷺ: **«أقيموا هذا من عند رأسه ولُوا أخاكم»** رواه البيهقى بإسناد صحيح.

وقال ابن إسحاق: حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بنى قريظة قال: هل تدرى عما كان إسلام أسيد وثعلبة ابنى سعيد، وأسد بن عبيد، نفر من بنى هذيل، لم يكونوا من بنى قريظة، وبنى النضير، كانوا فوق ذاك؟

فقلت: لا، قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام من يهود يقال له: ابن الهيبان، فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلى الخمس خيراً منه قدم علينا قبل مبعث النبى ﷺ بسنتين، وكنا إذا أقحطنا وقلّ علينا المطر نقول: يا ابن الهيبان، اخرج فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة فنقول: كم؟ فيقول: «صاعًا من تمر مُدَّيْن من شعير» فنخرجه، ثم يخرج إلى ظاهر حرُتنا ونحن معه، فنستسقى، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمر الشعاب، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة.

فحضرته الوفاة واجتمعوا إليه فقال: يا معشر يهود ما ترونه أخرجنى من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم. قال: **فإنه إنما أخرجنى توقع خروج نبى ﷺ قد أظل زمانه هذه البلاد ومهاجره، فاتبعوه ولا**

تُسبَقُنَّ إليه إذا خرج. يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبيِ الذرارى والنساء ممن خالفه، ولا يمنعنَّكم ذلك منه» ثم مات.

فلما كان الليلة التى فتحت فيها قريظة، قال أولئك الثلاثة الفتية، كانوا شبانًا أحداثًا: **يا معشر يهود والله إنه الذى ذكر لكم ابن الهيبان.**

فقالوا: ما هو به. **قالوا: «بل والله إنه لصفته» ثم نزلوا فأسلموا وخلوا أموالهم وأولادهم وأهاليهم.**

قال ابن إسحاق: فلما فتح الحصن، رد ذلك عليهم.

وفى الصحيحين من حديث ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب، لما حدثه عن هرقل وقد تقدم حديثه فى أول الكتاب وذكر فيه: أن هرقل لما سأله عن صفات رسول الله ﷺ قال: «إن يكن ما نقول فيه حقًا، إنه لنبى. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ﷺ.

وزاد البخارى فى حديثه، وقال ابن الناظور: وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم، فنظر فقال: إن ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قال: تختتن اليهود فلا يهمنك شأنهم، وابعث إلى من فى مملكتك من اليهود فيقتلونهم.

ثم وجدنا إنسانًا من العرب فقال: انظروا، أمختتن هو؟ فنظروا، فإذا هو مختتن.

وسأله عن العرب فقال: يختتنون.

وقال فيه: وكان برومية صاحب له، كان هرقل نظيره فى العلم، فأرسل إليه وسار إلى حمص، فلم يرم من حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأيه على خروج النبى ﷺ وأنه نبى.

وكذلك النجاشي ملك الحبشة، لما هاجر الصحابة إليه، لما أذاهم المشركون، وخافوا أن يفتنوهم عن دينهم، وقرءوا عليه القرآن، قال: فأخذ عودًا بين إصبعيه فقال: ماعدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته فقال: وإن نخرتم، اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي، يعنى أنتم آمنون.

وقال هذا، لأن قريشًا أرسلوا هدايا إليه وطلبوا منه أن يرد هؤلاء المسلمين وقالوا: «هؤلاء فارقوا ديننا، وخالفوا دينك، الحديث» رواه أحمد وغيره.

وفي الصحيحين حديث ورقة بن نوفل الذى ترويه عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحى قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه -وهى التعبد- الليالى ذوات العدد إلى أن قالت: **فأتت به خديجة ورقة بن نوفل**، وكان قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، فقالت: اسمع من ابن أخيك، فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال ورقة: «**هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى، ليتنى جذعًا أنصرك نصراً مؤزراً إذ يخرجك قومك، قال: أوَ مُخْرِجِيَّ هم؟** قال: نعم. لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً» ثم لم ينشب ورقة أن توفى».

وقال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلاً أو قريب من ذلك -وهو بمكة- من النصارى، حين ظهر خبره بالحبشة، فوجدوه فى المجلس فكلموه وسألوه، ورجال من قريش فى أنديتهم.

فلما فرغوا من مسألتهم رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن.



فلما سمعوا، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره.

فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقال: خيَّبكم الله من رَكْب، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم لترتادوا لهم، فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم، ما نعلم رَكْبًا أحمق منكم، أو كما قالوا لهم.

فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.

ويقال: فيهم نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣].

وعن محمد بن عمر بن سعيد بن محمد بن جبير: حدثتنى جدتى أم عثمان بنت سعيد بن محمد بن جبير عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت أبى جبيرًا يقول: «لما بعث الله نبيه ﷺ، وظهر أمره بمكة، خرجت إلى الشام، فلما كنت ببصرى، أتتنى جماعة من النصارى فقالوا لى: أمن الحرم أنت؟ قلت: نعم، قالوا: فتعرف هذا الذى تنبأ فيكم ﷺ؟ قلت: نعم، قال: فأخذوا بيدى فأدخلونى ديرًا لهم، فيه تماثيل وصُوَر، فقالوا لى: انظر هل ترى صورة هذا النبى ﷺ الذى بعث فيكم؟ فنظرت فلم أر صورته قلت: لا أرى صورته.

فأدخلونى ديرًا أكبر من ذلك الدير، فيه صورًا أكثر مما فى ذلك الدير.

فقالوا لى: انظر هل ترى صورته؟ فنظرت، فإذا أنا بصفة رسول الله ﷺ، وصورته، وإذا أنا بصفة أبى بكر وصورته وهو آخذ بعقب رسول الله ﷺ،

فقالوا لـي: انظر هل ترى صفته؟ قلت: نعم. قـالوا: هو هذا؟ وأشاروا إلى صفة رسول الله ﷺ، قلت اللهم نعم. أشهد أنه هو.

قالوا: أتعرف هذا الذى أخذ بعقبه؟ قلت: نعم.

قالوا: نشهـد أن هذا صاحبكم، وأن هذا الخليفة من بعـده» رواه البخارى فى تاريخـه، وقال فيـه: « قال الذى أراه الصـور لم يكن نبى إلا كـان بعده نبى، إلا هذا النبى ﷺ» ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة.

وروى موسى بن عـقبة أن هشام بن الـعاص، ونعيم بن عبـد الله، ورجلا آخر، قد سماه، بعثـوا إلى ملك الروم زمن أبى بكر، قال: فدخلنا على جبلة ابن الأيهم وهو بالغوطة، فذكـر الحديث وأنه انطلق إلى الملك وأنهم، وجدوا عنده شبـه الربعة العظيـمة مذهبـة، وإذا فيـها أبواب صفـار ففتح مـنها بابًا، فاستـخرج منه خرقة حـرير سوداء، فيهـا صورة نوح، ثم إبراهيم، ثم أراهم حريرة فيهـا صورة محمد ﷺ فقال: هذا آخر الأبـواب لكنى عجلته لأنظر ما عندكم، ثم فتح أبوابًا أخر وأراهم صورة بقية الأنبياء، موسى، هارون، داود، سليمان، عيسى ابن مريم عليهم السـلام، وصفة لوط، وصفة إسحاق، وذكر أن هذا عندهم قديمًا من عهد آدم، وأن دنيال صورها أعيانها. وروى مثل هذا عن المغيرة بن شعبـة، أنه لما دخل على المقوقس ملك مصر والإسكندرية ملك النصارى، أخرج له صور الأنبياء، وأخرج له صورة نبينا ﷺ فعرفها.

والوجه الثالث: نفس إخبـاره بذلك فى القرآن مرة بعـد مرة، واستشـهاده بأهل الكتاب وإخـباره بأنه مـذكور فى كتـبهم، مما يدل العـاقل على أنه كان موجودًا فى كـتبهم، فإنه لا ريب عنـد كل من عرف حال محمـد من مؤمن وكافـر، أنه كان من أعقل أهل الأرض، فـإن المكذبين له، لا يشكون فى أنه كـان عنده من الخـبـرة والمعـرفـة والحـذق، مـا أوجـب أن يقيـم مـثل هذا الأمر العظيم، الذى لم يحـصل لأحد مثله، لا قبله ولا بعـده، فعلم ضرورة

أنه لا يفعله ولا يخبر به، وهو من أحرص الناس على تصديقه، وأخبرهم بالطرق التى يصدق بها. وأبعدهم عن أن يفعل أنه يكذب به.

فلو لم يعلم أنه مكتوب عندهم، بل علم انتفاء ذلك، لامتنع أن يخبر بذلك مرة بعد مرة، ويستشهد به، ويظهر ذلك لموافقيه ومخالفيه وأوليائه وأعدائه، فإن هذا لا يفعله إلا من هو أقل الناس عقلا، لأن فيه إظهار كذبه عند من آمن به منهم، وعند من يخبرونه، وهو ضد مقصوده، وهو بمنزلة من يريد إقامة شهود على حقه فيأتى إلى من لا يعلم أنه لا يكذب. ويعلم أنه ليس بشاهد ولا حضر قضيته، ويقول: هذا يشهد لى، وهذا يشهد لى.

فإنهم كانوا حاضرين هذه القضية، فيقول: أولئك لسنا نشهد له. ولا حضرنا هذه القضية.

فهذا لا يفعله عاقل، يعلم أنهم لم يكونوا حاضرين، وأنهم يكذبونه ولا يشهدون له.

الرابع: أن يقال: لما قامت الأعلام على صدقه، فقد أخبر أنه مكتوب فى الكتب المتقدمة وأن الأنبياء بشروا به ،علم أن الأمر كذلك، لكن هذا لا يذكر إلا بعد أن يقام دليل منفصل على نبوته.

والطريق الأول، هو من أظهر الحجج على أهل الكتاب، وأظهر الأعلام على نبوته.

وقد استخرج غير واحد من العلماء من الكتب الموجودة الآن فى أيدى أهل الكتاب من البشارات من هذه الكتب من جنس البشارات بالمسيح عليه السلام.

واليهود يقرون باللفظ. لكن يدَّعون أن المبشَّر به ليس هو المسيح عيسى ابن مريم، وإنما هو آخر ينُتظر.

وهم -فى الحقيقة- لا ينتظرون إلا المسيح الدجال، وينتظرون أيضًا مجىء المسيح عيسى بن مريم إذا نزل من السماء، كما بسط فى موضع آخر،

ويحرفون دلالة اللفظ ويقولون: إنها لا تدل على نبى منتظر، كما قالوا فى قوله: «سأقيم لبنى إسرائيل نبيًا من إخوتهم مثلك يا موسى أُنزل عليه التوراة مثل توراة موسى، أجعل كلامى على فيه».

قال بعضهم ليس هذا إخبارًا، بل هذا استفهام إنكار، وقدروا ألف استفهام، وليس فى النص شىء من ذلك.

فاليهود يحرفون الدلالات المبشرة بالمسيح، وذلك عند المسلمين والنصارى لا يقدح فى البشارات بالمسيح، بل تبين دلالة النصوص عليه، وبطلان تحريف اليهود.

وكذلك البشارات بمحمد ﷺ فى الكتب المتقدمة، لا يقدح فيها تحريف أهل الكتاب، واليهود والنصارى؛ بل تبين دلالة تلك النصوص، على نبوة محمد ﷺ، وبطلان تحريف أهل الكتاب.

الوجه الخامس: أن يقال معلوم أن ظهور دين محمد ﷺ فى مشارق الأرض ومغاربها، أعظم حادث فى الأرض.

فلم يعرف قط دين، انتشر ودام كانتشاره ودوامه، فإن شرع موسى وإن دام، فلم ينتشر انتشاره ودوامه، بل كان غاية ظهوره ببعض الشام.

وأما شرع المسيح، فقبل قسطنطين، لم يكن له ملك، بل كانوا يكونون ببعض بلاد الروم وغيرها، وكانوا مستضعفين بقتل أعيانهم أو عامتهم فى كثير من الأوقات.

ولما انتشر أهله فرقًا متباينة، يكفر فيها بعضهم بعضًا.

ثم إن شرع محمد ﷺ ظهر فى مشارق الأرض ومغاربها، وفى وسط الأرض المعمورة الإقليم الثانى والثالث والرابع، وظهرت أمته على النصارى فى أفضل الأرض وأجلها عندهم، كأرض الشام ومصر والجزيرة وغيرها، ودام شرعه، فله اليوم أكثر من سبعمائة سنة.



ومعلوم أن هذا المدعى للنبوة، سواء كان صادقًا أو كاذبًا، لابد أن يخبر به الأنبياء فإنهم أخبروا بظهور الدجال الكذاب، تحذيرًا للناس من فتنته، وأنه كذاب يظهر على يده أمور يفتتن بها الناس، مع إن الدجال مدته قليلة، فلو كان ما يقوله المكذب لمحمد حقًا وأنه كاذب ليس برسول لكانت فتنته أعظم من فتنة الدجال من وجوه كثيرة؛ لأن الذين اتبعوه أضعاف أضعاف من يتبع الدجال، فلو كان كاذبًا لكان الذين افتتنوا به أضعاف أضعاف من يفتتن بالدجال، فكان التحذير منه أولى من التحذير من الدجال، إذ ليس فى العالم من زمان آدم إلى اليوم، كذاب ظهر ودام هذا الظهور والدوام؛ فكيف يغفل الأنبياء التحذير عن مثل هذا لو كان كاذبًا؟

وإذا كان صادقًا، فالبشارة للإيمان به، من أولى ما يبشر به الأنبياء من المستقبلات، ويخبر به، فعلم أنه لابد من أن يكون فى الكتب ذكره.

وقد وجد مواضع كثيرة فى الكتب، تزيد على مائة موضع، استدلوا بها على أنه مذكور ، وتواتر عن خلق كثير من أهل الكتاب أنه موجود فى كتبهم، وتواتر عن كثير ممن أسلم أنه كان سبب إسلامهم، أو من أعظم سبب إسلامهم، علمهم بذكره فى الكتب المتقدمة.

إما بأنه وجد ذكره فى الكتب، كحال كثير ممن أسلم قديمًا وحديثًا.

وإما بماثبت عندهم من أخبار أهل الكتاب، كالأنصار فإنه كان من أعظم أسباب إسلامهم ما كانوا يسمونهم من جيرانهم أهل الكتاب من ذكره ونعته، وانتظارهم إياه، وإن من خيارهم من لم يسكن أرض يثرب مع شدتها، وبدع أرض الشام مع رخائها إلا لانتظاره لهذا النبى العربى الذى يُبعث من ولد إسماعيل ﷺ.

ولم يمكن أحد قط أن ينقل عن شيء من الكتب أنه وجد فيها ذكره بالذم والتكذيب والتحذير كما يوجد ذكر الدجال.

وعند أهل الكتاب من ذكر أصحابه كعمر بن الخطاب وغيره، وعدلهم وسيرتهم عن المسيح وغيره، ما هو معروف عندهم.

فإذا كان الذين استخرجوا ذكره من كتب أهل الكتاب، والذين سمعوا خبره من علماء أهل الكتاب إنما يذكرون نعته فيها بالمدح والثناء، علم بذلك أن الأنبياء المتقدمين، ذكروه بالمدح والثناء، ولم يذكروه بذم ولا عيب.

وكل من ادَّعَى النبوة ومدحه الأنبياء وأثنوا عليه، لم يكن إلا صادق فى دعوى النبوة، يمتنع أن الأنبياء يثنون على من يكذب فى دعوى النبوة ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ**﴾ [الأنعام:٩٣]، وهذا مما يبين أنه لابد أن يكون الأنبياء ذكروه وأخبروا به، وأنهم لم يذكروه إلا بالثناء والمدح لا بالذم والعيب؛ وذلك - مع دعوى النبوة- لا يكون إلا إذا كان صادقًا فى دعوى النبوة فتبين أنهم بشروا بنبوته، وهوالمطلوب.

تبين من ذلك أن الأنبياء أخبروا أهل الكتاب بما سيكون منهم من الأحداث، وما يسلط عليهم من الملوك الذين يقتلونهم ويخربون بلادهم» كـ«بخت نصَّر» وسنجاريب.

ولكن هؤلاء الملوك لم يدَّعوا أنهم أنبياء، ولم يَدْعُوا إلى دين فلم تحتج الأنبياء إلى التحذير من اتباعهم وقد حذروا من اتباع من يَدَّعى النبوة وهو كاذب.

ومحمد ﷺ قد قهر أهل الكتاب، وسبى من سبى، وقتل من قتل، وأخرجهم من ديارهم، فلا بد أن يذكروه ويذكروا الأحداث تجرى عليهم فى أيامه.

وإذا كان كاذبًا مُدعيًا، للنبوة. فلابد أن يحذروهم من أتباعه.

ومعلوم أن عامة أهل الكتاب ومن نقل عنهم إما أن يقول: ليس موجودًا



فى كتبنا أو يقول: إنه موجود بالمدح والثناء، لا يمكن أحد أن ينقل عن الكتب المتقدمة أنه موجود فيها بالذم والتحذير.

ولو كان مذكوراً عندهم بالذم والتحذير، لكان هذا من أعظم ما يحتجون به عليه فى حياته، وعلى أمته بعد مماته، ويحتج به من لم يسلم منهم على من أسلم.

فإنه معلوم أن كثيراً من أهل الكتاب، كان عندهم من البغض له والعداوة وتكذيبه والحرص على إبطال أمره، ما أوجب أن يفتروا أشياء لم توجد، ونسبوا إليه أشياء يعرف كذبها كل من عرف أمره حتى آل الأمر ببعضهم إلى أن فسروا قول المسلمين «الله أكبر» وأن النبى أمر بتعظيم هذا الصنم!

وقال بعضهم فيه: إنه أوجب الزنا على المرأة المطلقة. ثلاثا، عقوبة لزوجها بأنه لا ينكحها حتى يزنى بها غيره.

وقال بعضهم: إنه تعلم من بحيرا الراهب، مع علم كل من عرف سيرته بأنه لم يجتمع بـ«بحيرا» وحده، ولم يره إلا بعض نهار ومع أصحابه لما مروا به لما قدموا الشام فى تجارة، وأن بحيرا، سألهم عنه ولم يكلمه إلا كلمات يستخبره فيها عن حاله ولم يخبره بشىء.

ومع طعن بعض أهل الكتاب فيه بأنه بعث بالسيف، حتى يقولوا إنما قام دينه بالسيف، وحتى يوهموا الناس أن الذين إتبعوه إنما اتبعوه خوفًا من السيف، وحتى يقولوا: إن الخطيب إنما يتوكأ علي سيف يوم الجمعة إشارة إلى أنه إنما يقوم الدين بالسيف، إلى أمثال هذه الأمور التى هى من أظهر الأمور كذبًا عليه، يعرف أدنى الناس معرفة بحاله أنها كذب،وهم -مع هذا- يتشبسون بها.

فلو كان عندهم أخبار عن الأنبياء توجب ذمه وتكذيبه والتحذير من متابعته، لكان إظهارهم لذلك، واحتجاجهم به أقوى وأبلغ، ،كان ذلك مما يجب فى العادة اشتهاره بين خاصتهم وعامتهم، قديمًا وحديثًا، وكان ظهور

ذلك فيهم أولى من ظهور خبر الدجال فيهم وفى المسلمين؛ فإن هذا الأمر من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعى على نقله واشتهاره.

فإذا لم يكن كذلك، علم أنه ليس فى كتب الأنبياء ما يوجب تكذيبه وذمه، وقد قام الدليل على أنه من أن تذكره الأنبياء وتخبر بحاله، فإذا لم يخبروا أنه كاذب، علم أنهم أخبروا أنه نبى صادق، كما شاع ذلك وظهر واستفاض من وجوه كثيرة.

فالكتاب الذى بعث به. مملوء بشهادة أهل الكتاب له، والكتب الموجودة فيها كثيرة شاهدة له من وجوه متعددة، والأخبار متواترة عمن اطلع على ما فيها بذلك، والأخبار متواترة عمن أسلم لأجل ذلك؛ وهذا مما يوجب القطع بأنه مذكور فيها بما يدل على صدقه فى دعوى النبوة، وليس فيها ما يخبر بكذبه والتحذير منه، وهذا هو المطلوب.

وفى الجملة أمره أظهر وأشهر، وأعجب وأبهر، وأخرق للعادة من كل أمر ظهر فى العالم من البشر. ومثل هذا إذا كان كاذبًا، فلكذبه لوازم كثيرة جداً تفوق الحصر، متقدمة ومقارنة ومتأخرة.

فإن من هو أدنى دعوة منه إذا كان كاذبًا، لزم كذبه من اللوازم ما يبين كذبه، فكيف مثل هذا؟ فإذا انتفت لوازم الكذب انتفى الملزوم.

وصدقه لازم لأمور كثيرة كلها تدل على صدقه، وثبوت الملزوم يقتضى ثبوت اللازم، ماضيه ومقارنه ومتأخره.

ومدعى النبوة لا يخلو من الصدق أو الكذب، وكل من الصدق والكذب له لوازم وملزومات، فأدلة الصدق مستلزمة له، وأدلة الكذب مستلزمة له، والصدق له لوازم والكذب له لوازم.

فصدقه يعرف بنوعين، بثبوت دلائل الصدق المستلزمة لصدقه، وبانتفاء لوازم الكذب الموجب انتفاؤها انتفاء كذبه.



كما أن كذب الكذاب يعرف بأدلة كذبه المستلزمة لكذبه، وبانتفاء لوازم الصدق المستلزم انتفاؤها لانتفاء صدقه والله أعلم.

والشيء يعرف تارة بما يدل على ثبوته، وتارة بما يدل على انتفاء نقيضه، وهو الذى يسمى قياس الخلف.

فإن الشيء إذا انحصر فى شيئين، لزم من ثبوت أحدهما انتفاء الآخر، ومن انتفاء أحدهما ثبوت الاخر.

ومدعى النبوة إما صادق، وإما كاذب، وكل منهما له لوازم. يدل انتفاؤها على انتفائه، وله ملزومات، يدل ثبوتها على ثبوته.

فدليل الشيء مستلزم له كأعلام النبوة ودلائلها، وأيات الربوبية، وأدلة الأحكام الشرعية وغير ذلك.

وانتفاء الشيء يعلم بما يستلزم نفيه كانتفاء لوازمه مثل صدق الكذاب يقال: لو كان صادقًا، لكان متصفًا بما يتصف به الصادقون.

وكذلك كذب الصادق يقال: لو كان كذابًا لكان متصفًا بما يتصف به الكذاب فإنه قد عرف حال الأنبياء الصادقين والمتنبئين الكذابين، فانتفاء لوازم الكذب، دليل صدقه، كما أن ثبوت ما يستلزم الصدق دليل صدقه.

وكذلك الكذاب يستدل على كذبه بما يستلزم كذبه، وبانتفاء لوازم صدقه، وهكذا سائر الأمور.

شهادة الكتب المتقدّمة لمحمد ﷺ حجة على أهل الكتاب

ومما ينبغى أن يعرف ما قد نبهنا عليه غير مرة، أن شهادة الكتب المتقدمة لمحمد ﷺ، إما شهادتها بنبوته. وإما شهادتها بمثل ما أخبر به هو الآيات البينات على نبوته ﷺ ونبوة من قبله وهو حجة على أهل الكتاب وعلى غير

أهل الكتاب من أصناف المشركين والملحدين. كما ذكر الله هذا النوع من الآيات فى غير موضع من كتابه.

كما فى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] وقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾[المائدة: ٨٣، ٨٤] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، ذلك مثل قوله فى التوراة ما قد ترجم بالعربية **«جاء الله من طور سينا»** وبعضهم يقول فى الترجمة: **«تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران»**.

قال كثير من العلماء -واللفظ لمحمد بن قتيبة- ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض؛ لأن مجىء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا، كالذى هو عنده أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح وكان المسيح من ساعير -أرض الخليل بقرية تدعى «ناصرة»- وباسمها سمى من اتبعه من نصارى.

وكما وجب أن إشراقه من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران، إنزاله القرآن على محمد ﷺ. وجبال فاران هى جبال مكة.

قال: وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف فى أن فاران هى مكة، فإن ادعوا أنها غير مكة، فليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم.

قال: أليس فى التوراة أن إ براهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران؟ وقلنا دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه، واسمه فاران والنبى الذى أنزل عليه كتابًا بعد المسيح. أو ليس «استعلن» و«علن» هما بمعنى واحد؟ وهو ماظهر وانكشف.

فهل تعلمون ظهر دين ظهور الإسلام وفشا فى مشارق الأرض ومغاربها فشوه؟

وقال أبو هاشم بن ظفر: «ساعير» جبل بالشام، منه ظهرت نبوة المسيح قلت: وبجانب بيت لحم، القرية التى ولد فيها المسيح، قرية تسمى إلى اليوم ساعير، ولها جبال تسمى ساعير.

وفى التوراة: أن نسل العيص كانوا سكانا بساعير، وأمر الله موسى أن لا يوذيهم.

وعلى هذا فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقًا، جبل حراء الذى ليس حول مكة جبل أعلى منه، ومنه كان نزول أول الوحى على النبى ﷺ وحوله من الجبال، جبال كثيرة، حتى قد قيل: إن بمكة اثنى عشر ألف جبل وذلك المكان يسمى فاران، إلى هذا اليوم، وفيه كان ابتداء نزول القرآن.

والبرية التى بين مكة، وطور سينا تسمى برية فاران، ولا يمكن أحدًا أن يدعى أنه -بعد المسيح- نزل كتاب فى شىء من تلك الأرض، ولا بعث نبى.

فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا إرسال محمد ﷺ وهو -سبحانه- ذكر هذا بالتوراة بالترتيب الزمانى، فذكر إنزال التوراة، ثم الإنجيل ثم القرآن، وهذه الكتب نور الله وهداه.

وقال في الأول: جاء أو ظهر؛ وفي الثاني: أشرق؛ وفي الثالث: استعلن. وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، أو ما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ازداد به النور والهدى.

وأما نزول القرآن، فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، ولهذا قال: واستعلن من جبال فاران، فإن النبي ﷺ، ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها، أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين.

كما يظهر نور الشمس إذا إستعلنت في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا سماه الله سراجًا منيرًا، وسمى الشمس سراجًا وهاجًا.

والخلق محتاجون إلي السراج المنير، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج، فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت، بل قد يتضررون به بعض الأوقات.

وأما السراج المنير، فيحتاجون إليه كل الوقت، وفي كل مكان، ليلاً ونهارًا، سرًا وعلانية.

وقد قال النبي ﷺ: **«زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوِيَ لي منها»**

وهذه الأماكن الثلاث أقسم الله بها في القرآن في قوله تعالي: **﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾** [التين: ١-٨].



فأقسم بالتين والزيتون وهى الأرض المقدسة التى ينبت فيها ذلك، ومنها بعث المسيح، وأنزل عليه فيها الإنجيل، وأقسم بطور سيناء، وهو الجبل الذى كلم الله فيه موسى، وناداه من واديه الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وأقسم بالبلد الأمين، وهي مكة، والبلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه، وهو الذى جعله الله حرمًا آمنًا، ويتخطف الناس من حولهم، وجعله آمنًا، خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا، فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله، فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٥، ١٢٦].

فأخبر الله تعالى أن إبراهيم دعا الله بأن يجعل مكة بلدًا آمنًا، واستجاب الله لدعاء إبراهيم، وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم، فبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وذكر ذلك فى غير موضع قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ

بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين (٩٦) فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] وقال تعالى: ﴿لإيلاف قريش (١) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢) فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ [قريش]. وقال تعالى: ﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [القصص: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ [العنكبوت: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود (٢٦) وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق (٢٧) ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير (٢٨) ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٩]. قال تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم﴾ [المائدة: ٩٧].

فقوله تعالى: ﴿والتين والزيتون (١) وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين﴾ [التين: ١ - ٣]. أقام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة، التى ظهر فيها نوره وهداه، وأنزل فيها كتبه الثلاثة، التوارة، والإنجيل، والقرآن.

كما ذكر الثلاثة فى التوراة بقوله: جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال «فاران».



ولما كان ما في التوراة خبرًا عنها، أخبر بها على ترتيبها الزماني فقدم الأسبق فالأسبق.

وأما القران، فإن أقسم بها تعظيمًا لشأنها، وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته، وكتبه، ورسله.

فأقسم بها علي وجه التدريج، درجة بعد درجة، فختمها بأعلى الدرجات.

فأقسم أولاً، بالتين والزيتون، ثم بطور سينا ثم بمكة، لأن أشرف الكتب الثلاثة، القرآن، ثم التوراة، ثم الإنجيل، وكذلك الأنبياء.

فأقسم بها على وجه التدريج، كما في قوله: ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا**﴾ [الذاريات: ١ - ٣].

فأقسم بطبقات المخلوقات، طبقة بعد طبقة، فأقسم بالرياح الذاريات، ثم بالسحاب الحاملات للمطر، فإنها فوق الرياح، ثم بالجاريات يسرًا.

وقد قيل: إنها السفن، ولكن الأنسب أن تكون هى الكواكب المذكورة في قوله: ﴿ **فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ**﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، فسماها جوارى كما سمى الفلك جوارى فى قوله: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ**﴾ [الشورى: ٣٢] والكواكب فوق السحاب.

وما ذكر ابن قتيبة وغيره من علماء المسلمين، من تربية إسماعيل فى برية «فاران» فهكذا هو فى التوراة، قال فيها: «وغدا إبراهيم فأخذ الغلام وأخذ خبزًا وسقاء من ماء، ودفعه إلى هاجر، وحمله عليها، وقال لها: اذهبى فانطلقت هاجر فضلَّت فى برية سبع، ونفذ الماء الذى كان معها، فطرحت الغلام تحت شجرة وجلست فى مقابلته على مقدار رمية سهم، لئلا تبصر الغلام حين يموت، ورفعت صوتها بالبكاء، وسمع الله صوت الغلام، فدعا

ملك الله هاجر وقال لها: مالك يا هاجر؟ لا تخش فإن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو، فقومى فاحملى الغلام، وشدى يديك به، فإنى جاعله لأمة عظيمة».

وفتح الله عينها فبصرت بئر ماء، فسقت الغلام وملأت سقاءها، وكان الله مع الغلام فربى وسكن فى برية (فاران).

فهذا خبر الله فى التوراة أن إسماعيل ربى وسكن فى برية فاران، بعد أن كاد يموت من العطش، وأن الله سقاه من بئر ماء.

وقد علم بالتواتر واتفاق الاسم أن إسماعيل إنما ربى بمكة، وهو وأبوه إبراهيم بنيا البيت، فعلم أن أرض مكة من فاران.

والله تعالى قد أخبر فى القران فى غير موضع بكون إسماعيل كان بمكة، فقال عن الخليل ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٥ - ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ**



وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٩].

وهذه البشارة التى فى التوراة لهاجر بإسماعيل، وقول الله: (إنى جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جداً جداً) وإن هاجر فتحت عينها فرأت بئر ماء فدنت منها، وملأت المزادة، وشربت وسقت الصبى، وكان الله معها، ومع الصبى حتى تربى، وكان مسكنه فى برية «فاران».

وفى موضع آخر قال عن إسماعيل: إنه يجعل يده فوق أيدى الجميع.

ومعلوم باتفاق الأمم، ونقل المتواتر أن إسماعيل تربى بأرض مكة، فعلم أنها «فاران»، وأنه هو وإبراهيم بنيا البيت الحرام الذى مازال محجوجًا من عهد إبراهيم، تحجه العرب، وغير العرب من الأنبياء وغيرهم، كما حج إليه موسى بن عمران، ويونس بن مَتَّى، كما في الصحيح من رواية ابن عباس: أن رسول الله ﷺ مرَّ بوادى الأزرق بين مكة والمدينة، فقال: «أى وادٍ هذا؟»، فقالوا: هذا وادى الأزرق، فقال: «كأنى أنظر إلى موسى ﷺ هابطًا من الثنية، واضعًا أصبعيه فى أذنيه، له جؤار إلى الله عز وجل فى التلبية، ماراً بهذا الوادى» قال: ثم سرنا حتى أتينا على ثنية، فقال: «أيُّ ثنية هذه؟» قالوا: هو شىء، فقال: «كأنى أنظر إلى يونس على ناقة حمراء، عليه جبة صوف. خطام ناقته ليف خلبة، ماراً بهذا الوادى ملبيًا».

وفى رواية: «أما موسى فرجل آدم، جعل على جمل أحمر مخطوم بخلبة ليف».

ولما بعث الله محمداً ﷺ، أوجب حجه على كل أحد، فحجت إليه الأمم من مشارق الأرض ومغاربها.

والبئر الذى شرب منها إسماعيل وأمه، هى بئر زمزم، وحديثها مذكور في صحيح البخارى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل إسماعيل، اتخذت منطقًا ليعفى أثرها على سارة.

ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، فى أعلا المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندها جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم قفا إبراهيم منطلقًا فتتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى، ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها.

فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا.

وفى لفظ «وتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء، نادته من وراء يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند البيت، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ - حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السقاء وعطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبَّط، انطلقت كراهيةَ أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر، هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طرف درعها، ثم سعت

سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت، هل ترى من أحد؟ فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما.

فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتًا، فقالت: صه، تريد نفسها، ثم كيف سمعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: **«يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم»، أو قال: «لو لم تغرف من الماء، لكان زمزم عينًا معينًا»**.

قال فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة، فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كدا، فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرًا عايفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور علي ماء، لعهدنا بهذا الوادى، وما فيه ماء، فأرسلوا جريًا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا.

قال: وأم إسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم؟ ولكن لا حق لكم فى الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زَوَّجُوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل.

فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل، يطالع تركته فلم يجده، فسأل امرأته فقالت: خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: بِشَرٍ نحن فى ضيق وشدة، فشكت إليه.

قال: إذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة.

قال: فهل أوصاك بشىء؟ قالت: نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام، وقال: تغير عتبة بابك، قال: ذاك أبى، قد أمرنى أن أفارقك، ألحقى بأهلك فطلقها.

ثم تزوج منهم أخرى، فلبث عنهم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده. فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغى لنا.

قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله.

فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء.

قال النبى ﷺ: لَم يكن لهن يومئذ حب، ولو كان لهم، دعا لهم فيه» قال: «فهما لا يخلو عنهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه».

قال: فإذا جاء زوجك، فاقرئى عليه السلام، ومريه أن يثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟



قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثـنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا بخير.

قال: فأوصاك بشيء؟ قـالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام ويقول لك: أن تثبت عتبة بابك.

قال: ذاك أبى، وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك.

ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نَبْلاً له تحت دوحة قريبة من زمزم.

فلما رآه، قام إليه، فصنع كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد.

ثم قال: يا إسـماعيل، إن الله أمرنى بـأمر. قال: فاصنع مـا أمرك ربك، قال: وتعيننى؟ قال: وأعينك.

قال: فإن الله أمرنى أن أبنـى ها هنا بيتًا، وأشار إلى أكمة مرتـفعة على ما حولها.

قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيـت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة، وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع بالبناء، جاء بهذا الحجـر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى، وإسمـاعيل يناوله الحجارة وهمـا يقولان: (**ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم**). قال: فجعلا يبنيان، حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم».

وكانت بئر زمزم قد عميت ثم أحياها عبد المطلب جد النبى ﷺ وصارت السقـاية فى ولده فى العباس وأولاده، يسقـون منها، ويسقون أيضًـا الشراب الحلو، والشرب من ذلك سنة.

والله تعالى قال فى إسماعيل: «إنى جاعله لأمة عظيمة ومعظمة جداً جداً» وهذا التعظيم المؤكد بـ«جداً جداً» يقتضى أن يكون تعظيمًا مبالغًا.

فلو قدر أن البيت الذى بناه لا يحج إليه أحد، وأن ذريته ليس منهم شيء، كما يقوله كفرة أهل الكتاب، لم يكن هناك تعظيم مبالغًا فيه بجدًا جدًا، إذا أكثر ما فى ذلك أن يكون له ذرية.

ومجرد كون الرجل له نسل وعقب، لا يعظم به إلا إذا كان فى الذرية مؤمنون مطيعون لله.

وكذلك قوله: «أجعله لأمة عظيمة» إن كانت تلك الأمة كافرة، لم تكن عظيمة، بل كان يكون أبا لأمة كافرة، فعلم أن هذه الأمة العظيمة، كانوا مؤمنين، وهؤلاء يحجون البيت، فعلم أن حج البيت مما يحبه الله ويأمر به.

وليس فى أهل الكتاب إلا المسلمون، فعلم أنهم الذين فعلوا ما يحبه الله ويرضاه، وأنهم وسلفهم الذين كانوا يحجون البيت، أمة أثنى الله عليها، وشرفها، وأن إسماعيل عظمه الله جدًا جدًا بما جعل فى ذريته من الإيمان والنبوة، وهذا هو، كما أمتن الله على نوح وإبراهيم بقوله: ﴿**ولقد أرسلنا نوحًا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب**﴾ وقال في الخليل: ﴿**وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب**﴾ ولما قال في نوح: ﴿**وجعلنا ذريته هم الباقين**﴾ كان فى ذريته أهل الإيمان كلهم.

فعلم بذلك أن إسماعيل وذريته معظمون عند الله ممدوحون وأن إسماعيل معظم جدًا جدًا، كما عظم الله نوحًا وإبراهيم، وإن كان إبراهيم أفضل من إسماعيل.

لكن المقصود أن هذا التعظيم له ولذريته إنما يكون إذا كانت ذريته معظمة على دين حق وهؤلاء يحجون إلى هذا البيت؛ ولا يحج إليه بعد مجئ محمد ﷺ غيرهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ [آل عمران:



٨٥] قالت اليهود أو بعض أهل الكتاب: فنحن مسلمون. قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: ٩٧]. فقالوا: لا نحج. فقال: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وأيضًا فهذا التعظيم المبالغ فيه، الذي صار به ولد إسماعيل فوق الناس، لم يظهر إلا بنبوة محمد ﷺ، فدل ذلك على أنها حق مبشر به.

ومثل هذا بشارة أخرى بمحمد ﷺ من كلام «شمعون» بما رضوه من ترجمتهم وهو: «جاء الله بالبينات من جبال فاران وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته».

فهذا تصريح بنبوة محمد ﷺ الذى جاء بالنبوة من جبال **«فاران»** وامتلأت السموات والأرض من تسبيحه وتسبيح أمته، مما يسمى **«فاران»** سوى **محمد** ﷺ.

فإن المسيح لم يكن بأرض فاران ألبتة.

وموسى إنما كُلِّمَ من الطور. والطور ليس من أرض فاران، وإن كانت البرية التى بين الطور وأرض الحجاز من فاران، فلم ينزل الله فيها التوراة، وبشارات التوراة قد تقدمت بجبل الطور وبشارة الإنجيل بجهل «ساعير».

ومثل هذا ما نقل عن نبوة «حبقوق» أنه قال: جاء الله من التيمن، وظهر القدس على جبال «فاران» وامتلأت الأرض من تحميد «أحمد» وملك بيمينه رقاب الأمم، وأنارت الأرض لنوره، وحملت خيله فى البحر.

ومن ذلك ما فى التوراة التى بأيديهم فى السفر الأول منها، وهي خمسة أسفار فى الفصل التاسع فى قصة هاجر، لما فارقت سارة وخاطبها الملك فقال: «يا هاجر من أين أقبلت وإلى أين تريدين».



فلما شرحت له الحال قال: ارجعي فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يُحْصَونَ، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا تسمينه إسماعيل، لأن الله قد سمع تذللك وخضوعك، وولدك يكون وحى الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الكل به، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته.

قال المستخرجون لهذه البشارة: معلوم أن يد بنى إسماعيل قبل مبعث محمد ﷺ لم تكن فوق أيدى بنى إسحاق، بل كان فى بنى إسحاق النبوة والكتاب، وقد دخلوا مصر زمن يوسف مع يعقوب فلم يكن لبني إسماعيل فوقهم يد، ثم خرجوا منها لما بعث الله موسى، وكانوا مع موسى أعز أهل الأرض، لم يكن لأحد عليهم يد، ثم مع يوشع بعده إلى زمن داود، وملك سليمان الذى لم يؤت أحد مثله، وسلط عليهم بعد ذلك «بخت نصرّ»، فلم يكن لبنى إسماعيل عليهم أمر، ثم بعث المسيح وخرب بيت المقدس الخراب الثانى، حيث أفسدوا فى الأرض مرتين، ومن حينئذ زال ملكهم وقَطَّعهم الله فى الأرض أممًا، وكانوا تحت حكم الروم والفرس والقبط، ولم يكن للعرب عليهم حكم أكثر من غيرهم، فلم يكن لولد إسماعيل سلطان على أحد من الأمم، لا أهل الكتاب ولا الأميين فلم يكن يد ولد إسماعيل فوق الجميع حتى بعث محمدًا ﷺ الذى دعا به إبراهيم وإسماعيل حيث قالا: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فلما بُعث، صارت يد ولد إسماعيل فوق الجميع، فلم يكن فى الأرض سلطان أعز من سلطانهم، وقهروا فارس والروم وغيرهم من الأمم، وقهروا اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والصابئين.

فظهر بذلك تحقيق قوله فى التوراة: «**وتكون يده فوق الجميع، ويد الكل به**» **وهذا أمر مستمر إلى آخر الدهر.**



فإن قيل: هذه بشارة بملكه وظهوره؟

قيل: الملك ملكان، ملك ليس فيه دعوى نبوة، وهذا لم يكن لبني إسماعيل على الجميع، وملك صدر عن دعوى نبوة.

فإن كان مدعي النبوة كاذبًا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وهذا من شر الناس وأكذبهم وأظلمهم وأفجرهم، وملكه شر من ملك الظالم الذي لم يَدَّعِ نبوة كـ«**بختنصر**» و«**سنجاريب**».

ومعلوم أن الإخبار بهذا لا يكون بشارة، ولا تفرح سارة وإبراهيم بهذا كما لو قيل: يكون جبارًا طاغيًا يقهر الناس على طاعته، ويقتلهم، ويسبي حريمهم، ويأخذ أموالهم بالباطل»، فإن الإخبار بهذا لا يكون بشارة، ولا بشر المخبر بذلك، وإنما يكون بشارة تسره إذا كان ذلك يعدل وكان علوه محمودًا لا إثم فيه وذلك من مدعِي النبوة لا يكون إلا وهو صادق لا كاذب.

صفات الرسول ﷺ كما وردت في (الزبور)

أ- وقال داود في الزبور في قوله: «سبحوا لله تسبيحًا جديدًا» وليفرح بالخالق من اصطفى الله له أمته وأعطاه النصر، وسدد الصالحين منهم بالكرامة، يسبحونه على مضاجعهم، ويكبرون الله بأصوات مرتفعة، بأيديهم سيوف ذات شفرتين، لينتقم بهم من الأمم الذين لا يعبدونه.

وهذه الصفات إنما تنطبق على صفات محمد ﷺ وأمته، فهم الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في أذانهم للصلوات الخمس وعلى الأماكن العالية، كما قال جابر بن عبد الله: «كنا مع رسول الله ﷺ إذا علونا كبَّرنا وإذا هبطنا سَبَّحْنَا فوضعت الصلاة على ذلك» رواه البخاري.

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا قفل من الجيوش، أو السرايا، أو الحج، أو العمرة. إذا أوفى على ثنية. أو فَدْفَد، كبَّر ثـلاثًا، ثم قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحـمد وهو على كل شىء قديـر، آيبون تائبون عـابدون ساجدون، لربنا حـامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

وفى صحـيح البخارى عن أنـس قال: «صلى رسول الله ﷺ ونحن مـعه بالمدينة الظهر أربعًا، والعصر بذى الحليفـة ركعتين، ثم بات بها حتى أصبح، ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء، حمد الله وسبح وكبر، ثم أهلَّ بعمرة وحج» وذكر الحديث.

وعن أبى هريرة: أن رجلاً قال: يا رسـول الله إنى أريد أن أسافر فأوصنى قال ﷺ: **«عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»**.

فلما ولّـى الرجل قال: **«اللهم اطْوِ له البـعد وهوِّن عليـه السفـر»** رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى.

وروى ابن ماجة عنه «أوصيك بتقوى الله، والتكبير على كل شرف».

وروى أبو داود وغيره بإسناد صحيح عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: كان النبى ﷺ وجيوشه إذا عَلَوا شرفًا كبَّروا، وإذا هبطوا، سبَّحوا.

وهم يكبرون الله بأصوات عاليـة مرتفعة فى أعيادهم، عـيد الفطر، وعيد النحـر، فى الصـلاة والخطبـة، وفى ذهابهم إلى مـوضع الصـلاة، وفى أيام «منَى» الحجـاج وسائر أهل الأمصار يكـبرون عقب الصلوات: فإمـام الصلاة يُسَن له الحمد والتكبير.

وذكر البخارى عن عـمر بن الخطاب: أنه كان يكبر فى قبة بمنى، فيـسمعه أهل المسجد فيكبـرون بتكبيره. فيسمعهم أهل الأسـواق فيكبرون، حتى ترتج منًى تكبيرًا.

وقال: وكان ابن عمرو وابن عباس، يخرجان إلى السوق أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرها، ويكبرون على قرابينهم وهَدْيهم وضحاياهم، كما كان نبيهم يقول عند الذبح: «بسم الله والله أكبر» ويكبرون إذا رموا الجمار، ويكبرون عند الصفا والمروة، ويكبرون فى الطواف عند محاذاة الركن، وكل هذا يجهرون فيه بالتكبير غير ما يسرونه.

قال تعالى: لما ذكر صوم رمضان الذي يقيمون له عيد الفطر: ﴿ **وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الحج: ٣٦، ٣٧]. **والنصارى يسمون عيد المسلمين «عيد الله الأكبر» لظهور التكبير فيه، وليس هذا لأحد من الأمم، لا أهل الكتاب، ولا غيرهم من المسلمين، وإنما كان موسى يجمع بنى إسرائيل «بالبوق»، والنصارى شعارهم «الناقوس».**

وأما تكبير الله بأصوات مرتفعة، فإنما هو شعار المسلمين، فإن الأذان شعار المسلمين، وبهذا يظهر تقصير من فسر ذلك بتلبية الحجاج.

وفى الصحيحين عن أنس عن النبى ﷺ: «أنه كان إذا غزا أقوامًا، لم يغز حتى يصبح، فإن سمع أذانًا أمسك، وإن لم يسمع أذانًا أغار بعد ما يصبح».

وفى لفظ مسلم «كان يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذانًا أمسك وإلا أغار». فسمع رجلاً يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال: رسول الله ﷺ: **«على الفطرة»** ثم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله» فقال: **«خرجت من النار»**.

وعن عصام المزنى قال: كان النبى ﷺ إذا بعث السرية يقول: «إذا رأيتم مسجدًا أو سمعتم مناديًا فلا تقتلوا أحدًا» رواه أحمد، وأبو داود والترمذى وابن ماجه.

وكذلك قوله: «بأيديهم سيوف ذات شفرتين» وهى السيوف العربية التى بها فتح الصحابة وأتباعهم البلاد.

وقوله: «يسبحونه على مضاجعهم» بيان لنعت المؤمنين الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا على جنوبهم، ويصلى الفرض أحدهم قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع، فعلى جنب، فلا يتركون ذكر الله فى حال، بل يذكرونه حتى فى هذه الحال، ويصلون فى البيوت على المضاجع. بخلاف أهل الكتاب.

والصلاة أعظم التسبيح كما فى قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣].

وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: «كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر البدر فقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون فى رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طخ: ١٣٠] وهذا معنى قول داود: سبحوا الله تسبيحًا جديدًا يعنى التسابيح التى شرعها الله جديدًا، كالصلوات الخمس التى شرعها للمسلمين جديدًا.



ولما أقامها جبريل للنبي ﷺ قال: «هذا وقتك، المتقدم الأنبياء قبلك».

فكان الأنبياء يسبحون في هذه الأوقات، وذلك هو التسبيح المقدم، والتسبيح الجديد المسلمين كما يدل عليه سائر الكلام.

ولا يمكن أن يكون ذلك للنصارى، لأنهم لا يكبرون الله بأصوات مرتفعة، ولا بأيديهم سيوف ذات شفرتين، لينتقم الله بهم من الأمم، بل أخبارهم تدل على أنهم كانوا مغلوبين مع الأمم، ولم يكونوا يجاهدونهم بالسيف، بل النصارى قد تعيب من يقاتل الكفار بالسيف.

ومنهم من يجعل هذا من معايب محمد ﷺ وأمته ويغفلون عما عندهم من أن الله أمر موسى بقتال الكفار، فقاتلهم بنو إسرائيل بأمره، وقاتلهم يوشع وداود وغيرهما من الأنبياء، وإبراهيم الخليل قاتل، لدفع الظلم عن أصحابه.

ب- قالوا: وقال داود في مزاميره -وهي الزبور-: من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد -أيها الجبار- بالسيف لأن البهاء لوجهك، والحمد الغالب عليك اركب كلمة الحق وسمة التأله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة لهيبة يمينك وسهامك مسنونة والأمم يخرون تحتك.

قالوا: فليس متقلد السيف من الأنبياء بعد داود سوى محمد ﷺ وهو الذي خرّت الأمم تحته، وقرنت شرائعه بالهيبة، كما قال ﷺ: **«نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر»**.

وقد أخبر داود أن له ناموسًا وشرائع وخاطبة بلفظ الجبار، إشارة إلى قوته وقهره لأعداء الله بخلاف المستضعف المقهور.

وهو ﷺ نبى الرحمة ونبى الملحمة وأمته أشداء على الكفار رحماء بينهم، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين.

بخلاف من كان ذليلاً للطائفتين، من النصارى المقهورين مع الكفار، أو كان عزيزًا على المؤمنين من اليهود، بل كان مستكبرًا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقًا وقتلوا فريقًا.

جـ- قالوا: وقال داود فى مزمور له: «إن ربنا عظم محمود جدًا» وفى ترجمة إلهنا قدوس، ومحمد ﷺ قد عم الأرض كلها فرحًا.

قالوا: فقد نص داود على اسم محمد ﷺ وبلده وسماها قرية الله، وأخبر أن كلمته تعم الأرض كلها.

قلت: قد تقدم الحديث الصحيح لما قيل لعبد الله بن عمرو، وروى أنه عبد الله بن سلام فى غير البخارى «أَخْبِرْنا ببعض صفة رسول الله ﷺ فى التوراة» فقال: **«إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن، وذكر صفته موجودة فى نبوة أشعياء، وليست موجودة فى نفس كتاب موسى»**.

وتقدم أن لفظ التوراة يقصدون به جنس الكتب التى عند أهل الكتاب. وكذلك ما يوجد كثيرًا من قول كعب الأحبار وغيره، ممن ينقل عن أهل الكتاب: قرأت فى التوراة، إنما يريدون به جنس الكتاب الذى عند أهل الكتاب، لا يخصون بذلك كتاب موسى.

وإذا كان هذا معروفًا عندهم، وقد خوطبوا بهذه اللغة فإن قوله تعالى فى القرآن: ﴿**يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**﴾ [الأعراف: ١٥٧] يراد بالتوراة جنس الكتب التى عند أهل الكتاب، فيتناول ذلك كتاب موسى وزبور داود، وصحف سائر الأنبياء، سوى الإنجيل، فإنه ليس عند أهل الكتاب، وإنما هو عند النصارى خاصة.

وأما سائر كتب الأنبياء فالأمتان يُقرَّان بها ويؤيد ذلك أن الله كثيراً ما يُقرن في القرآن بين التوراة والإنجيل وإنما يذكر الزبور مفرداً كقوله تعالى: ﴿الم ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١- ٤] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [التوبة: ١١١] وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وأهل الكتاب يجدونه مكتوبًا في الكتب التي بأيديهم، وهو في كثيرة منها أصرح مما هو في كتاب موسى خاصة.

فإذا أريد بالتوراة جنس الكتب، فلا يستريب عاقل في كثرة ذكره ونعته ونعت أمته في تلك الكتب.

ومعلوم أن الله أراد بذلك، الاستشهاد بوجوده في تلك الكتب، وإقامة الحجة بذكره فيها.

فإذا كان ذكره في غير كتاب موسى أكبر أظهر وعندهم، كان الاستدلال بذلك أولى من تخصيص الاستدلال بكتاب موسى.

فإذا حمل لفظ التوراة في هذا على جنس الكتب، كما هو موجود في لغة من تكلم بذلك من الصحابة والتابعين، كان هذا في غاية البيان والمدح للقرآن والكتب المتقدمة، وتصديق بعضها بعضًا.

وقد أمرنا أن نؤمن بما أوتي النبيون مطلقًا كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا

أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] والزبور ذكره مفردًا في موضعين من القرآن في قوله: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وذكر كتاب موسى بهذه الإضافة، لا بلفظ التوراة في غير موضع فقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧] وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠] إلى قوله: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤].



وإذا كان لفظ التوراة يتناول الكتب التى عند أهل الكتاب جميعًا، وغيره داخل فى هذا الاسم، كان ظهور اسمه ونعته فى التوراة ووجودهم ذلك فيما عندهم وتكرره فى غاية القوة، وكان معرفاهم لذلك، كما يعرفون أبناءهم واضحًا بينًا، وإن قدر أن هذه الكتب التى يعترف بها عامتهم لم يكتم منها بل هى باقية كما كانت.

فصل

وقالوا: قال داود فى مزموره **«لترتاح البوادى وقراها، ولتصر أرض «قذار» مروجًا. وليسبح سكان الكهوف ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب، ويذيعوا تسابيحه فى الجزائر»**.

قالوا: فلمن البوادى من الأمم سوى أمة محمد ﷺ، ومن «قيذار» سوى ابن إسماعيل جد رسول الله ﷺ، ومن سكان الكهوف وتلك الجبال سوى العرب؟

فصل

د- وقالوا: وقال داود فى مزمور له **«ويجوز من البحر إلى ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، وبحر أهل الجزائر بين يديه، ويلحس أعدائه التراب، ويسجد له ملوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد، ويخلص البائس المضطهد من هو أقوى منه، وينقذ الضعيف الذى لا ناصر له؛ ويرأف بالمساكين والضعفاء ويُصَلَّى عليه ويبارك فى كل حين»**.

وهذه الصفات منطبقة على محمد وأمته، لا على المسيح.

فإن محمدًا ﷺ جاز من البحر الرومىِّ إلى البحر الفارسى، ومن لدن الأنهار، كسيحون وجيحون، إلى منقطع الأرض بالمغرب، كما قال: **«زُوِيَت لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زُوِىَ لى منها»**

وهو يصلى عليه ويبارك فى كل حين، فى كل صلاة من الصلوات الخمس وغيرها، يقول كل من أمته: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، فيصلى عليه ويبارك.

وقد خرَّت أهل الجزائر بين يديه، أهل جزيرة العرب، وأهل الجزيرة التى بين الفرات ودجلة، وأهل جزيزة قبرص، وأهل جزائر الأندلس.

وخضعت له ملوك الفرس، فلم يبق منهم إلا من أسلم أو أدَّى الجزية على يدٍ وهم صاغرون، بخلاف ملوك الروم، فإن فيهم من لم يسلم ويؤدى الجزية. فلهذا خص ملوك فارس ودانت له الأمم.

فعامة الأمم التى تعرفه وتعرف أمته، كانت إما مؤمنة أو مسلمة له منافقة، أو مهادنة مصالحة، أو خائفة منهم، وأنقذ الضعفاء من الجبارين.

وهذا بخلاف المسيح، فإنه لم يتمكن هذا التمكين فى حياته، ولا من اتبعه بعد موته تمكنوا هذا التمكن ولا جازوا ما ذكر، ولا صُلِّىَ عليه وبورك عليه فى اليوم والليلة، فإن النصارى يدَّعُون إلهية المسيح، فلا يصلون عليه، وإنما يصلون له.

نبوءات أشعياء

وقالوا فى نبوة أشعياء قال أشعياء: «فقيل لى قم نظارًا، فانظر ماذا ترى، فقلت: أرى راكبين مقبلين، أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول أحدهما لصاحبه: سقطت بابل وأصحابها للمنحر».

قالوا: فراكب الحمار هو المسيح، وراكب الجمل هو محمد ﷺ، وهو أشهر بركوب الجمل من المسيح بركوب الحمار.

وبمحمد ﷺ سقطت بابل.



فصل

ومما ينبغى أن يعرف: أن الكتب المتقدمة بشَّرَت بالمسيح، كما بشَّرت بمحمد ﷺ، وكذلك أنذرت بالمسيح الدجال.

والأمم الثلاثة -المسلمون واليهود والنصارى- متفقون على أن الأنبياء أنذرت بالمسيح الدجال وحذرت منه كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح: **«ما من نبى إلا وقد أنذر أمته المسيح الدجال، حتى نوح أنذر أمته وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبى لأمته: إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه كل مؤمن قارئ وغير قارئ»**.

والأمم الثلاثة متفقون على أن الأنبياء بشروا بمسيح من ولد داود.

فالأمم الثلاثة متفقون على الإخبار بمسيح هُدًى من نسل داود، ومسيح ضلالة وهم متفقون على أن مسيح الضلالة لم يأت بعد، وسيأتى، ومتفقون على أن مسيح الهدى سيأتى.

ثم المسلمون واليهود والنصارى متفقفون على أن مسيح الهدى هو عيسى ابن مريم، واليهود ينكرون أن يكون هو عيسى بن مريم مع إقرارهم بأنه من ولد داود.

قالوا: «لأن المسيح المبشَّر به تؤمن به الأمم كلها» وزعموا أن المسيح ابن مريم إنما بعث بدين النصارى، وهو دين ظاهر البطلان، ولهذا إذا خرج المسيح الدجال اتبعوه، فيخرج منه سبعون ألف مطياس من يهود أصبهان.

ويسلط المسلمون على اليهود، فيقتلونهم حتى يقول الحجر والشجر: **«يا مسلم هذا يهودى ورائى، تعال فاقتله»** كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح.

والنصارى يقرون بأن المسيح مسيح الهدى بُعِث ويقرون أنه سيأتى مرة ثانية، لكن يزعمون أن هذا الإتيان الثانى، هو يوم القيامة، ليجزى الناس

بأعمـالهم، وهو -فى زعمـهم- هو الله، والله الذى هو اللاهوت، يأتى فى ناسوته، كما زعموا أنه جاء قبل ذلك.

وأما المسلمون فآمنوا بما أخبرت به الأنبياء على وجهه، وهو موافق لما أخبر به خاتم الرسل حيث قال فى الحديث الصحيح «**يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، وإمامًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية**».

وأخبر فى الحديث الصحيح أنه إال خـرج مسيح الضلالة الأعور الكذاب، نزل عيسى بن مريم على المنارة البيضاء فى دمشق، بين مهروذتين واضعًا يديه على منكبى ملكين، فإذا رآه الدجـال إنماع كما ينماع الملح فى الماء، فـيدركه فيـقتله بالحـربة، عند باب لُد الشـرقىّ، على بضع عشـرة خطوة منه، وهذا تفسيـر قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾ [النساء: ١٥٩] أى يؤمن بالمسيح قـبل أن يموت، حين نزوله إلى الأرض، وحـينئذ لا يبقى يهودى ولا نصرانى، ولا يبقى إلا دين الإسـلام، وهذا موجود فى نعته عند أهل الكتاب.

ولكن النصارى ظنوا أن ذلك مجيئه بعد قيام القيامة، وأنه هو الله، فغلطوا فى ذلك كما غلطوا فى مجيئه الأول، حيث ظنوا أنه هو الله.

واليهود أنكروا مجـيئه الأول، وظنوا أن الذى بُشِّرَ به ليس هو إياه، وليس هو الذى يأتى آخـرًا، وصـاروا ينتـظرون غـيره، وإنمـا هو بعث إليـهم أولاً فكذبوه، وسـيأتيهم ثـانيًا؛ فيـؤمن به كل من على وجه الأرض مـن يهودى ونصرانى، من قـتل أو مات، ويظهـر كذب هؤلاء الذين كذبوه، ورمـوا أمه بالفرية، وقالوا: إنه ولد زنا وهؤلاء الذين غَلَوْا فيه وقالوا: إنه الله.

ولما كان المسـيح عليه السلام نـازلاً فى أمة محمـد ﷺ، صار بينه وبين محمـد ﷺ من الاتصال، ما ليس بينه وبين غـير محمد، ولهـذا قال النبى



ﷺ في الحديث الصحيح: «إن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي».

وروى «كيف تهلك أمة أنا في أولها، وعيسى في آخرها».

وهذا مما يظهر به مناسبة اقترانهما فيما رواه أشعيا حيث قال: «راكب الحمار وراكب الجمل».

فصل

أ- قالوا: وقال أشعيا النبي عليه السلام مثنيًا على مكة شرفها الله: «**ارفعي إلى ما حولك بصرك، فستبتهجين وتفرحين من أجل أن يصير إليك ذخائر البحرين، وتحج إليك عساكر الأمم، حتى يعم بك قطر الإبل المويلة، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، ونساق إليك كباش مدين، ويأتيك أهل سبأ، ويسير إليك أغنام فاران، ويخدمك رجال مأرب**» يريد سدنة الكعبة وهم أولاد مأرب بن إسماعيل.

قالوا: فهذه الصفات كلها حصلت بمكة، فحملت إليها ذخائر البحرين، وحج إليها عساكر الأمم، وسيقت إليها أغنام فاران -الهدايا والأضاحي- و«فاران» هي البرية الواسعة التي فيها مكة، وضاقت الأرض عن قطرات الإبل الموبلة الحاملة للناس، وأزوادهم إليها، وأتاها أهل سبأ، وهم أهل اليمن.

فصل

ب- قالوا: وقال أشعيا للنبي ﷺ معلنًا باسم رسول الله ﷺ «**إني جعلت أمرك محمداً ﷺ، يا محمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد**».

قالوا: فهل بقي بعد ذلك لزائغ مقال، أو لطاعنٍ مجال؟

وقول أشـعياء: إن اسم محـمد ﷺ موجود من الأبد، مـوافق لقول داود الذى حكيناه أن اسمه موجود قبل الشمس.

وقولـه: «يا قدوس الرب» يعنى يا من طهـره الرب، وخلصه من شـوائب بشريته واصطفاه لنفسه.

فصل

جـ- قالوا: وقال أشعيا ء«**وشهد لهذه الأمـة بالصلاح والديانة، سأرفع علمًا لأهل الأرض بعيدًا، فيصفر لهم من أقاسى الأرض، فيأتون سراعًا**».

والنداء، هو مـا جـاء به النبى ﷺ، ومن الـتلبـيـة فى الحج، وهـم الذين جعلوا لله الكرامة، فـوحّدوه وعبدوه، وأفردوه بالربوبيـة، وكسروا الأصنام، وعطلوا الأوثان.

والعلم المرفوع، هو النبوة، وصفيره، دعاؤهم إلى بيـته ومشاعره، فيأتونه سامعين مطيعين.

فصل

د- قالوا: وقال أشعيـاء النبى المراد مكة، شرفها الله تعالى «**سيرى واهتزى أيتها العاقر، التى لم تلدى، وانطقى بالتسبيح، وافرحى إذا لم تحبلى. فإن أهلك يكونون أكـثـر من أهلى**» -يعنى بأهله بيت المقـدس- ويعنى بالعـاقـر -مكة شرفها الله- لأنها لم تلد قبل نبينا عليه السلام.

ولا يجـوز أن يريد بالعـاقر بيت المقـدس، لأنه بيت للأنبـيـاء، ومعـدن الوحى، فلم تزل تلك البقعة ولادة.

فصل

قالوا: وقل أشعياء النبى ونص على خاتم النبوة: «**وُلِدَ لنا غلام، يكون عجبًا**



وبشرًا، والشامة على كتفيه، أركون السلام، إله جبار، وسلطانه سلطان السلام، وهو ابن عامله، يجلس على كرسي داود» .

قالوا: **الأركون، هو العظيم بلغة الإنجيل، والأراكنة المعظمون.**

ولما أبرأ المسيح مجنونًا من جنونه، قال اليهود: «**إن هذا لا يخرج الشياطين من الآدميين إلا بأركون الشياطين**» يعنون عظيمهم.

وقال المسيح في الإنجيل: «إن أركون هذا العالم يدان» يريد إما إبليس أو الشرير العظيم الشر من الآدميين، وسماه إلهًا على نحو قول التوراة «إن الله جعل موسى إلـهًا لفرعون» أي حاكمًا عليه ومتصرفًا فيه، وعلى نحو قول داود للعظماء من قومه: «إنكم آلهة».

فقد شهد أشعياء بصحة نبوة محمد ﷺ، ووصفه بأخص علاماته وأوضحها، وهي شامته، فلعمري لم تكن الشامة لسليمان ولا للمسيح، وقد وصفه بالجلوس على كرسي داود، يعني أنه سيرث بني إسرائيل، نبوتهم وملكهم، ويبتزهم رياستهم.

فصل

هـ- قالوا: وقول أشعياء في وصف أمة محمد ﷺ: «**ستمتلئ البادية والمدن من أولاد قيدار، يسبحون، ومن رؤوس الجبال ينادون، الذين يجعلون لله الكرامة، ويسبحونه في البر والبحر**» .

قلت: وقيدار، هو ابن إسماعيل باتفاق الناس، وربيعة ومضر من ولده، ومحمد ﷺ من مضر.

وهذا الامتلاء والتسبيح في البر والبحر، لم يحصل لهم إلا بمبعث محمد ﷺ، والتسبيح الصلوات الخمس، وقد جعلت الأرض مسجدًا وطهورًا، فهم يصلون الخمس في البر والبحر.

فصل

قالوا: وقال أشعياء: والمراد مكة «**أنا رسمتك على كفى، وسيأتيك أولادك سراعًا، ويخرج عنك من أراد أن يخيفك ويخربك، فارفعى بصرك إلى ما حولك، فإنهم سيأتونك ويجتمعون إليك، فتسمى باسمى إنى أنا الحى، لتلبسى الحلل، وتزينى بالإكليل مثل العروس، ولتضييق خراباتك من كثرة سكانك والداعين فيك، وليهابنَّ كل من يناويك، وليكثرن أولادك حتى يقول: من رزق هؤلاء كلهم؟ وأنا وحيدة فريدة، يرون رقوب، فمن ربى لى هؤلاء ومن تكفل لى بهم**»؟

قالوا: وذلك أإيضاح من أشعياء بشأن الكعبة، فهى التى ألبسها الله الحلل الديباج الفاخرة، ووكل بخدمتها الخلفاء والملوك، ومكة التى بارك الله لها الأولاد من حجاجها، والقاطنين بها.

قلت: وذلك أن مكة هى التى أخرج عنها كل من أراد أن يخيفها ويخربها، فلم تزل عزيزة مكرمة محرمة، لم يهنها أحد من البشر قط، بل أصحاب الفيل لما قصدوها، عذبهم الله العذاب المشهور، ولم تزل عامرة محجوجة، من لدن إبراهيم الخليل.

بخلاف بيت المقدس، فإنه قد أخرب مرة بعد مرة، وخلا من السكان واستولى العدو عليه وعلى أهله، وكذلك إخباره بإهانة كل من يناويها، هو للكعبة دون بيت المقدس كما قال تعالى: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الحج: ٢٥].

والحجاج بن يوسف كان معظمًا للكعبة لم يرمها بمنجنيق، وإنما قصد ابن الزبير خاصة. وأما كثرة أولادها، وهم الذين يحجون إليها أو يستقبلونها فى صلاتهم، فهم أضعاف أضعاف أولاد بيت المقدس.



فصل

و- قالوا: وقال أشعياء -حاكيًا عن الله تعالى: «اشكر حبيبى وابنى أحمد ﷺ». فسماه الله حبيبًا وسماه ابنا.

وداود ابنا، غير أن خصه عليهم بمزية فقال: «حبيبى ابنى أشكره» فتعبد أشعياء لشكر محمد ﷺ، ووجب عليه وعلى قومه شكره وإجلاله، ليتبين قدره ومنزلته عنده. وتلك منزلة لم يؤتها غيره من الرسل.

وقال أشعياء: «إنما سمعنا من أطراف الأرض صوت محمد ﷺ» وهذا إفصاح من أشعياء باسم رسول الله ﷺ، فليُرِنَا أهل الكتاب نبيًا نصَّت الأنبياء على اسمه صريحًا، سوى رسول الله ﷺ.

نبوءة حبقوق

قالوا: وقال حبقوق -وسمى محمدًا رسول الله ﷺ مرتين فى نبوته -«**إن الله جاء من التيمن والقدوس من جبال فاران، لقد أضاءت السماء. من بهاء محمد ﷺ، وأمتلأت الأرض مع حمده، شعاع منظره مثل النور، يحوط بلاده بعزه، تسير المنايا أمامه، وتصحب سباع الطير أجناده، فأمَّ فسيح الأرض، فتضعضعت له الجبال القديمة، وانخفضت الروابى، وتزعزعت ستور أهل مدين، ولقد حاز المساعى القديمة**».

ثم قال «**زجرك فى الأنهار واختتام صوامك فى البحار، ركبت الخيول وعلوق مراكب الإيقاد، وسنـزع فى قسيك أعراقًا ونزعًا، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء، ولقد رأتك الجبال فارتاعت، وانحرف عنك شؤبوب السيل، و،تعبرت المهاوب تعبرًا ورعبًا، رفعت أيديها وجلاً وخوفًا، وسارت العساكر فى بريق سهامك ولمعان تباريك، تدوخ الأرض غضبًا، وتدوس الأمم زجرًا، لأنك ظهرت بخلاص أمتك، وإنقاذ تراث آبائك**».

قالوا: وهذا تصريح بمحمد ﷺ، ومن رام صرف نبوة حبقوق هذه عن محمد ﷺ، فقد رام ستر النهار، وحبس الأنهار، وأنَّى يقدر على ذلك؟!

وقد سماه باسمه مرتين، وأخبر بقوة أمته وسير المنايا أمامهم، واتباع جوارح الطير آثارهم.

وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد ﷺ ولا تصلح إلا له، ولا تدل إلا عليه. فمن حاول صرفها عنه، فقد حاول ممتنعًا.

قلت: وقد ذكر فيها مجيء نور الله من التيمن، وهى ناحية مكة والحجاز فإن أنبياء إسرائيل كانوا يكونون من ناحية الشام، ومحمد ﷺ جاء من ناحية اليمن، وجبال فاران هى جبال مكة، كما تقدم بيان ذلك، وهذا مما لا يمكن النزاع فيه.

وأما امتلاء السماء من بهاء أحمد، فأنوار الإيمان والقرآن ظهرت منه ومن أمته.

وامتلاء الأرض من حمده وحمد أمته فى صلواتهم، فأمر ظاهر، فإن أمته هم الحامدون لا بد لهم من حمد الله فى كل صلاة وكل خطبة، ولا بد لكل مُصَلٍّ فى كل ركعة من أن يقول: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين».

فإذا قال: الحمدُ لله رب العالمين، قال الله : حمدنى عبدى، فإذا قال الرحمن الرحيم، قال: أثنى علىَّ عبدى، فإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجّدنى عبدى.

فهم يفتتحون القيام فى الصلاة بالتحميد ويختمونها بالتحميد وإذا رفعوا



رءوسهم من الركوع، يقول إمامهم: سمع الله لمن حمده، ويقولون جميعًا: ربنا ولك الحمد، ويختمون صلاتهم بتحميده، بجعل التحيات له والصلوات والطيبات، وأنواع تحميدهم فيه والثناء عليه، مما يطول وصفه.

نبوءات دانيال

أ- قالوا: وقال دانيال -وهو يهدد اليهود، ويصف لهم أمة محمد ﷺ: **«وإن الله يظهرهم عليكم، وباعث فيهم نبيًا ﷺ، ومنزل عليهم كتابًا، ويملكهم رقابكم، يقهرونكم ويدلونكم بالحق، ويخرج رجال قيدار في جماعات.**

الشعوب معهم ملائكة على خيل بيض متسلحين، فيحيطون بكم، وتكون عاقبتكم إلى النار، نعوذ بالله من النار».

قلت: وذلك أن رجال بنى قيدار، هم ربيعة ومضر أبناء عدنان، وهما جميعًا من ولد قيدار بن إسماعيل، والعرب كلهم من بنى عدنان وبنى قحطان فعدنان أبو ربيعة ومضر وأنمار من ولد إسماعيل باتفاق الناس.

وأما قحطان، فقيل: هم من ولد أسماعيل؛ وقيل: هم من ولد هود.

ومضر ولده إلياس ابن مضر، وإلياس بن مضر وقريش، هم من ولد إلياس بن مضر.

وهوازن، مثل عقيل، وكلاب، وسعد بن بكر، وبنو نمير، وثقيف وغيرهم، هم من ولد إلياس بن مضر.

وهؤلاء انتشروا في الأرض، فاستولوا على أرض الشام والجزيرة ومصر والعراق وغيرها، حتى إنهم لما سكنوا الجزيرة بين الفرات ودجلة، سكنت مضر في حران وما قَرُب منها، فسميت ديار مضر، وسكنت ربيعة في الموصل وما قَرُب منها، فسميت ديار ربيعة.

وقال «تنزل الملائكة على خـيل بيض» وهذا مما تواترت به الآثار أن الملائكة كانت تنزل على الخيل البيض، فإنها نزلت يوم «بدر» لنصر النبى ﷺ وأمته، ونزلت يوم الأحزاب، وأحاطت ببنى قريظة.

فصل

ب- وقال دانيال عليه السلام -وذكر محـمداً ﷺ باسمه فقال: «ستنزع فى قسيك إغراقًا، وترتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء ﷺ».

فهذا تصريح بغير تعريض، وتصحيح ليس فيه تمريض.

فإن نازع فى ذلك منازع فليوجد لنا آخر، اسمـه محمد ﷺ له سهام تنزع وأمر مطاع لا يدفع.

وقال دانيـال النبى أيضًا، حين سألـه «بخت نصر»، عن تأويل رؤيا رآها، ثم فيها: **رأيت أيها الملك صنما عظيمًا قائمًا بين يديك، رأسه من ذهب، وساعداه من الفضـة، وبطنه وفخذاه من النحـاس، وساقاه من الحديد، ورجـلاه من الخزف، ورأيت حجـراً لم تقطعه يد إنسـان، قد جاء وصك ذلك الصنم، فـتنقت وتلاشى، وعاد رفاتا، ثم نفسته الرياح، فذهب وتحول ذلك الحـجر، فصار رجلا عظيمًا حتى ملأ الأرض كلها، فهذا ما رأيت أيها الملك؟**

فقال «بخت نصر»: صدقت فما تأويلها؟

قال دانيال: أنت الرأس الذى رأيته من الذهب، ويقوم بعدك ولداك اللذان رأيت من الفضة، وهما دونك، ويقوم بعدهما مملكة أخرى وهى دونها، وهى التى تشبـه النحاس، والمملكة الرابعـة تكون قوية مثـل الحديد الذى يدق كل شىء.



فأما الرجلان التى رأيت من خزف، فمملكة ضعيفة، وكلمتها سخيفة.

وأما الحجر الذى رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم ففتته، فهو نبى يقيمه الله إله السماء والأرض من قبيلة بشريعة قوية، فيدق جميع ملوك الأرض وأممها، حتى تمتلىء منه الأرض ومن أمته، ويدوم سلطان ذلك النبى ﷺ إلى انقضاء الدنيا، فهذا تعبير رؤياك أيها الملك.

قلت: فهذا بعث محمد ﷺ لا بعث المسيح، فهو الذى بعث بشريعة قوية دون جميع ملوك الأرض وأممها، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته، فى مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله، كما زال ملك اليهود، وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وأوساطها.

فصل

جـ- قالوا: وقال دانيال النبى أيضًا: **«سألت الله وتضرعت إليه أن يبين لى ما يكون من بنى إسرائيل، وهل يتوب عليهم ويرد إليهم ملكهم، ويبعث فيهم الأنبياء، أو يجعل ذلك فى غيرهم؟ فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه، فقال: السلام عليك يا دانيال، إن الله يقول: إن بنى إسرائيل أغضبونى وتمردوا على، وعبدوا من دونى آلهة أخرى، وصاروا من بعد العلم إلى الجهل، ومن بعد الصدق إلى الكذب، فسلت عليهم «بخت نصر»، فقتل رجالهم، وسبى ذراريهم، وهدم مسجدهم، وحرق كتبهم، وكذلك فعل من بعده بهم، وأنا غير راضٍ عنهم، ولا مقيلهم عثرات، فلا يزالون فى سخطى حتى أبعث مسيحى ابن العذراء البتول، وأختم ذلك عليهم باللعن والسخط، فلا يزالون ملعونين، عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث نبى بنى إسماعيل عليه السلام الذى بشرت به هاجر، وأرسلت إليها ملاكى وبشرها، وأوحى إلى ذلك النبى ﷺ، وأعلمه الأسماء، وأزينه بالتقوى وأجعل البر شعاره، والتقوى ضميره، والصدق قوله، والوفاء**

طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب، وناسخ لبعض ما فيها، أسرى به إلي، وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلو فأدنيه، وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة، حافظًا لما استودع صادقًا فيما أمر، يدعو إلى توحيدي باللين من القول والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق، رءوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن على من عاداه، فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي، فيكذبونه ويؤذونه.

ثم سرد دانيال قصة رسول الله ﷺ بما أملاه عليه الملك، حتى أوصل آخر أيام أمته بالنفخة، وانقضاء الدنيا.

وهذه البشارة الآن عند اليهود والنصارى يقرءونها، ويقولون: «لم يظهر صاحبها بعد».

قال أبو العالية: فأنا قرأت ذلك المصحف، وفيه صفتكم وأخباركم وسيرتكم ولحون كلامكم، وكان أهل الناحية -يعني أرض السوس حيث دانيال مدفون بها- إذا أجدبوا كشفوا عن قبره، فيسقون، فكتب أبو موسى في ذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب إليه عمر: أن احفر بالنهار ثلاثة عشر قبراً، وادفنه بالليل في واحد منها، لئلا يفتتن الناس به.

فصل

قالوا: قال كعب -وذكر صفة رسول الله ﷺ في التوراة، ويريد بها التوراة التي هي أعم من التوراة المعينة-: أحمد عبدي المختار، لافظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ويعفو ويغفر، مولده بكا، وهجرته طابا، وملكه بالشام، وأمته الحامدون، يحمدون الله على كل نجد، ويسبحونه في كل نزلة، ويغضون أطرافهم، ويأتزرون على أنصافهم، وهم

رعاة الشمس، ومؤذنهم في جو السماء، وصَفُّهم في الجهاد والصلاة سواء، رهبان بالليل: أُسدٌ في النهار: لهم دوى كدوى النحل: يصلون الصلاة حيث ما أدركتهم ولو على كناسة».

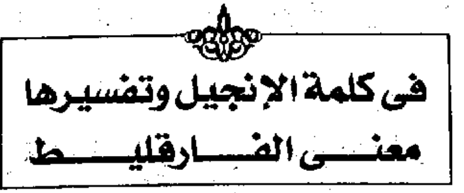
فصل

قالوا: قال ابن أبي الزناد: حدثني عبد الرحمن بن الحارث عن عمر بن حفص: وكان من خيار الناس: قال: «كان عند أبي وجدي ورقة يتوارثونها قبل الإسلام، فيها اسم الله وقوله الحق، وقول الظالمين تبار، هذا الذكر لأمة تأتي في آخر الزمان، يتَّزِرون على أوساطهم، ويرصدون أطرافهم، ويخوضون البحور إلى أعدائهم: فيهم صلاة لو كانت في قوم نوح ما هلكوا بالطوفان، وفي ثمود ما هلكوا بالصيحة».

فصل

قالوا: قال أشعياء -وذكر قصة العرب فقال: «ويدوسون الأمم دياس البيادر، وينزل البلاء بمشركي العرب، وينهزمون بين يدي سيوف مسلولة وقسيّ موترة من شدة الملحمة» وهذا إخبار عما طرأ بعبدة الأوثان من رسول الله ﷺ يوم بدر، ويوم حنين، وفي غيرها من الوقائع.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي.



في كلمة الإنجيل وتفسيرها معنى الفارقليط

قالوا: وقال يوحنا الإنجيلي: قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من إنجيله: «إن الفار قليط روح الحق الذي يرسله أبي، هو يعلمكم كل شيء».

وقال يوحنا التلميذ أيضًا، عن المسيح أنه قال لتلاميذه: «إن كنتم تحبوني

فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فار قليطًا آخر، يثبت معكم إلى الأبد. روح الحق الذى لم يطق العالم أن يقتلوه، لأنهم لم يعرفوه، ولست أدعكم أيتامًا لأنى سآتيكم عن قريب».

وقال يوحنا: قال المسيح: «من يحبنى يحفظ كلمتى وأبى يحبه وإليه يأتى، وعنده يتخذ المنزل، كلمتكم بهذا لأنى عندكم مقيم، **والفار قليط روح الحق** الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شىء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم، استودعتكم وأمى، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع، فإنى منطلق وعائد إليكم، لو كنتم تحبونى، كنتم تفرحون بمضىِّ إلى الأب، فإن أنتم ثبتم فى كلامى، وثبت كلامى فيكم، كان لكم كل ما تريدون، وبهذا يمجد أبى».

وقال أيضًا: «**إذا جاء الفار قليط الذى أبى أرسله، روح الحق الذى من أبى، هو يشهدلى، قلت لكم هذا، حتى إذا كان تؤمنوا به، ولا تشكو فيه**».

وقال أيضًا: «إن خيرًا لكم أن أنطلق، لأنى إن لم أذهب، **لم يأتكم الفار قليط**، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فهو يوبخ العالم عن الخطيئة، **وإن لى** كلامًا كثيرًا، أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، **لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق**، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم مما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتى، ويعرفكم جميع ما للأب».

وقال يوحنا الحوارى: قال المسيح: «**إن أركون العالم سيأتى، وليس لى شىء**».

وقال متى التلميذ: قال المسيح: **ألم يقروا أن الحجر الذى أرذله البناءون، صار رأسًا للزاوية من عند الله، كان هذا، وهو عجيب فى أعيننا، ومن أجل ذلك أقول لكم: إنى ملكوت الله سيؤخذ منكم ويدفع إلى أمة أخرى، تأكل ثمرها، ومن سقط على هذا الحجر ينشرح، وكل من سقط هو عليه يمحقه**».



وقال يوحنا التلميذ، فى كتاب رسائل التلاميذ المسمى بفراكسيس: «يا أخاى، إياكم أن تؤمنوا بكل روح، لكن مَيِّزوا الأرواح التى من عند الله من غيرها، واعلموا أن كل روح يؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء وكان جسدانيًا، فهى من عند الله، وكل روح لا يؤمن بأن يسوع المسيح جاء، وكان جسدانيًا، فليست من عند الله، بل من المسيح الكذاب، الذى سمعتم به، وهو الآن فى العالم».

وقال شمعون الصفا، رئيس الحواريين؛ فى كتاب فراكسيس: **«إنه قد حان أن يبتدىء الحكم من بيت الله ابتداء»**.

قلت: وهذا اللفظ، **لفظ الفار قليط**، فى لغتهم ذكروا فيه أقوالا:

قيل: إنه الحماد، وقيل: إنه الحامد، وقيل: إنه المغز، وقيل: إنه الحمد، ورجح هذا طائفة، وقالوا: الذى يقوم عليه البرهان فى لغتهم أنه الحمد: والدليل عليه قول يوشع: **من عمل حسنة تكون له فار قليط جيد -أى حمد جيد-** وقولهم المشهور فى مخاطبتهم: فار قليط. وفار قليطان وما زاد على الجميع، أى حمد، ومنه كما يقول تحويد، ومنه رويده يأتى بعد قوله: وواحد منهما بقى عبرانيا.

ومن قال: معناه المخلص، فيحتجون بأنها كلمة سريانية، ومعناها المخلص، وقالوا: هو مشتق من قولنا: «فار» ويقال بالسريانية «فاروق» فجعل فاروق.

قالوا: ومعنى **«ليط»** كلمة يراد بها التثبت والتقدير، كما يقال فى العربية: رجل هو، وحجر هو، وبدر هو، وذكر هو.

قالوا: وكذلك يراد فى السريانية **«ليط»**.

والذين قالوا: هو المعز، قالوا: هو فى لسان اليونان، المعز.

ويعترض على هذين القولين بأن المسيح لم يكن لغته سريانية ولا يونانية، بل عبرانية.

ويجاب عنه بأنه تكلم بالعبرانية، وترجم عنه بلغة أخرى، كما أملوا أحد الأناجيل باليونانية، وآخر بالسريانية، والآخر بالرومية، وواحد منها بقى عبرانيا.

وقد اختلف فيه، فمن النصارى من قال: هو روح نزلت على الحواريين، وقد يقولون: إنه ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ، ففعلت الآيات والعجائب، ولهذا يقول من خبر أحوال النصارى: إنه لم ير أحد منهم يحسن تحقيق مجيء هذا الفار قليط الموعود به.

منهم من يزعم أنه المسيح نفسه، لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يوما، وكونه قام من قبره.

وتفسيره بالروح باطل، وأبطل منه تفسيره بالمسيح لوجوه:

منها: أن روح القدس مازالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وهذا مما اتفق عليه أهل الكتاب: أن روح القدس نزلت على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده، وليست موصوفة بهذه الصفات وقد قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت لما كان يهجو المشركين «اللهم أيده بروح القدس» وقال ﷺ: «إن روح القدس معك مازلت تنافح عن نبيه».

وإذا كان كذلك ولم يسم أحد هذه الروح فار قليطا، دل على أن الفار قليط أمر غير هذه.



وأيضًا فمثل هذه مازالت يؤيد بها الأنبيـاء، والصالحون وما بشر به المسيح أمر عظيم، يأتى بعده أعظم عن هذا.

وأيضًا فإنه وصف الفـار قليط بصفات لا تنـاسب هذا وإنما تناسب رجلا يأتى بعده نظيـرًا له، فإن قال: **«إن كنتم تحبونى فـاحفظوا وصاياى، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فار قليطا آخر يثبت معكم إلى الأبد»**.

فقوله **«فار قليطا آخر» دل علـى أنه ثان لأول كان قبله**، ولم يكن معهم فى حياة المسيح إلا هو لم تنزل عليـهم روح، فعلم أن الذى يأتى بعده نظيرًا له، ليس أمرًا معتادًا يأتى الناس.

وأيضًا فـإنه قال: **«يثبت مـعكم إلى الأبد»** وهذا إنما يكون لما يدوم ويبـقى معهم إلى آخر الدهر.

ومعلوم أنه لم يرد بقـاء ذاته، فعلم أنه بقاء شـرعه وأمره. **فعلـم أن الفار قليط الأول** لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد.

وهذا يبين أن هذا الثانى صاحب شرع لا ينسخ بخلاف الأول.

وهذا إنما ينطبق على محمد ﷺ.

وأيضًا فـإنه أخبر أن هذا الفار قليط الذى أخـبر به، ويشهـد له، ويعلمهم كل شىء، وأنه يذكرهـم كل ما قال المسـيح، وأنه يوبخ العالم على الخطيـئة، فـقال **«والفار قليط الذى يرسله أبى، هو يعلمكم كل شىء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم»**.

(الفار قليط الآخر) هو محمد ﷺ

وقال: **«إذا جـاء الفار قليط الذى أنى أرسله، وهـو يشهـد لى، قلت لكم هذا، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه»**.

وقال **«إن خـيرًا لكم أن أنطلق، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الـفار قليط،**

فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لى كلاما كثيرًا أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذ جاء روح الحق، ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتى، ويعرفكم جميع ما للأب».

فهذه الصفات والنعوت التى تلقوها عن المسيح، لا تنطبق على شىء فى قلب بعض الناس، لا يراه أحد ولا يسمع كلامه، وإنما تنطبق على من يراه الناس ويسمعون كلامه، فيشهد المسيح، ويعلمهم كل شىء، ويذكرهم كل ما قال لهم المسيح، ويوبخ العالم على الخطيئة، ويرشد الناس إلى جميع الحق، وهو لا ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبرهم بكل ما يأتى، ويعرفهم جميع ما لرب العالمين.

وهذا لا يكون ملكا لا يراه أحد، ولا يكون هدى ولا علما فى قلب بعض الناس، بل لا يكون إلا إنسانًا عظيم القدر، يخاطب الناس بما أخبر به المسيح، وهذا لا يكون إلا بشرًا رسولا بل يكون أعظم من المسيح، فإن المسيح بين أنه يقدر على ما لا يقدر عليه المسيح من خطاب الناس فى أمور عظيمة لا تحملها عقول أولئك، ويعلم ما لا يعلمه المسيح، ويخبر بكل ما يأتى وبما يستحقه الرب، حيث قال: «وإن لى كلامًا كثيرًا، أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، ولكن إذا جاء روح الحق، ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتى، ويعرفكم جميع ما للأب».

وهذه الصفات لا تنطبق إلا على محمد ﷺ، وذلك أن الإخبار عن الله بما هو متصف به من الصفات، وعن ملائكته، وعن ملكوته، وعن ما أعده الله فى الجنة لأوليائه، وفى النار لأعدائه، أمر لا يحتمل عقول كثير من الناس معرفته على التفصيل، ولهذا قال على رضى الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما



ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ﷺ؟».

وقال ابن مسعود: ما من رجل يحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم، إلا كان فتنة لبعضهم.

وسأل رجل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] قال: ما يؤمنك أن لو أخبرتك بتفسيرها لكفرت، وكفرك بها تكذيبك بها.

فقال لهم المسيح عليه السلام: «إن لى كلامًا كثيراً أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله» وهو الصادق المصدوق ﷺ فى هذا ولهذا ليس فى الإنجيل من صفات الله وصفات ملكوته ومن صفات اليوم الآخر إلا أمور مجملة، وكذلك التوراة ليس فيها من ذكر اليوم الآخر إلا أمور مجملة، مع أن موسى كان قد مهد الأمر للمسيح، ومع هذا فقد قال لهم المسيح «إن كلامًا كثيراً أريد أن أقوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله» ثم قال: «ولكن إذا جاء روح الحق، ذلك الذى يرشدكم إلى جميع الحق» وقال: «إنه يخبركم بكل ما يأتى، ويعرفكم بجميع ما للرب».

فدل هذا على أن هذا الفار قليط، هو الذى يفعل هذا دون المسيح.

وكذلك كان محمد ﷺ أرشد الناس إلى جميع الحق، حتى أكمل الله له الدين، وأتم به النعمة، ولهذا كان خاتم الأنبياء فإنه لم يبق شىء يأتى به غيره، وأخبر محمد ﷺ بكل ما يأتى من أشراط الساعة والقيامة والحساب والصراط ووزن الأعمال، والجنة وأنواع نعيمها، والنار وأنواع عذابها، فلهذا كان فى القرآن من تفصيل أمر الآخرة وذكر الجنة والنار، وما يأتى من ذلك، أمور كثيرة، لا توجد، لا فى التوراة، ولا فى الإنجيل، وذلك تصديق قول المسيح: إنه يخبر بكل ما يأتى.

ومحمد ﷺ بعثه الله بين يدى الساعة، كما قال: «**بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى**».

وكان إذا ذكر الساعة، علا صوته، وأحمر وجهه، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش.

وقال ﷺ: «**إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**».

وقال ﷺ: «**أنا النذير العريان**».

فأخبر من الأمور التى تأتى فى المستقبل بما لم يخبر به نبى من الأنبياء، كما نعته به المسيح حيث قال: «**إنه يخبركم بكل ما يأتى**» ولا يوجد مثل هذا قط عن أحد من الأنبياء قبل محمد ﷺ، فضلا عن أن يوجد شىء ينزل على قلب بعض الحواريين.

وأيضًا فقال: «ويعرفكم جميع ما للرب» فبين أنه يعرف الناس جميع ما لله، وذلك يتناول ما لله من الأسماء والصفات، وما له من الحقوق وما يجب من الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله، بحيث يكون ما يأتى به جامعًا لكل ما يستحقه الرب.

وهذا لم يأت به أحد غير محمد ﷺ، حيث يتضمن ما جاء به من الكتاب والحكمة، هذا كله.

ومعلوم أن ما نزل على الحواريين، لم يكن فيه هذا كله ولا نصفه ولا ثلثه، بل ما جاء به المسيح أعظم مما جاء به الحواريون، وهذا **الفار قليط الثاني** جاء بأعظم مما جاء به المسيح.

وأيضًا، فإن المسيح قال: «**إذا جاء الفار قليط الذى أرسله أبى، هو يشهد لى، قلت لكم هذا، حتى إذا كان تؤمنوا به ولا تشكوا فيه**».



فبين «أنه أخبركم به لتؤمنوا به إذا جاء ولا تشكوا فيه، وأنه يشهد له» وهذه صفة من بشر به المسيح، ويشهد للمسيح كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وأخبر أنه يوبخ العالم على الخطيئة، ولم يوجد أحد وبخ جميع العالم على الخطيئة إلا محمداً ﷺ، فإنه أنذر جميع العالمين من أصناف الناس، ووبخهم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان، ووبخ جميع المشركين من العرب والهند والترك وغيرهم، ووبخ المجوس، وكانت مملكتهم أعظم الممالك، ووبخ أهل الكتابين، اليهود والنصارى، وقال في الحديث الصحيح عنه «إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب» لم يقتصر على مجرد الأمر والنهي، بل وبخهم وقرعهم وتهددهم.

وأيضًا فإنه أخبر أنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع

وهذا إخبار بأن كل ما يتكلم به فهو وحي يسمعه، ليس هو شيئًا تعلمه من الناس، أو عرفه باستنباطه، وهذه خاصة محمد ﷺ، فإن المسيح ومن قبله من الأنبياء، كانوا يتعلمون من غيرهم، مع ما كان يوحى إليهم فعندهم علم ما يسمعونه من الوحي.

ومحمد ﷺ لم ينطق إلا بما يسمعه من الوحي، فهو مبلغ لما أرسل به، وقد قيل له: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فضمن الله له العصمة إذا بلغ رسالاته، فلهذا أرشد الناس إلى جميع الحق، وألقى إلى الناس ما لم يكن غيره من الأنبياء إلقاءه، خوفًا أن يقتلوه، كما يذكرون عن المسيح وغيره.

وقد أخبر المسيح بأنه لم يذكر لهم جميع ما عنده، وأنهم لا يطيقون حمله.

وهم معترفون بأنه كان يخاف منهم، إذا أخبرهم بحقائق الأمور.

ومحمد ﷺ أيدهُ الله تأييدًا، لم يؤيده لغيره، فعصمة من الناس، حتى لم يخف من شىء يقوله، وأعطاه من البيان والعلم، ما لم يؤته غيره.

فالكتاب الذى بعث به، فيه من بيان حقائق الغيب، ما ليس فى كتاب غيره.

وأيد أمته تأييدًا أطاقت به حمل ما ألقاه إليهم، فلم يكونوا كأهل التوراة الذين حُمِّلوا التوراة، ثم لم يحملوها، ولا كأهل الإنجيل الذين قال لهم المسيح: «**إن لى كلامًا كثيرًا أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تستطيعون حمله**».

وروى أن المسيح قال: «**جئتكم بالأمثال، وهو يجيئكم بالتأويل**».

ولا ريب أن أمة محمد ﷺ أكمل عقولاً، وأعظم إيمانًا، وأتم تصديقًا وجهادًا.

ولهذا كانت علومهم وأعمالهم القلبية، وإيمانهم، أعظم.

وكانت العبادات البدنية لغيرهم أعظم قال تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦]، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أن الله قال: قد فعلت.

وأيضًا فإنه أخبر عن الفار قليط أنه يشهد له، وأنه يعلمهم كل شىء، وأنه



يذكرهم كل ما قال المسيح، ومعلوم أن هذا لا يكون إلا إذا شهد له شهادة يسمعها الناس، لا يكون هذا شيئًا فى قلب طائفة قليلة.

ولم يشهد أحد للمسيح شهادة سمعها عامة الناس إلا محمد ﷺ، فإنه أظهر أمر المسيح وشهد له بالحق، حتى سمع شهادته له عامة أهل الأرض، وعلموا أنه صدق المسيح ونزهه عما افترته عليه اليهود، وعما غلت فيه النصارى، فهو الذى شهد له بالحق.

ولهذا لما سمع النجاشى من الصحابة ما شهد به محمد ﷺ للمسيح قال لهم: «ما زاد عيسى على ما قلتم هذا العود».

وجعل الله أمة محمد ﷺ شهداء على الناس، يشهدون عليهم بما علموه من الحق، إذ كانوا وسطًا عدلاً، لا يشهدون بباطل، فإن الشاهد لا يكون إلا عدلا، بخلاف من جاء فى شهادته فزاد على الحق أو نقص منه، كشهادة اليهود والنصارى فى المسيح.

وأيضًا فإن معنى الفار قليط، إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز، فهذا الوصف ظاهر فى محمد ﷺ، فإنه وأمته، الحمادون، الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته، ومفتاح صلاته.

ولما كان حمادًا جوزى بوصفه، فإن الجزاء من جنس العمل، **فكان اسمه محمدًا وأحمد ﷺ.**

وأما محمد ﷺ على وزن مكرم ومعظم، وهو الذى يحمد حمدًا كثيرًا مبالغًا فيه، ويستحق ذلك، فلما كان أحمد، كان محمدًا ﷺ، وفى شعر حسان بن ثابت:

وَشَقَّ لَهُ مِن اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهذَا مُحَمَّدُ

وأما أحمد، فهو أفعل التفضيل، هو أحمد من غيره، أى أحق بأن يكون محمودًا، أكثر من غيره، يقال هذا أحمد من هذا، أى هذا أحق بأن يحمد من هذا، فيكون فيه تفضيل له على غيره فى **كونه محمدًا**.

فلفظ **«محمد ﷺ»** يقتضى فضله فى الكمية، ولفظ **«أحمد»** **يقتضى فضله** فى الكيفية.

ومن الناس من يقول: أحمد، أى أكثر حمدًا من غيره.

فعلى هذا يكون بمعنى الحامد والحماد.

وقال من رجح، أن معنى الفار قليط فى لغتهم هو الحمد كما تقدم: وإذا كان كذلك فهو ما جاء فى القرآن: ﴿**وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف:٦] قالوا: ولا شك عندهم أنه اسم مشتق من الحمد، مثل ما نقول فى لغتنا: ضارب ومضروب.

وأما من فسره بالمعز، فلم يعرف قط نبى أعز أهل التوحيد لله والإيمان، كما أعزهم محمد ﷺ، فهو أحق باسم المعز من كل إنسان.

وأما معنى المخلص، فهو أيضًا ظاهر فيه، **فإن المسيح هو المخلص الأول**، كما ذكر فى الإنجيل، وهو معروف عند النصارى أن المسيح صلوات الله عليه قد سمى مخلِّصًا، فيكون المسيح هو **الفار قليط الأول**، وقد بشر **بفار قليط آخر**، فإنه قال: «وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم **فار قليطا آخر، يثبت معكم إلى الأبد**»، فهذا بشارة بمخلص ثانٍ يثبت معهم إلى الأبد، والمسيح هو المخلص الأول.

وأما ما ينزل فى القلوب، فلم يسمه أحد مخلصًا، ولا فار قليطًا، ولا يجوز أن يفسر كلام المسيح إلا بلغته ومعانيه المعروفة فى لغته، التى خاطب بها، وكذلك سائر الأنبياء، بل وسائر الناطقين.



وقد وصف هذا المخلص الثانى بأنه يثبت معهم إلى الأبد.

ومحمد ﷺ هو المخلص الذى جاء بشرع باقٍ إلى الأبد: لا ينسخ.

وأيضًا فإن فى الإنجيل، إنجيل يوحنا، أن المسيح قال: «**إن أركون العالم سيأتى، وليس لى شىء**».

وقد ذكروا أن الأركون بلغتهم عظيم القدر، والأراكنة: العظماء، وقد كانوا يقولون عن المسيح: إن أركون الشياطين بعينه، أى عظيم الشياطين، وهو من افتراء اليهود على المسيح.

فقول المسيح عليه السلام «**أركون العالم» إنما ينطبق على عظيم العالم، وسيد العالم، وكبير العالم.**

وقد أخبر أنه سيأتى، فامتنع أن يكون هذا الأركون المسيح أو أحدًا مثله.

ولم يأت بعد المسيح من ساد العالم وأطاعه العالم، غير محمد ﷺ وهذا من بشارة المسيح به.

وقد سُئل ﷺ: ما كان أول أمرك؟ قال ﷺ: «**دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمى، رأت حين ولدتنى أنه خرج منها نور، أضاءت له قصور الشام ببُصرى**».

وبالجملة، فمعلوم باتفاق أهل الأرض، والاضطرار، أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم، باطنا وظاهرًا، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع فى السر والعلانية فى محياه وبعد مماته، فى جميع الأعصار، وأفضل الأقاليم شرقًا وغربًا، أحد، غير محمد ﷺ فإن الملوك يطاعون ظاهرًا لا باطنًا، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب الله فى الدار الآخرة، ويخافون عقاب الله فى الدار الآخرة، بخلاف الأنبياء.

محمد ﷺ أظهر دين الرسل قبله، وصدقهم ونوه بذكرهم وتعظيمهم، فيه آمن بالأنبياء والرسل، مثل موسى والمسيح وغيرهما، أمم عظيمة، لولا محمد ﷺ لم يؤمنوا بهم.

ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب، كانوا مختلفين فيه كاختلاف أهل الكتاب فى المسيح، وكانوا يقدحون فى داود وسليمان وغيرهما، بما هو معروف عندهم.

وأيضًا فإنه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه، مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم.

ومحمد ﷺ صدق المسيح فى أخباره: بأنه أركون العالم، فقال: أنا سيد ولد آدم ولا فخر: آدم فمن دونه تحت لوائى، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا.

وهو صاحب لواء الحمد وهو صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون يوم القيامة، فهو سيد العالمين حقًا، وهذا مطابق لقول المسيح: **«إنه أركون العالم»** فهو أركون الآخرين فى الدنيا والآخرة، وهو أركون الأولين والآخرين فى الآخرة.

وقول المسيح: **«إن أركون العالم سيأتى، وليس لى شىء» تضمن الأصلين إثبات الرسول ﷺ، وإثبات التوحيد وأن الأمر كله لله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.**

وقول المسيح: **«ليس لى شىء»** تنزيه له مما نسب إليه من الربوبية، وهذا النفى يشترك فيه جميع الخلق، قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ [آل عمران:١٢٨] وقال تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ** ﴾ [الأنعام: ٥٠]



وقال: ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (أى ملجأ وملاذا) إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢١-٢٣] وقال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وأيضًا ففى نبوة أشعيا أنه وصف محمداً ﷺ بأنه أركون السلم، والسلم والسلام الإسلام، فهو يبين أنه سيد دين الإسلام.

ولا ريب أن الأنبياء كلهم بعثوا بدين الإسلام، لكن لم يظهر هذا الدين واسمه، وانتشر ذكره من بينهم فى الأرض، كما ظهر لمحمد ﷺ، فمحمد أركون الإسلام الذى يجمع كل خير وبر، كما أن إبليس أركون الشر، قال تعالى عن نوح: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢] فهذا نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض يذكر أنه أُمِرَ أن يكون من المسلمين.

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣٢]، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقالت السحرة، لما أسلموا، وأراد فرعون قتلهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ

عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤] وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣].

فإن قيل: فقد سمى المسيح الفار قليط روح الحق، وسماه روح القدس.

قيل: قد قال يوحنا فى كتاب أخبار الحواريين المسمى «افراكيس»:

«يا أحبابى إياكم أن تؤمنوا بكل روح، لكن ميزوا الأرواح التى من عند الله من غيرها، واعلموا أن كل روح يؤمن بأن يسوع المسيح قد جاء، فكان جسدانيًا، فهى من عند الله، وكل روح لا يؤمن بأن المسيح قد جاء، فكان جسدانيًا، فليست من عند الله، بل من المسيح الكذاب الذى هو الآن فى العالم».

وإذا كان كذلك علم أن الروح -عندهم- يتناول النبى المرسل من البشر.

وجبريل الذى نزل بالوحى على محمد ﷺ، هو روح القدس، وهو روح الحق كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] وهذا الروح إنما جاء بمجيء محمد ﷺ والكلام الذى نزل به، هو الذى بلغه محمد ﷺ ولهذا قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فاصطفى الله جبريل من الملائكة، واصطفى محمدًا ﷺ من البشر، ولهذا يشير القول الذى هو القرآن إلى نزول هذا تارة، وإلى نزول هذا تارة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ

﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢١] فهـذا الرسول هنا جبـريل وقال فى الأخرى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣] فهذا الرسول هنا محمد ﷺ وأضافه إلى كل منهما بلفظ الرسول، لتضمنه أنه بلغه عن مـرسله، لم يقل: إنه لقول مـلك، ولا نبى بل كفـر من قال: إنه قـول البشر، كما ذكر ذلك عن التوحيد، وقد قال تعالى فى القرآن: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] ومعلوم أن الرسول نفسه لم ينزله بل أبدل الرسول من الذكر، لأن الرسول جاء بالذكر.

ولما كان الرسول الملكى والرسول البشرى والذكر المنزل أمورا متلازمة، يلزم من ثبوت واحـد، ثبوت الآخرين، ومن الإيـمان بواحد، الإيمـان بالآخرين فيلزم من كون القرآن حقًا، كون جبـريل ومحمد ﷺ حقا، وكذلك يلزم من كون محمد ﷺ حقًا، كون جبـريل والقرآن حقًا، ويلزم من كون جبريل حقًا كون القرآن ومحمد ﷺ حقًا.

ولهذا جمع الله بين الإيمـان بالملائكة والأنبياء من جهتـين، من جهة أنهم أخبروا به قـبل أن يبعث بسنين كثـيرة، فكان الأمر كما أخـبروا به. وهذا آية لنبوتهم.

وإخبارهم بنبوته، دليل على نبوته، فصار ما فى الكتب المتقدمة من خبره، دليلا على نبوة من قبله، وعلى نبوته.

وكما أن إخبار هو أيضًا عنهم مع بعد العهد خبرًا لم يتعلمه من بشر دليلا على نبـوته وقد أخـبر بنبـوتهم، فـثبـتت نبوته ونـبوتهم صلى الله عليـهم أجمعين.

الجهة الثانية أنه أخبر بمثل ما أخبروا به من غير مواطأة بينهم وبينه، ولا تشاعر، لم يأخذوا عنه، ولم يأخذ عنهم.

وكل منهما أخبر عن الله بأخبار مفصلة، يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطيء فإذا لم يكن تواطؤ وتشاعر، وامتنع اتفاق ذلك من غير مواطأة، علم أن كلا من المخبرين صادق. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف:٧] وقص قصته في السورة إلى أن قال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٢-١٠٦] إلى قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:١٠٨-١١١] وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف:٨٣] وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥] وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف:٩] وقال تعالى، لما قص قصة نوح في سورة هود، وهي أطول ما

قصه الله فى القرآن من قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] فذكر سبحانه أن هذا الذى أوحاه إليه من أنباء الغيب، ما كان يعلمه هو ولا قومه من هذا.

فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك، لا من أهل الكتاب، ولا من غيرهم وهو لم يعاشر إلا قومه، وقومه يعلمون ذلك منه، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك. ويعلمون أيضًا أنه هو لم يكن تعلم ذلك، وأنه لم يكن يعاشر غيرهم، وهم لا يعلمون ذلك، صار هذا حجة على قومه، وعلى من بلغه خبر قومه.

ومثل هذا ما أخبرهم عن قصة آدم، وسجود الملائكة له، وتزيين إبليس له حتى أكل من الشجرة، وهبط هو وزوجته، وأخبرهم عن نوح ودعائه على قومه، ومكثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

وهذا فى التوراة الموجود بأيدى أهل الكتاب مقدار لبثه فى قومه قبل الغرق وبعده.

ما جاء به الرسول ﷺ هو وحى من عند الله عز وجل وحده

وأخبرهم عن قصة الخليل وما جرى له مع قومه، وإلقائه فى النار، وذبح ولده، ومجيء الملائكة إليه فى صورة ضيفان، وتبشيره بإسحاق ويعقوب، وذهاب الملائكة إلى لوط، وما جرى للوط مع قومه، وإهلاك الله مدائن قوم لوط، وقصة يعقوب مع بنيه، كقصة يوسف وما جرى له بمصر، وقصة موسى مع فرعون، وتكليم الله إياه مرة بعد مرة، وآياته كالعصا واليد البيضاء والقمل والضفادع والدم، وفلق البحر، وتظليل الغمام على بنى إسرائيل،

وإطعامهم المن والسلوى، وانفجار الماء من الحجر اثنى عشر عينا لسقيهم، وعبادتهم العجل، وقتل بعضهم بعضًا لما تاب الله عليهم، وقصة البقرة، ونتق الجبل فوقهم، وقصة داود، وقتله لجالوت؛ وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، وقصة الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه، وغير ذلك من أحوال بنى إسرائيل إلى أن ذكر قصة زكريا وابنه يحيى، وعيسى بن مريم، وأحوال المسيح وآياته، ودعائه لقومه. والآيات التى بُعث بها، وتفاصيل ذلك، **وذكر قصة أصحاب الكهف، وقصة ذى القرنين، وغير ذلك من قصص الأنبياء والصالحين والكفار، مفصلة مبينة بأحسن بيان،** وأتم معرفة، مع علم قومه الذين يعرفون أحواله من صغره ﷺ إلى أن ادعى النبوة، أنه لم يتعلم هذا من بشر، بل لم يجتمع هو بأحد من البشر يعرف ذلك، ولا كان عندهم بمكة من يعرف ذلك، لا يهودى ولا نصرانى ولا غيرهم، كان هذا من عظيم الآيات والبراهين لقومه بأن هذا إنما أعلمه به وأنبأه به الله ومثل هذا الغيب لا يعلمه إلا نبى أو من أخذ عن نبى فإذا لم يكن هو قد أخذه عن نبى تعيَّن أن يكون نبيًا ﷺ.

ثم سائر أهل الأرض يعلمون أنه لم يتعلم ذلك من بشر، من طُرق.

أحدها: أن قومه المعادين له، الذين هم من أحرص الناس على القدس فى نبوته، مع كمال علمهم، لو علموا أنه تعلم ذلك من بشر، لطعنوا عليه بذلك وأظهروه فإنهم -مع علمهم- بحاله يمتنع أن لا يعلموا ذلك لو كان، ومع حرصهم على القدح فيه، يمتنع أن لا يقدحوا فيه، ويمتنع أن لا يظهر ذلك.

الثانى: أنه قد تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون: إنه لم يكن يجتمع به من يعلمه ذلك.

الثالث: أنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب مع عداوته لهم، لكانوا يخبرون بذلك ويظهرونه، ولو أظهروا ذلك، لنقل ذلك وعرف، فإن هذا من الحوادث التى تتوفر الهمم والدواعى على نقلها.

الرابع: أنه حين بعث، كان الناس إما مشركا، وإما كتابيًا، فلم يكن هناك أحد على الدين الذى دعا إليه.

وقد علم الناس بالتواتر أن المشركين من قريش وغيرهم، لم يكونوا يعرفون هذه القصص، ولو قدر أنهم كانوا يعرفونها، فهم أول من دعاهم إلى دينه فعادوه وكذبوه، فلو كان فيهم من علمه، أو يعلم أنه تعلم من غيره، لأظهر ذلك.

الخامس: أن مثل هذا لو كان، فلابد أن يعرفه، ولو خواص الناس، وكان فى أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك، وكان ذلك يشيع، ولو تواصوا بكتمانه، كما شاع ما كتم من أمر الدول الباطنية، ولكان خواصه فى الباطن يعلمون كذبه، وكان علمهم بذلك يناقض تصديقه فى الباطن، كما عرف فى نظائر ذلك.

فكيف، وكان أخص أصحابه، وأعلمهم بحاله، أعظمهم محبة وموالاة؟

بخلاف حال من يبطن خلاف ما يظهر، فإن خواص أصحابه لا يعظمونه فى الباطن.

فإذا علم الناس أن قومه الذين كانوا معادين له غاية العداوة، وكانوا يطلبون القدح فى نبوته بكل طريق، يخبرون أنه لم يكن عندهم بشر يعلمه مثل هذا، وأنه لم يكن فى قومه ولا بلده من يعرف هذا.

علم الناس ما علمه قومه من أن هذا إنما أنبأه به الله، وكان هذا من إعلامه وآياته وبراهينه، وهذا مما بين الله فى القرآن أنه من آياته، وأنه حين أخبر قومه بهذا مع

تكذيبهم وفرط عداوتهم له، ولم يمكن أحداً منهم أن يقول له: بل فينا من كان يعلم ذلك، وأنت كنت تعلم ذلك، وقد تعلمته منا أو من غيرنا.

فكان إقرارهم بعدم علمه وعلمهم، مع فرط عداوتهم له، آية بينة لجميع الأمم أنه لم يكن هو ولا هم يعلمون ذلك.

ولهذا لما كان بعضهم يفترى عليه فرية ظاهرة كانوا كلهم يعلمون كذبه، وإذا اجتمعوا وتشاوروا فى أمره يعترفون أن هذا كذب ظاهر عليه، كما كان بعضهم يقول: إنه مجنون، وبعضهم يقول: إنه كاهن، وبعضهم يقول: إنه ساحر، وبعضهم يقول: إنه معلم، تعلمه من بشر، وبعضهم يقول: أضغاث أحلام.

فحكى الله أقوالهم، مبينا ظهور كذب من قال ذلك، وأنه قولٌ ضال حائر، قد بهره حال الرسول ﷺ فحار فلم يدر ما يقول، كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ۝٣ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ١-٦] فأخبر عمن قال ذلك، وهم يعلمون أن هذا من أظهر الكذب، فإن هذه القصص المذكورة فى القرآن، لم يكن بمكة من يعرفها، فضلا عن أن يمليها كما قال: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال: ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ [هود: ٤٩] ولهذا قال: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى



يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] فأخبر أن هذا من علم من يعلم السر، إذا كان البشر لا يعلمون ذلك إلا من جهة أخبار الأنبياء، وليس بمكة من يعلم ما أخبرت به الأنبياء.

ثم ذكر ما اقترحوه فقالوا: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ۝ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٧-٩].

أمر بالنظر في كيفية ما ضربوه من الأمثال، حيث شبهوه بمن يظهر الفرق بينه وبينه ظهورًا لا يخفى على الناظر، ولهذا قال: «فضلوا فلا يستطيعون سبيلا» إذ كان ظاهرًا أن هذا ضلال عن طريق الحق، فلا يستطيع الضال عن طريق الحق إليه سبيلا.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ۝ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٣] فأخبر عما افتراه بعضهم من قوله: إنما يعلمه هذي القرآن بشر.

وكان بمكة مولى أعجمي لبعض قريش قيل: إنه مولى لبني الحضرمي، والنبي ﷺ لا يحسن يتكلم باللسان العجمي، وذاك لا يحسن أن يتكلم بهذا اللسان العربي.

فلما قالوا: إنه افترى هذى القرآن، وأنه علمه إياه بشر، قال تعالى ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ﴾ أى يضيفون إليه هدى التعليم وينسبونه إليه، وعبر عنه بلفظ الإلحاد، لما فيه من الميل، فقال: لسان هذا الشخص الذى قالوا: إنه يعلمه القرآن، لسان أعجمى، وهم لم يمكنهم أن يضيفوا هدى التعليم إلى رجل عربى، بل إلى هدى لأعجمى، لكونه كان ربما يجلس أحيانًا إلى النبى ﷺ، وذلك الأعجمى لا يمكنه أن يتكلم بهدى الكلام العربى، بل هو أعجمى، ومحمد ﷺ لا يعرف بالعجمية، لكن غاية ذاك الأعجمى كعبد بنى الحضرمى أن يعرف قليلاً من كلام العرب الذى يحتاج إليه فى العادة، مثل الألفاظ التى يحتاج إليها فى غالب الأوقات، كلفظ الخبز، والماء، والسماء، والأرض، ولا يعرف أن يقرأ سورة واحدة من سور القرآن.

فبين سبحانه ظهور كذبهم فيما افتروه، ولم يقل أحد منهم ما يمكن أن يكون شبهة فى تعلمه أنباء الغيب من علماء أهل الكتاب ونحو ذلك، وإنما قالوا ما ظهر بطلانه لكل أحد، ولم ينقل عن أحد منهم أنه قال قولا يخفى بطلانه، بل ما يظهر كذبه لكل أحد.

فتبين أنه لم يمكنهم أن يقولوا: إنه تعلم أخبار الغيوب من أحد.

وهذه القصة قصة نوح -لا سيما قصته المستوفاة فى سورة هود كما تقدم- لا يعلمها إلا نبى أو من تلقاها عن نبى. فإذا عرف أنه لم ينقلها عن أحد علم أنه نبى، ولهذا قال تعالى فى آخرها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩] والقول فى سائر القصص، كالقول فيها.

وكما قال فى سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢] وقال فى سورة آل



عمران، لما ذكر قصة زكريا ومريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وقال في قصة موسى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٤-٤٦].

والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر، فنبه بقول: «وما كنت لديهم» على أنك إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك، إذ كان معلومًا عند كل من عرفه أنه لم يسمع ذلك من بشر وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك.

وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦] بين بذلك أن تلاوته عليهم هذا الكتاب وإدراءهم، أي إعلامهم به، هو بمشيئة الله وقدرته، لا من تلقاء نفسه، كما قال قبل هذا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ [يونس: ١٥، ١٦].

فبين أنه لبث فيهم عمرًا من قبله، وهو لا يتلو شيئًا من ذلك ولا يعلمهم به فليس الأمر من جهته، ولكن من جهة الله الذي لو شاء ما تلاه عليهم، ولا أدراهم به، وتلاوته عليهم وإدراؤهم به، هو من الإعلام بالغيوب الذي لا يعلمها إلا نبي، وبين أن ذلك من الإرسال الديني الذي يحبه الله ويرضاه،

لا من الكونى الذى قدره وقضاه، وهو لا يحبه ولا يرضاه، كإرسال الشياطين ولهذا كانوا يعرضون عليه أن يصير ملكا عليهم وأن يعطوه حتى يكون من أغناهم، وأن يزوجوه ما شاء من نسائهم فيقول ﷺ: **«لو وضعتم الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أدع هذا الأمر لم أستطع أن أدعه»** وهذه الثلاث هى مطلوب النفوس من الدنيا **(السلطان والمال والنساء)** فأعرض عن قبول الدنيا التى هى غاية أمانى طالبها، وبين أنه لا يقدر على أن يدع ما أُمر به من تبليغ الرسالة.

وقال تعالى: ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٧] بين سبحانه أنهم طلبوا أن يمنعوه بكل طريق، فإن الإنسان إنما يتم عمله بإرادته وقدرته.

فمع الإرادة الجازمة، والقدرة التامة، يجب وجود المقدور، وإذا تعذر أحدهما امتنع.

فطلبوا تغيير إرادته ليركن إليهم، فيغير ما أوحى إليه، فعصمه الله، وثبته.

ثم طلبوا تعجيزه بأن يستفزوه ويخرجوه، حتى يعجز عن تبليغ رسالة ربه، ولو كان ذلك لعاجلهم الله بالعقوبة، أسوة بمن تقدمه من الرسل، فإن الله كان إذا أراد إهلاك أمة، أخرج نبيها من بينها، ثم أهلكها، لا يهلكها وهو بين أظهرها، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٣] وهذا بعد قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن**



كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فلما خرج من بينهم بالهجرة أتاهم الله بعذاب أليم يوم «بدر» وغيره.

فقوله ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إشارة إلى سعيهم في إفساد إرادته وقوله: «وإن كادوا ليستفزونك من الأرض» إشارة إلى سعيهم في تعجيزه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] بين سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه، متواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس: **أنه كان أميًا لا يقرأ كتابًا، ولا يخط كتابًا من الكتب، لا المنزلة ولا غيرها، لا يقرأ شيئًا مكتوبًا، لا كتابًا منزلا ولا غيره، ولا يكتب بيمينه كتابًا ولا ينسخ شيئًا من كتب الناس، لا المنزلة ولا غيره،** ﷺ.

ومعلوم أن من يعلم من غيره إما أن يأخذ تلقينًا وحفظًا، وإما أن يأخذ من كتابه، وهو لم يكن يقرأ شيئًا من الكتب من حفظه، ولا يقرأ مكتوبًا. والذى يأخذ من كتاب غيره، إما أن يقرأه، وإما أن ينسخه، **وهو لم يكن يقرأ ولا ينسخ.**

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧]، إلى قوله ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ

عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢٢٧]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وعلماء بنى إسرائيل يعلمون ذكر إرسال محمد ﷺ ونزول الوحى عليه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] وقال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣] ويعلمون المعانى التى فيه أنها موافقة لأقوال الرسل قبله فى الخبر والأمر.

فإنه أخبر عن توحيد الله وصفاته، وعرشه وملائكته، وخلقه السموات والأرض وغير ذلك، بمثل ما أخبرت به الرسل قبله.

وأمر بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وبالعدل والصدق، والصلاة والزكاة، ونهى عن الشرك والظلم والفواحش، كما أمرت ونهت الرسل قبله.



والسور المكية نزلت بالأصول الكلية المشتركة التى اتفقت عليها الرسل، التى لابد منها، وهى الإسلام العام، الذى لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دنيًا غيره.

وأما السور المدنية، ففيها هذا، وفيها ما يختص به محمد ﷺ من الشرعة والمنهاج.

إخبار النبى ﷺ عن أمور الغيب يدل على نبوته ﷺ

فإن دين الأنبياء واحد كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «إنا - معاشر الأنبياء- ديننا واحد» قال الله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠ - ٣٢].

وأما الشرعة والمنهاج، فقد قال عن أهل التوراة والإنجيل والقرآن، ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ

وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٧] إلى قوله: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ [الحج: ٦٧] وأما القبلة فلم يجعل ما ابتدعه أهل الكتاب من القبلة، فلذلك قال: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾ [البقرة: ١٤٨] لم يقل: إنا جعلنا لكل وجهة كما قال فى المنسك والشرعة والمنهاج، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴾ [طه: ١٣٣] فإنه إذا أتاهم ببيان ما فى الصحف الأولى، مع علمهم بأنه لم يعاشر أحد من أهل الصحف الأولى، ولا استفاد منهم علمًا، كان هذا من أعظم الآيات من الله.

وكما أن إخباره عن أمور الغيب يدل على نبوته، فإنه يدل على أن النبوة إنباء من الله، ليس ذلك كما يقوله بعض المتفلسفة، كابن سينا وأمثاله: «أنه فيض فاض عليه من النفس الفلكية أو العقل الفعال»، ويقولون: إن النفس أو العقل، هو اللوح المحفوظ وأن من اتصلت نفسه به علم ما علمته الأنبياء.

ويقولون «النبوة مكتسبة، لأن هذه صفتها» ويقولون: «إن سبب علمه بالغيب هو اتصال نفسه بالنفس الفلكية» ويزعمون أنها اللوح المحفوظ، وأن تحريكها للفلك هو سبب حدوث الحوادث فى الأرض، فتكون عالمة بما يحدث في الأرض، لأن العلم بالسبب، يوجب العلم بالمسبب.

فإن هذا مبنى على مقدمات باطلة، قد بسط الكلام على بطلانها في موضع آخر.

منها: إثبات العقل الفعال.



ومنها: أن المحرك له هو النفس.

ومنها: إيصال نفوسنا بتلك النفس.

والمقصود -هنا- أن هذا لو كان حقًا فإنما يفيد علمًا بالمستقبل الذى تكون الحركة الحاضرة سببًا له.

أما ما قد مضى قبل ذلك بمئتين أو ألوف من السنين، فليس شيء من حركات الفلك حين مبعث الرسول، كان سببًا له، وإنما تكون الحركة الموجودة فى زمانه سببًا للمستقبل لا للماضى، وحينئذ فلا يكون تحريك النفس للفلك سببًا للعلم بهذه الأمور، ولا يكون ذلك هو اللوح المحفوظ، بل القران المجيد فى لوح محفوظ، وهو في أم الكتاب: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩] وأخبر سبحانه أنه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء: ٩٣]. وقال فى آية أخرى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال فى موضع آخر: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٩]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فذكر أنه قول رسول الله اصطفاه من الملائكة، نزل به على رسول اصطفاه من البشر، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ

الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة: ٤٠- ٥٢]. فنزه كلا من الرسولين عما قد يشتبه به.

نزَّه المَلَكَ أن يكون شيطانًا ونزه البَشَر أن يكون شاعرًا أو كاهنًا، وبين برهان ذلك وآيته فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، فبين أنه ما يصلح لهم النزول به، بل هم منهيون عن ذلك، وهم ممتنعون عن ذلك، لا يريدونه، لمنافاته لمقصودهم، وإنهم لو أرادوا ذلك، لعجزوا عن ذلك، فلم يستطيعوه، إذ كانوا معزولين عن أن يسمعوه من الملأ الأعلى، وهم إنما يقدرون على أن ينزلوا بما سمعوه لا بما لم يسمعوه، وذلك أن الفاعل للفعل إنما يفعله إذا كان مريدًا له قادرًا عليه

فبين بقوله «وما ينبغى لهم» أنهم لا يريدون تنزيله، وبقوله «وما يستطيعون» أنهم عاجزون عن تنزيله.

وأما كونهم لا يريدون، فلأنه لا ينبغى لهم، «وينبغى» مضارع بغى يبغى أى طلب وأراد، فالذى لا ينبغى للفاعل، هو الذى لا يطلبه ولا يريده، إما لكونه ممتنعًا من ذلك، أو لكونه ممنوعًا منه.

والشيطان إنما يريد الكذب والفجور، لا يريد الصدق والصلاح.

وما جاء به الرسول ﷺ، مناقض لمراد الشياطين من إرسال محمد ﷺ، فيمتنع أن تفعل الشياطين ما لا يريدون إلا نقيضه، وهم أيضًا ممنوعون من ذلك بحيث لا يصح لهم ذلك ولا يتأتي منهم، كما أن الساحر لا ينبغى له أن يكون نبيًا.



والمعروف بالكذب والفجور لا ينبغى له مع ذلك أن يكون رسولاً، ولا أن يكون حاكمًا ولا شاهدًا ولا مفتيًا إذ الكذب والفجور يناقض مقتضى الرسالة والحكم والشهادة والفتيا، فكذلك ما فى طبع الشياطين من إرداة الكذب والفجور، يناقض أن تتنزل بهذا الكلام الذي هو في غاية الصدق والعدل، لم يشتمل على كذبة واحدة، ولا ظلم لأحد.

ثم قال: «وما يستطيعون» فإنهم عن سمع هذا الكلام لمعزولون بما حرست به السماء من الشهب، كما قال عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩] وقد ذكرنا تواتر هذا الخبر وأن السماء -حين مبعثه- ﷺ حرست حرسًا لم يعهده الناس قبل ذلك، ورأى الناس ذلك بأبصارهم، فكانوا قد عاينوا ما أخبرهم به من الرَّمْى بالشهب التى يُرمى بها لطرد الشياطين، فعزلوا بذلك عن سمع الملأ الأعلي، وكان ما عاينه الكفار عن الرمى الشديد العام الذى انتقضت به العادة المعروفة فى رمى الشهب، دليلاً على سبب خارق للعادة، ولم يحدث -إذ ذاك- فى الأرض أمر لا تَجْرِ به العادة إلا ادعاه للرسالة، فلم يعرف قبله ولا بعده من نزل عليه الكلام كنزوله عليه.

إذ كان موسى عليه السلام إنما أنزلت عليه التوراة مكتوبة، لم تنزل عليه منجمة مفرقة ملقاة إليه حفظًا، حتى تحتاج السماء إلي حراسها عن استراق سمعها.

والزبور تابع لشرع التوراة، وكذلك الإنجيل فرع على التوراة.

لم ينزل كتاب مستقبل إلا من التوراة والقرآن كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

ولهذا يقرن سبحانه بين التوراة والقرآن كثيراً كما في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ..﴾ [الأنعام: ٩١]. إلى قوله وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وقال سعيد بن جبير وغيره: الأحزاب هى الملل كلها، قال: وهذا تصديق قول النبى ﷺ: «والذي نفسى بيده لا يسمع بى من هذه الأمة، يهودي ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» وقرأ هذه الآية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال النجاشى -لما سمع القران-: **إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»**.

وقال ورقة بن نوفل للنبى ﷺ: **«يا ابن أخى هذا هو الناموس الذي كان يأتى موسى»**. وأيضًا فكان معروفًا عندهم إخبار الكهان عن الشياطين التى تسترق السمع.

فلما رأوا أن السماء قد حُرست حرسًا شديدًا خلاف العادة، علموا أن الشياطين منعوا استراق السمع، وعلمت الجن ذلك كما تقدم، وقد قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ⑧ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ⑨ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨، ١٠]، وقد تواترت الأخبار بأنه حين



المبعث كثر الرمي بالشهب، وهذا أمر خارق للعادة، حتى خاف بعض الناس أن يكون ذلك لخراب العالم، حتى نظروا، هل الرميُ بالكواكب التى في الفلك أم الرمى بالشهب؟ فلما رأوا أنه بالشـهب، علموا أنه لأمر حدث، وأرسلت الجن تطلب سبب ذلك، حتى سمعت القـرآن، فعلمت أنه كان لأجل ذلك كما جاء في الصـحيـحين عن ابن عـبـاس قال: «انطلق رسـول الله ﷺ فى طائفـة من أصحابه، عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حـيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشيـاطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا لأمر حدث، فاضـربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الأمر الذى حدث. فانطلقوا فضربوا مـشارق الأرض ومغاربها ينظرون، ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خـبر السماء؟ قال: فانطلقوا نحـو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامـد إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صـلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمعوا له، فقالوا: هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** (١) **يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾ [الجن: ٢]. فأنزل الله على نبـيه: ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ**﴾ [الجن: ١]. وروي الإمام أحـمد عن ابن عباس قال: كان الجن يستمعون الوحى فيسـمعون الكلمة، فيزيدون فيها عشراً، فيكون ما سمعوا حقًا وما زادوه باطلاً، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك.

فلما بعث النبى ﷺ كان أحدهم لا يقعد مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب.

فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمـر قد حدث، فبعث جنوده فإذا هم بالنبى ﷺ يصلى بين جبلى نخلة فأتوه فـأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض.

وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن السدى: زعم أن السماء لم تكن تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبى أو دين الله ظاهر.

فكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر.

حتى لما بعث الله محمدًا ﷺ نبيًا رُجموا ليلة من الليالى، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا: هلك أهل السماء، لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب. فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسيبون مواشيهم، فقال لهم، عبد ياليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر الطائف، أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء إنما هذا من أجل ابن أبى كبشة (يعنى محمد ﷺ) وإن أنتم لم تروها، فقد هلك أهل السماء، فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم.

وفزعت الشياطين فى تلك الليلة فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم، فقال: ائتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها، فأتوه فشم فقال: صاحبكم بمكة، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين قدموا مكة، فوجدوا نبى الله ﷺ قائمًا يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القران، فدنوا منه حرصًا على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه، ثم أسلموا فأنزل الله عز وجل شأن أمرهم على نبيه ﷺ، **وهذا من أعلام النبوة ودلائلها.**

وقبل زمان البعث وبعده كان الرمى خفيفًا لم تمتلئ به السماء كما ملئت حين نزول القرآن قوله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ**﴾ [الشعراء: ١١٢ - ٢٢٣] والأفاك: الكذاب والأثيم: الفاجر كما قال: ﴿**لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ**﴾ [العلق: ١٥، ١٦] وقال النبى ﷺ فى الحديث المتفق



على صحته: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا».

فالشياطين تنزل على من يحصل مقصودها بنزولها عليه، وهو المناسب لها فى الكذب والإثم.

فأما الصدق البار، فلا يحصل به مقصود الشياطين، فإن الشيطان لا يطلب الصدق والبر، وإنما يطلب الكذب والفجور.

ومحمد ﷺ مازال قومه يعرفونه بينهم بالصادق الأمين، لم تجرب عليه كذبة واحدة.

ولما جاء الروح بالوحى لم بخبر بخبر واحد كذب، لا عمداً ولا خطأ.

ومن تنزلت عليه الشياطين لابد أن يخبر بالكذب، فإن الشياطين يلقون إليهم السمع، ولا يلقون إليهم ما سمعوه علي وجهه، بل يكذبون فيه كثيراً.

إذ كان أكثر الشيطاين الذين ينزلون عليهم كاذبين فيما ينزلون به عليهم.

فإن الشياطين، وإن كان كلهم كاذبًا، فليس كل من ألقي السمع يكذب فيما يلقيه، بل قد يصدق أحدهم فيما يلقيه من السمع ويسترقه ولو مرة، ولكن أكثرهم يكذبون، والذي يصدق منهم مرة يكذب مرات، والذي ينزل عليه الشياطين أفاك أثيم.

وفى صحيح البخارى عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضى في السماء، فيسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم».

فالفـرق بين الصادق البار الذى يأتيـه الملك الكريم، والكاذب الأثيم الذى يأتيه الشيطان الرجيم، فرق مبين يعرف بأدنى معرفة بحال الاثنين.

ولما كان الكاهن الـذي يأتيه شيطان قـد يخبر ببـعض الأمور الغـائبة، بين سبـحانه أن هذا يكون -وإن صدق فى بعض الأخـبار- كاذبًا فـاجرًا، والذى يأتيه أيضًا يأتيه بالكذب، فلا يشتبه بمن لا يكذب ولا يفخر، وهذا مما يبين أن النبى لا يكون إلا بارًا معصومًا أن يصر على ذنب.

اعتراف أعداء الرسول ﷺ بصدقه

وقد ذكرنا أن قومـه المعادين له غاية العداوة: مازالوا معتـرفين بصدقه ﷺ، وأنهم لم يجربوا عليه كـذبًا، بل ومعترفين بأن ما يقوله ليس بشـعر ولا كهانة، وأنه ليس بساحر.

وكـانوا فى أول أمره يرسلون إلى البـلاد التى فـيهـا علماء أهل الكتـاب يسألونهم عنه، لأن مكة لم يكن بها ذلك، ففى الصـحيحين عن ابن عباس «أن أبا سفيان ابن حرب حـدثه قال: انطلقت إلى الشام فى المدة التى كانت بينى وبين رسول الله ﷺ قـال: فبينمـا أنا بالشام إذ جئ بكتـاب رسول الله ﷺ هرقل، قال: وكان دحية الكلبى جاء به فـدفعه إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصـرى إلى هرقل، فقـال هرقل: هل ههنا أحد من قـوم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قالوا: نعم، قـال فدعيت في نفر من قـريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قال أبو سـفيـان فـقلت أنا. فأجلسـونى بين يديه وأجلسـوا أصحـابى خلفى، فدعا بترجـمانه فقـال: قل لهم، إنى سائل هذا عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى، فإن كـذبنى فكذبوه، قال أبو سفـيان: وأيم الله

لولا مخافة أن يؤثر على كذبًا لكذبت عليه، ثم قال لترجمانه: سله كيف نسبه فيكم؟ قال. قلت، هو فينا ذو نسب، قال: فهل كان فى آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا» وذكر باقى الحديث.

وفى الصحيحن عن عبد الله بن مسعود قال: انطلق إلى الشام فمرَّ بالمدينة ينزل على سعد، فقال لسعد: انتظر، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس، انطلقت فطفت، فبينما سعد يطوف، إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذى يطوف بالبيت؟ فقال: أنا سعد، فقال أبو جهل: تطوف بالبيت آمنًا وقد آويتم محمدًا وأصحابه؟ قال: نعم، فتلاحيا بينهما، فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبى الحكم، فإنه سيد أهل الوادى، ثم قال سعد: والله لإن منعتنى أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام، قال: فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد فقال: دعنا عنك فإنى سمعت محمدًا ﷺ يزعم أنه قاتلك، قال: إياى؟ قال: نعم، قال والله ما يكذب محمد إذا حدَّث، فرجع إلي امرأته فقال: أما تعلمين ما قال أخى اليثربى؟ قالت: وما قال؟ قال زعم أن محمدًا يزعم أنه قاتلى قالت: فوالله ما يكذب محمد. قال: فلما خرجوا إلى «بدر» وجاء الصريخ، قالت له امرأته، أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربى؟ قال: وأراد أن لا يخرج، فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادى، فَسِرْ يومًا أو يومين، فسار معهم فقتله رسول الله ﷺ.

وفى رواية أنه قال: والله ما يكذب محمد ﷺ، وعزم أن لا يخرج خوفًا من هذا، حتى قال له أبو جهل: إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادى، تخلفوا معك. فقال: أما إذا غلبتنى فلأشترين أجود بعير بمكة، وذكَّرَتْهُ امرأته بقول سعد، فقال: ما أريد أن أكون معهم إلا قريبًا.

وكذلك ما ذكره أهل المغازى وغيرهم أن أمية بن خلف لما بلغه أن النبى ﷺ قال: أنا أقتله، ثم طعنه رسول الله ﷺ فخدشه، وجعل أصحابه يجرعونه ويقولون: إنما هو خدش وليس بشيء، فقال: والله لو كان بمضر لقتلهم، أليس قال: «لأقتلنك».

وعن مجاهد قال: قال مولاى السايب بن يزيد: كنت فيمن بنى البيت، وإن قريشًا اختلفوا في الحجر حين أرادوا أن يضموه حتى كادوا يقع بينهم قتال بالسيوف، فقالوا: اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب، فدخل رسول الله ﷺ وكانوا يسمونه فى الجاهلية الأمين. فقالوا: يا محمد قد رضينا بك ﷺ.

وقال ابن إسحاق -فى قصة بناء البيت واختلاف قريش فيمن يضع الحجر، وإنهم مكثوا على ذلك أربع ليال أو خمسًا، ثم اجتمعوا فى المسجد، فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم وكان عامئذ أسنَّ قريش كلهم، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد يقضى بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ، **فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد جاء، رضينا. هذا محمد.** فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال رسول الله ﷺ: **«هَلُمَّ ثوبًا» فأتى به،** فأخذ الركن **(يعنى الحجر الأسود)** فوضعه فيه بيده، ثم قال: «ليأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا».

ففعلوا. حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه.

وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى **«الأمين»**.

وعن عقيل بن أبى طالب قال: جاءت قريش إلى أبى طالب، فقالوا له: إن ابن أخيك يأتينا في كتبنا ونادينا، وبسمعنا ما يؤذينا، فإن رأيت أن يكف عنه فافعل.



قال: فقال لى: يا عقيل، التمس ابن عمك.

قال: فأخرجته من كيس من أكياس شعب أبى طالب، فأقبل يمشى، حتى انتهى إلى أبى طالب، فقال له: يا ابن أخى، والله ما علمت إن كنت لى مطيعًا، وقد جاءني قومك يزعمون أنك تأتيهم فى كتبهم وناديهم، فتُسمعهم ما يؤذيهم، فإن رأيت أن تكُفَّ عنهم؟

قال فحلق ببصره نحو السماء فقال: والله ما أنا بأقدر على أن أدع ما بُعثت به من أن يُشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من النار.

فقال أبو طالب: إنه -والله- ما كذب قط، فارجعوا راشدين، رواه البخارى في تاريخه، وأبو زرعة فى الدلائل، رواه ابن إسحاق قريبًا من هذا اللفظ وقال: «فأخرجته من حفش -، وهو بيت صغير - وقال فيه: فظن رسول الله ﷺ أن قد بدا لعمه، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن القيام معه، فقال ﷺ: **«يا عم لو وُضعت الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فى طلبه»**.

وفى الصحيحين عن عبد الله بن الصامت قال أبو ذر: خرجنا من قومنا غفار، وكانوا يحلون الشهر الحرام، فخرجت أنا وأخى أنيس وأمنا فنزلنا على خال لنا فأكرمنا وأحسن إلينا، فحسدنا قومه، فقالوا: إنك خرجت عن أهلك خالف إليهم أنيس، فجاء خالنا فنثا علينا الذى قيل له، فقلت له: أمَّا ما مضى من معروفك فقد كدرته ولا جماع لك فيما بعد فقربنا صرمتنا، فاحتملنا عليها، وتغطى خالنا ثوبه يبكى، وانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة، فنافر أنيس رجلاً عن صرمتنا وعن مثلها. فأتيا الكاهن فخير أنيسًا فأتى بصرمتنا ومثلها معها قال: وقد صليت يا ابن أخى قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين، قلت: لمن؟ قال: لله، قلت: فأين توجه؟ قال: أتوجه

حيث يوجهنى ربى أصلى عشاء، حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأنى خفا، حتى تعلونى الشمس فقال: أنيس: إن لى حاجة بمكة فاكفنى، فانطلق أنيس حتى أتى مكة فرات على، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيت رجلاً بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون، شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أُحد الشعراء، قال: أنيس لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم ولقد وضعت قوله على أقراء الشعراء، فما يلتئم على لسان أحد يقرى بعدى أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون. قال: قلت، فاكفنى حتى أذهب فانظر، قال: نعم، وكن على حذر من أهل مكة، فإنهم قد سبقوا له وتجهموا، قال: فأتيت مكة فضفت رجلاً منهم فقلت: أين هذا الذى تدعونه الصابئ؟ فأشار إلى فقال: الصابئ، فمال على أهل الوادى بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشيًا على» وذكر الحديث وصِفَةَ إسلامه رضى الله عنه بلفظ مسلم.

وفى حديث البخارى عن ابن عباس: «أن أبا ذر أرسل أخاه وقال: اعلم لي علم هذا الرجل الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتنى، فانطلق الآخر حتى قدم مكة وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبى ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر.

فقال: ما شفيتنى فيم أردت، فتزود وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد» وذكر تمام الحديث.

وعن جابر بن عُبد الله قال: قال الملأ وأبو جهل: لقد غلبنا أمر محمد ﷺ، فلو التمستم رجلاً عالمًا بالشعر والكهانة والسحر، فأتاه فكلمه، فأتانا ببيان من أمره.

وقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر، وعلمت من ذلك علمًا، فما يخفى على إن كان كذلك. فأتاه فلما خرج إليه قال: أنت -



يا محمد خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أنت خير أم عبد الله؟ فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا لك الرياسة، فكنت رأسنا ما بقيت وإن كان بك الباه، زوجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت، وإن كان بك المال، جمعنا لك ما تستغنى به أنت وعقبك من بعدك، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، فلما فرغ قرأ رسول الله ﷺ (بسم الله الرحمن الرحيم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون) إلى قوله: (فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم أن يكف ورجع إلى أهله فلم يخرج إلى قريش، فاحتبس عنهم عتبة فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نري عتبة إلا قد صبى إلى محمد ﷺ وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة أصابته، فانطلقوا بنا إليه، فأتاه أبو جهل فقال: يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد ﷺ وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ﷺ، فغضب وأقسم أن لايكلم محمداً أبداً، وقال: لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالاً، ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة فأجابنى بشىء، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ② كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً ﷺ إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب» رواه أبو بكر أحمد بن مردويه، في كتاب التفسير عن محمد بن فضيل عن الأحلج عن الدبال بن حرملة عنه، ورواه يحيى ابن معين عن محمد بن فضيل، ورواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده، ورواه عبد ابن حميد عن شيخ أبى يعلى بن أبى شيبة.

وفي بعض الطرق: «إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة. وإن كنت تزعم إنك خير منهم فتكلم حتى نسمع» ورواه ابن إسحاق. قال: حدثني يزيد بن زياد مولى لبني هاشم عن محمد بن كعب قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً حليماً» وذكر الحديث إلى أن قال: «لما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي، إني -والله- قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا السحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصيبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: أسحرك -والله- يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم، ثم ذكر شعر أبي طالب يمدح عتبة فيما قال.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح، فسمع سفهاء أهل مكة يقولون: إن محمداً ﷺ مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يديّ - قال: فلقيت محمداً ﷺ، فقلت: إني أرقي من هذه الريح، وأن الله يشفي على يدي من شاء فهلم.

فقال محمد ﷺ: إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونسترشده، من يهد الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد فقال: أعد على كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: والله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت بمثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر.

قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام قال: «فبايعه رسول الله ﷺ فقال: وعلى قومك، فقال: وعلى قومي» الحديث.

وعن ابن عباس: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقال: اقرأ عليّ فقرأ عليه من القرآن ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] قال: أعد فأعاد النبي ﷺ فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وأن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا البشر.

وفي لفظ قال ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً. قال: ولم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً ﷺ لتعوض مما قبله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه ولا تبلغ قومك أنك منكر له وأنك كاره له. قال: وماذا أقول؟ والله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، ووالله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا ترضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدَعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره. فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١] رواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن عكرمة عنه.

وفي رواية أخرى «إن الوليد بن المغيرة اجتمع ونفر من قريش وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم فقال: إن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحداً ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضًا، ويرد بعضكم قول بعض: فقال: : فأنت يا أبا عبد شمس

فقل وأقم لنا رأيًا نقوم به. فقال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع فقالوا: نقول كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان، فما هو بزمزمة الكهان. فقالوا: نقول مجنون، فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا:" فنقول شاعر، فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر، قال فما هو بساحر، قد رأينا السحار وسحرهم، فمما هو بنفثه ولا عقده. فقالوا: ما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجنى، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وأن أقرب القول أن تقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أمته، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه، فجعلوا يجلسون للناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة، وذلك من قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قوله ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦] وأنزل فى النفر الذين كانوا معه، الذين جعلوا القرآن عضين، أى أصنافًا.

وروى ابن إسحاق عن شيخ من أهل مصر عن عكرمة عن ابن عباس قال: قام النضر بن الحارث فقال: «يا معشر قريش، والله لقد نزل بكم أمر، ما ابتليتم بمثله، لقد كان محمد ﷺ فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، قد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وسمعنا سجعهم، وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، لقد روينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، مخرجه ورجزه وقريضة، وقلتم: مجنون، ولا والله، ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون، فما هو بخفقه ولا



تخليطه، يا معشر قريش، انظروا فى شأنكم، فإنه -والله- لقد نزل بكم أمر عظيم».

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة.

قال: وحدثنى الزهرى قال: حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان، والأخنس ابن شريق، خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يسمعون له حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر، تفرقوا فجمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم، لأوقعتم فى نفسه شيئًا، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر، تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض، مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا، فلما كانت الليلة الثالثة فعلوا كذلك، ثم جمعتهم الطريق فتعاهدوا أن لا يعودوا، فلما... أصبح الأخنس بن شريق، أخذ عصاه ثم أتى أبا سفيان فى بيته فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا، والذى حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، **تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، ثم إذا تجاثينا على الرُّكبَ كفَرَسى رهان. قالوا: منا نبىٌّ يأتيه الوحْىُ من السماء، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به ولا نصدقه أبدًا.**

وكذلك روى عن المغيرة بن شعبة أن أبا جهل قال له مثل ذلك وقال: **إنى لأعلم ما يقول حق، ولكنّ بنى قُصَىّ قالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم فينا الحجابة فقلنا: نعم فينا السقاية فقلنا: نعم،** وذكر نحوه.

إجابة النبي ﷺ الصحيحة على أسئلة اليهود

وقد كانوا يرسلونه إلى أهل الكتاب ليسألوهم عن أمره ﷺ قال محمد بن إسحاق حدثني شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس قال: «بعث قريش النضر ابن الحارث، وعقبة بن أبي معيط أن أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: اسألوهم عن محمد ﷺ وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة **فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا ﷺ هذا، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاث، نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل، فالرجل متقوّل فرءا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه. وسلوه عن الروح ماهو، فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم؟ فهو رجل متقوّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.**

فأقبل النضر وعقبة، حتى قدما مكة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ، وقد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها.

فجاؤا رسول الله ﷺ، فقالوا. يا محمد: خبرنا، فسألوه عما أمروهم به.

فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم، **وجاء جبريل من الله بسورة الكهف،** فيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفقيه والرجل الطوّاف، وقول الله: **﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾**



[الإسراء: ٨٥] قال ابن إسحاق: بلغني أن رسول الله ﷺ افتتح السورة فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] يعني محمدًا أنك رسولي في تحقيق ما سألوه عنه من نبوته ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف:٩] أي أنزله قيما، أي معتدلا، لا اختلاف فيه وذكر تفسيره السورة إلى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف:٩] أي وما قدروا من قدري، وفيما صنعت من أمر الخلائق، وما وضعت على العباد من حجتي ما هو أعظم من ذلك.

قال: قال مجاهد ليس بأعجب آياتنا، من آياتنا ما هو أعجب من ذلك.

وفي تفسير العوفي عن ابن عباس: الذي أتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف.

قلت: والأمر على ما ذكره السلف، فإن قصة أصحاب الكهف هي من آيات الله، فإن مكثهم نيامًا لا يموتون ثلاثمائة سنة آية دالة على قدرة الله ومشيئته، وأن يخلق ما يشاء فليس كما يقوله أهل الإلحاد وهي آية على معاد الأبدان كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١] وكان الناس قد تنازعوا في زمانهم: هل تعاد الأرواح دون الأبدان، أم الأرواح والأبدان؟ فجعل الله أمرهم آية لمعاد الأبدان.

وإخبار النبي ﷺ بقصتهم من غير أن يُعَلِّمهُ بشر، آية على نبوته، فكانت قصتهم آية على أصول الإيمان الثلاثة، الإيمان بالله، واليوم الآخر، والإيمان برسله، ومع هذا فليسوا من آيات الله بعجب، بل من آيات الله ما هو أعجب من ذلك.

وقد ذكر الله تعالى سؤالهم له عن الآيات التى كانوا يسألونه عنها، ليعلموا: هل هو نبى صادق أم كاذب؟ فقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣] إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] إلى قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ.... وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٩، ١١١] وقال تعالى لما ذكر قصة أهل الكهف سألوه عنها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]. أى بسئلونك ذاك، ويسألونك عن هذا.

والقرآن مملوء من إخباره عن الغيب الماضى الذى لا يعلمه أحد من البشر إلا من جهة الأنبياء الذين أخبرهم الله بذلك، ليس هو الشىء الذى تزعمه ملاحدة المتفلسفة، فإن هذه الأمور الغيبية المعينة المفصلة، لا يؤخذ خبرها قط إلا عن نبى كموسى ومحمد ﷺ، وليس أحد ممن يدعى المكاشفات، لا من أولياء الله، ولا من غير أولياء الله، يخبر بشىء من ذلك، ولهذا كان هذا من أعلام الأنبياء وخصائصهم، التى لا يشركهم فيها غيرهم.

وأهل الملل متفقون على ما دل عليه العقل الصريح من أن هذا لا يُعلم إلا بخبر نبى.



فإذا كان محمداً ﷺ أخبر من ذلك بما أخبر به موسى وغيره من الأنبياء، وأخبر بما يعلمونه مما لا يعلمه أحد إلا بالتعلم منهم، وقد عرف أن محمداً ﷺ لم يتعلم هذا من بشر، كان هذا آية بينة وبرهانًا قاطعًا على نبوته.

ثم العلم بأن محمداً ﷺ لم يتعلم هذا من بشر، يحصل بوجوه. أما قومه المباشرون له، الخبيرون بحالة وكانوا يعملون أنه لم يتعلم هذا من بشر، فقامت عليهم الحجة بذلك وأما من لم يعرف حاله إلا بالسماع فيعلم ذلك بطرق.

منها: تواتر أخباره وكيف كان، من حين ولد، إلى أن مات كما هي مستفيضة مشهورة متواترة، يعلمها من له خبرة بذلك، أعظم مما يعلم به حال موسى وعيسى، فإن محمداً ظهر ﷺ أمره، وانتشرت أخباره، وتواترت أحواله، أعظم من جميع بني آدم، فما بقي ما دون هذا من أحواله يخفى على الناس، فكيف مثل هذا؟!

ومنها: أنه قد أخبر في القرآن بما لا يوجد عند أهل الكتاب، مثل قصة هود، وصالح، وشعيب، وبعض التفاصيل في قصة إبراهيم وموسى وعيسى، مثل تكليم المسيح في المهد. ومثل نزول المائدة، **فإن هذا لا يعرفه أهل الكتاب**، ومثل إيمان امرأة فرعون وغير ذلك، فيمتنع أن يقال: إن هذا تعلمه من أهل الكتاب، وقومه لم يكونوا يعلمون ذلك، بل قد رأوا، هم وغيرهم آثار المنذرين الذين عاقبهم الله لما كذبوا الرسل، كقوم عاد وثمود وغيرهم.

فسيتدل الناس بالآثار الموجودة على صدق الرسل، وعقوبة الله لمن يكذبهم.

ويستدل قومه وغيرهم على صدقه فيما أخبر به من هذه الأمور، التي لم يتعلمها من أهل الكتاب بتصديق أهل الكتاب له فيما وافقهم فيه، مع علمهم

أنه لم يتعلم ذلك منهم، ويكون هذا مما يدل على أنه لم يتعلم ذلك من أهل الكتاب كما قد يظنه بعضهم، وذلك من الوجهين كما تقدم.

ومنها: أن أكثر قومه كانوا من أعظم الناس عداوة له، وحرصًا على تكذيبه والطعن فيه، وبحثًا عما به يقدحون فيه.

فلو كان قد تعلم هذه الأخبار من بشر، لكانوا يعلمون ذلك ويقدحون به فيه ويظهرونه، ولكان هذا مما يظهر مما ظهر غيره.

فلما لم يقع ذلك دل على أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك ولم يتمكنوا من القدح به فيه، مع علمهم بحاله، ورغبتهم في القدح فيه. ومع كمال الداعي والقدرة، يجب وجود المقدور.

فلما كان داعيهم تامًا، ولم يقدحوا، علم أن ذلك لعجزهم.

وعجزُهم عن القدح مع علمهم بحاله. دليل على أنهم علموا أنه لم يتعلمه من بشر.

ومنها: أن يقال: مثل هذا لو وقع، لكان من أعظم ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ويشيع، بل كان المتبعون له المؤمنون به، إذا اطّلعوا على ذلك فلابد أن يشيعوه ويعلنوه، فكيف المخالفون له المكذبون له؟! فإن القوم المتفرقين الذين لم يتواطئوا، كما لا يجتمعون على تعمد الكذب، فلا يجتمعون على كتمان مثل ذلك، بل يجتهد الملوك والرؤساء في إخفاء ما يبطنونه من أمر ملكهم الذي بنوه عليه، ويحلفون أولياءهم على كتمان ذلك، ويبذلون لهم الرغبة والرهبة في ذلك، ثم يظهر ذلك، كما فعل القرامطة الباطنية من أهل البحرين وبين عبيد الله بن ميمون القداح، وكما عرف الناس أن النصيرية لهم خطاب يسرونه إلى أوليائهم وإن لم يعلم أكثر الناس ما ذلك الخطاب الذي يسرونه.



ولا سيما والذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوه -أولاً- من المهاجرين، كانوا مؤمنين به باطنًا وظاهرًا، هجروا لأجله الأوطان والأهل والمال، وصبروا على أنواع المكاره والأذى.

فطائفة كبيرة ذهبت إلى الحبشة مهاجرة بدينها عذبها المخالفون له، حتى يرجعوا عن دينه.

وطائفة كانوا بمكة يعذبون، هذا يقتل، وهذا يخرج به إلى بطحاء مكة في الحر، وتوضع الصخرة على بطنه حتى يكفر فلا يكفر، وهذا يمنع رزقه ويترك جائعًا عريانًا.

ثم أنهم هجروا أحب البلاد إليهم وأفضلها عندهم مكة أم القرى، إلى مدينة كانوا فيها محتاجين إلى أهلها، وتركوا أموالهم بمكة قال تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] وقال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠] وقال تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال: ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١] وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعًا واختيارًا، قبل أن يؤمر أحدٌ بقتال، بل كان لا يكره أحدًا على الدين كما قال تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وكانوا خلقًا كثيرًا، ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصًا، قد جاء بدين لا يوافقه عليه في زمانه أحد، وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، ويفارقوا دين آبائهم، ويصبروا على عداوة

الناس لهم وأذاهم، وهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه، ولا كان له مال يعطيهم إياه، ولا ولَّى أحدًا ولاية، ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياه، ولا أكره أحدًا ولا بقرصة فى جلده، فضلاً عن سوط أو عصا، أو سيف وهو -مع ذلك- يقول عما يخبرهم به من الغيب «الله أخبرنى به، لم يخبرنى بذلك بشر».

فلو كانوا -مع ذلك- يعلمون أنه تعلمه من بشر، لكان هذا مما يقوله بعضهم لبعض.

وتمتنع فى جِبِلّة بنى آدم وفِطَرِهم أن يعلموا أنه كاذب وأنه قد تعلم هذا من بشر، وليس فيهم من يخبر بذلك، مع أنهم كانوا كثيرين، لا يمكن تواطؤهم على الكذب والكتمان، بل ولا داعِيَ لهم، يدعوهم إلى ذلك.

ويمتنع أن لا يعلموا ذلك، وهم بطانته المطلعون على أحواله، وهم يسمعون كلام أعدائه المطلعين على حاله.

والقرآن كان ينزل شيئًا فشيئًا، لم ينزل جملة، بل كانوا يسألونه عن الشىء بعد الشىء من الغيب، بين الذين آمنوا به وباطنوه واطلعوا على أسراره، وهو لا يعلم شيئًا من ذلك، ثم يخبرهم، وهم مطلعون على أمره، خبرًا بعد خبر، وسؤالاً بعد سؤال، وهذا كان بمكة، وليس بها أحد من علماء أهل الكتاب. لا اليهود ولا النصارى، ثم هاجر إلى المدينة وبها خلق كثير من يهود بنى قينقاع وقُرَيظة والنضير، ولعلهم كانوا بقدر نصف أهلها أو أقل أو أكثر، وهم أيضًا يسألونه عن الغيوب التى لا يعلمها إلا نبى فيخبرهم بها ويتلو عليهم ما سأله عنه المشركون من الغيب، وما أخبرهم به، ويتلو عليهم هذا الغيب الذى أوحاه الله إليه، ويبين أن الله أعلمه ذلك، لم يعلمه إياه بشر، فآمن به طائفة من أهل الكتاب، وكفرت به طائفة أخرى، والطائفتان



ليس فيه من يقول: إن هـذا تعلمه منا، أو من إخواننا، أو نظرائنا، ولا إنك قرأته في كـتبنا، مع أنه لو كـان قد تعلم ذلك مـنهم، لكان شيوخـه منهم، وشيوخهم إذا علموا أنه كاذب تـعلمه منهم، يمتنع أن يصدقوه باطنًا وظاهرًا، بل تصديقهم الكتاب الأول، وعلمهم بكذب من إدعى نزول كتاب ثان، وقد تعلم منهم، يدعوهم إلى أن يبينوا أمره ويظهروا كذبه، ويقولوا للناس: تعلم منا ونحن أخبرناه بذلك.

لاسيما مع ما فعله اليهود من القتل والحصار والجلاء والسبى وغير ذلك.

وهذا لو وقع لكان من أعظم مـا تتوفر الهـمم والدواعى على نقله، ينقله الموافق والمخالف.

فلمـا لم ينقـل ذلك أحـد، ولم ينقله أحـد مع مـا أظهـره من الأخـبـار المسـتفيـضة المـتواترة التى علمـها الخـاص والعام، بأن هذا مما أنبـأنى الله لم يخبرنى به بشـر كان هذا دليلاً قاطعًـا بينًا فى أن هذه الأخبار الغيـبية التى لا يعلمها إلا نبى أعلمـه الله بها أو من تعلمها من نبى أعلمـها الله بها، هى مما أنبـأه الله به ولـم يعلمـه ذلك بشر، وهذا من الغـيب الذى قـال الله فيـه فى السورة التى ذكر فيها استـماع الجن للقرآن وإنذار قومهم به حيث قال: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ١] إلى قوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا

توعدون أم يجعل له ربي أمدا (٢٥) عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا (٢٦) إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا (٢٧) ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ [الجن: ١٩ : ٢٨].

فقوله: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا﴾ [الجن: ٢٦] يبين أنه غيب يضاف إليه ويختص به، لا يعلمه أحد إلا من جهته، بخلاف ما يغيب عن بعض الناس ويعلمه بعضهم، فإن هذا قد يتعلمه بعضهم من بعض قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا (٢٦) إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا (٢٧) ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

فهذه أنباء الغيب التى أوحاها إليه هى من الغيب الذى لا يظهر الله عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً يرصدون من يأتيه من إنس وجنى، فيدفعونه، ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ [الجن: ٢٨].

فمما سأله أهل الكتاب فى المدينة مسائل: وهى غير المسائل التى كان يُسأل عنها وهو بمكة، كما كان مشركو قريش يرسلون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فيرسل اليهود إليهم بمسائل يمتحنون بها نبوته، وذلك مثل ما فى صحيح البخارى عن أنس قال: «جاء عبد الله بن سلام إلى رسول الله ﷺ مقدمه المدينة فقال: إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى، ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة، والولد ينزع إلى أمه تارة وإلى أبيه تارة قال: قال: «أخبرنى جبريل آنفًا» قال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة «أما أول أشراط الساعة: فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت. وأما الولد، فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة، نزع



الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إل أمه» فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله» قال: يا رسول الله: إن اليهـود قوم بهت فإن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم عنى بهتونى عندك.

فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«أى رجل عبد الله فيكم؟»** قالوا: خيـرنا وابن خيرنا، وسـيدنا وابن سيـدنا، وعالمنا وابن عـالمنا قال: **«أرأيتم إن أسلم عبد الله؟»** قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج إليهم عبد الله فقال: **أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.**

فقالوا: «شرّنا وابن شرّنا» وتنقّصوه. قال: فهذا ما كنت أخاف وأحذره.

وروى مسلم فى صحيحـه عن ثوبان قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود. فقال: السـلام عليك يا محمد، فدفعتُهُ دفعةً كاد يُصرع منها، فقال: لم تدفعنى؟ قال: قلت ألا تقول، يا رسول الله؟ قال: إنما سميته باسمه الذى سماه به أهله.

فقال رسول الله ﷺ: إن اسمى الذى سمانى به أهلى محمد ﷺ.

فـقال اليـهود: جـئت أسألـك، فقـال رسول الله ﷺ **«ينفـعك شىء إن حدثتك»** قال: أسمع بأذنى فنكت بعود معـه. فقال له: سل: فقال اليهودى: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ **«فى الظلمة دون الجسر»** قال: فمن أول الـناس إجازة؟ قال: **«فقراء المهـاجرين»**. فقال اليهودى: فمـا تحفتهم حين يدخلون؟ قال: **«زيادة كبد نون»**. قال: وما غذاؤهم علـى أثره؟ قال: **«ينحـر لهم ثور الجنة الذى كـان يأكل من أطرافهـا»**. قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **«من عين فيها تسمى سلسبيلاً»**.

قـال: صدقـت قال: وجـئت أسـألك عن شىء لا يعلمـه أحـد من أهل الأرض إلا نبى أو رجلٌ أو رجلان. قال: **«ينفعك إن حدثتك»**. قال: أسمع بأذنى قال: جئت أسألك عن الولد. قال: **«ماء الرجل أبيض ومـا المرأة أصفر،**

فـإذا اجتـمعـا، فعـلا منى الرجل منى المرأة ذكـراً بإذن الله، وإذا عـلا منى المرأة منى الرجل أنثى بإذن الله» فقال اليهودى: صدقت وإنك لنبى، ثم انصرف.

فقال النبى ﷺ «إنه سألنى هذا الذى سألنى عنه وما أعلم شيئًا حتى أتانى به الله تعالى». ورواه عبد بن حميد فى تفسيره عن أحمد بن يونس، عن عبد الحميد به.

وروى أبو داود الطيالسى حدثنا عبد الحمـيد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: حضرت عصـابة من اليهود يومًا إلى النبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله، حدثنا عن خلال نسألك عنهـا لا يعلمها إلا نبى. فقال: «سلونى عمـا شئـتم، ولكن اجعلوا إلى ذمـة الله وما أخـذ يعقوب على بـنيه، إن أنا حدثتكم بشىء تعرفونه صدقًا لتتابعونى على الإسلام». قالوا: لك ذلك قال: «فسلونى عما شـئتم» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال، أخـبرنا عن الطعام الذى حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. وأخبرنا عن ماء الرجل كيف يكون الذكر منه حتى يكون ذكراً وكيف يكون الأنثى حتى يكون أنثى. وأخبرنا كيف هذا النبى الأمى فى التوراة، ومن وليه من الملائكة؟ قـال: «فعليكم عهد الله وميثـاقه، لئن أنا حدثتكم لتتابعـونى». فأعطوه ما شاء من عهد ومـيثاق. قـال: «أنشدكم بـالذى أنزل التوراة علـى موسى، هل تعلـمون أن إسـرائيل يعقوب مـرض مرضًا شديدًا طال سـقمه فيه، فنذر لله نـذرًا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الشراب إليه ألبان الإبل وأحب الطعام إليه لحوم الإبل». قالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد عليهم». قال: فأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض وأن ماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان الولد والشبه له بإذن الله». وقالوا: اللهم. نعم. قال: «اللهم اشهد».. «أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو وأنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبى يـنام عيناه ولا ينام قلبه».. قـالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم أشهد». قالوا: أنت الآن حـدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك



أو نفارقك قـال: وليي جبريل عليـه السلام، ولم يبعث الله نبـيًا قط إلا وهو وليه» قـالوا: فعندها نفارقك، . لو كـان غيره لاتبـعناك وصدقناك قال: «فـما يمنعكم أن تصـدقوا به؟» قالوا: إنـه عدونا من الملائكة، فـأنزل الله عز وجل ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [البقرة: ٩٧] إلى قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨].

ففى هذه الحديث أن علماء اليهود كعبد الله بن سلام وغيره، كانوا يسألونه عن مسائل يقولون فيها. لا يعلمها إلا نبى، أى ومن تعلمها من الأنبياء، فإن السـائلين كانوا يعلمـونهـا، كمـا جاء أيضًـا «لا يعلمهـا إلا نبى أو رجل أو رجلان» وكانوا يمتحنونه بهذه المسائل ليتبين: هل يعلمها؟ **وإذا كان يعلم ما لا يعلمه إلا نبى كان نبيًا.**

ومعلوم أن مقصودهم بذلك إنما يتم إذا علموا أنه لم يتعلم هذه المسائل من أهل الكتاب ومن تعلم منها. وإلا فمعـلوم أن هذه المسائل كان تعلمها بعض الناس، ولكن تعلمها هؤلاء من الأنبياء.

وهذا يبين أن هؤلاء السـائلين له من أهل الكتاب، كانوا يعلمـون أن أحدًا من البشر لم يُعَلِّمَهُ مـا عند أهل الكتاب من العلم، إذ لو جوزوا ذلك عليه، لم يحصـل مقصـودهم من امتـحانه هل هو نبى أو لا؟ فـإنهم إذا جوزوا أن يكون تعلم ما لا يعلمه إلا نبى من أهل الكتـاب، كان من جنسهم، فلم يكن علمهم بها وأحاديثهم عنها دليلاً على نبوته.

فلا بد أن يكون هؤلاء السائلون يقطعون بأنه لم يتعلم من أهل الكتاب.

وهذا كان بالمدينة بعد أن أقـام بمكة بضع عشر سنة. وانتشـر أمره، وكذبه قومه، وحرصوا على إبطال دعوته بكل طريق يقدرون عليه.

فلو كان بمكة أو بالمدينة أحد من أهل الكتاب، يتـعلم معه، أو لقى أحدًا من

أهل الكتاب فى طريق فتعلم منه، لكان ذلك يقدح فى مقصود هؤلاء السائلين.

فتبين أنه كان معلومًا عند أهل الكتاب أنه لم يتعلم شيئًا من الغيب من بشر لا سيما ولو كان قد تعلمه من أهل الكتاب وقد كذبهم وحاربهم لأظهروا ذلك، ولشاع فى أهل الكتاب، وكان إذا أجابهم قالوا: هذا تعلمته من فلان وفلان منا، أو هذا علمكه بعض أهل ديننا.

وهذا كما كانوا يرسلون إلى قومه من قريش ليسألوه عن مسائل ويقولون: إن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، وإلا فهو متقول، ويقولون: سلوه عن مسائل لا يعلمها إلا نبى.

فهذا من أهل المدينة، ومن قريش قومه، يبين أن قومه المشركين وأهل الكتاب كانوا متفقين على أنه لم يتعلم شيئًا من ذلك من البشر، إذ لو جوزوا ذلك لم يحصل مقصودهم بذلك، ولم يجز أن يقولوا: لا يعلمها إلا نبى، فإنهم كانوا جميعًا يعلمون أن من أهل الكتاب من تعلم هذه المسائل، وبذلك يعرف هل يجيب فيها بما قالته الأنبياء أو بخلاف ذلك؟ ويعلمون أن من كان يعلمها من أهل الكتاب، ومن تعلم منهم، لا يدل جوابه عنها على نبوته ﷺ، كما لو أجاب عن تلك المسائل بعض أهل الكتاب، وكما لو سأل فى أهل زماننا بعض الناس لبعض المسلمين عن تلك المسائل أو غيرها من أنباء الغيب، التى لا يعلمها إلا نبى، فإن ذلك لا يدل على نبوته، لأنه قد تعلم ذلك من الأنبياء، فدلّ على أن مرادهم بقولهم: لا يعلمها إلا نبى، أى لا يعلمها ابتداء بدون تعليم بشر إلا نبى، ويدل على أن المشركين وأهل الكتاب، كانوا جميعًا متفقين على أنه لم يتعلم من بشر، مع انتشار أخباره. ومع اطلاع قومه على أسراره، ومع ظهور ذلك، لو وجد، ومع أنهم لو جوزوا تجويزًا أن يكون قد تعلمها من بشر فى الباطن. لم يجز أن يستدل بها على نبوته، فدل على أنهم كانوا قاطعين بأنه لم يتعلم ذلك من بشر، لا فى الباطن، ولا فى الظاهر، وهذا طريق بيّن، يدل أنه لم يتعلم ذلك من بشر، سوى الطرق المذكورة هنا.

محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، لا نبي بعده

ولما كان محمد ﷺ رسولاً إلى جميع الثقلين جنهم وإنسهم، عربهم وعجمهم، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده -كان من نعمة الله على عباده، ومن تمام حجته على خلقه، أن تكون آيات نبوته، وبراهين رسالته معلومة لكل الخلق، الذين بُعث إليهم، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء.

وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية، ما يبين به أن القرآن حق كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٢، ٥٣] أخبر سبحانه أنه سيُرِى العباد الآيات فى أنفسهم، وفى الآفاق، حتى يتبين لهم أن القرآن حق، فإن الضمير عائد إليه، إذ هو الذى تقدم ذكره كما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ والضمير فى «كان» عائد إلى معلوم.

يقول: أرأيتم إن كان القرآن من عند الله، ثم كفرتم به، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد.

فإنه على هذا التقدير، يكون الكافر فى شقاق بعيد، قد شاق الله ورسوله ﷺ، ولا أحد أضل ممن هو فى مثل هذا الشقاق، حيث كان فى شق، والله ورسوله ﷺ فى شق، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا

بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧] بين أن من تولى عن ذلك، لم يكن متبعًا للحق قاصدًا لـه، فإن هذا الذى قلتموه لا يتولى عنه من أهل الكتاب، مَنْ قَصْدُه الحق، وإنما يتولى عنه من قصده المُشاقَّة والمعاداة، لَهَوى نفسه، وهذا يكفيك الله أمره.

والقرآن إن كان من عند الله، ثم كفر به من كفر، فلا أحد أضل ممن هو فى مثل حاله إذ هو فى شقاق بعيد.

وإن قدر أنه لم يعلم أنه حق، فهو ضال.

والشقاق قد يكون مع العناد، وقد يكون مع الجهل.

فإن الآيات إذا ظهرت، فأعرض عن النظر الموجب للعلم، كان مشاقًا. ولهذا قال عقيب ذلك ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ فأخبر أنه سيرى عباده من الآيات الأفقية والنفسية، ما يبين أنه حق، ثم قال: ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ فإن شهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾ [الرعد: ٤٣] وشهادته للقرآن ولمحمد ﷺ، تكون بأقواله التى أنزلها قبل ذلك على أنبيائه كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٤٠] وتكون بأقواله التى أنزلها على محمد ﷺ، فإن القرآن نفسه، آية بينة، ومعجزة قاهرة.

وتكون بأفعاله، وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون.

والقرآن نفسه هو قول الله، وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول، وإنزاله على محمد ﷺ، **وإتيان محمد به ﷺ هو آية وبرهان، وذلك من فعل الله، إذ**



كان البشر لا يقدرون على مثله، ولا يقدر عليه أحد من الأنبياء، ولا الأولياء ولا السحرة ولا غيرهم، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] ومحمد ﷺ أخبر بهذا فى أول أمره إذ كانت هذه الآية فى سورة «سبحان» وهى مكية، صَدَّرها بذكر الإسراء الذى كان بمكة باتفاق الناس.

وقد أخبر خبرًا وأكده بالقسم عن جميع الثقلين، إنسهم وجنهم، أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثلة، بل يعجزون عن ذلك، وهذا فيه آيات لنبوته.

ومنها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة، بأنهم لا يفعلون هذا، بل يعجزون عنه.

وهذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك، إذ لو كان عنده شك فى ذلك لجاز أن يظهر كذبه فى هذا الخبر، فيفسد عليه ما قصده، وهذا يقدم عليه عاقل، مع اتفاق الأمم، المؤمن بمحمد ﷺ والكافر به، على كمال عقله ومعرفته وخبرته إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها ثم جعله هذا فى القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة، الذى يقرأ به فى الصلوات، وسمعه العام والخاص، والولى والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر، وإلا كان شاكًا فى ذلك، لخاف أن يظهر كذبه عند خلق كثير، بل عند أكثر من اتبعه ومن عاداه، وهذا لا يفعله من يقصد أن يصدقه الناس، فمن يصدقه الناس، لا يقول مثل هذا ويظهره هذا الإظهار، ويشيعه هذه الإشاعة، قصد أن يخلده هذا التخليد، إلا وهو جازم عند نفسه بصدقه.

ولا يتصور أن بشرًا يجزم الخبر إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق، إذ علم العالم بعجز جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة، هو من أعظم دلائل كونه معجزًا وكونه آية على نبوته، فهذا من دلائل نبوته فى أول الأمر عند من سمع هذا الكلام وعلم أنه من القرآن الذى أمر ببلاغه إلى جميع الخلق وهو -وحده- كاف فى العلم بأن القرآن معجز.

دع ما سوى ذلك من الدلائل الكثيرة على أنه معجز، مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته.

وعدم الفعل مع كمال الداعى يستلزم عدم القدرة.

فلما كان دواعى العرب وغيرهم على المعارضة، تامة وانتفت المعارضة علم عجز جميع الأمم عن معارضته، وهذا برهان بين يعلم به صدق هذا الخبر، وصدق هذا الخبر آية لنبوته، غير العلم بأن القرآن معجز، فذلك آية مستقلة لنبوته وهى آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر، معلومة لكل أحد، وهى من أعظم الآيات فإن كونه معجزًا يعلم بأدلة متعددة، والإعجاز فيه من وجوه متعددة، فتنوعت دلائل إعجازه وتنوعت وجوه إعجازه وكل وجه من الوجوه، فهو دليل إعجازه وهذه جمل لبسطها تفصيل طويل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] فهو كاف فى الدعوة والبيان وهو كاف فى الحجج والبرهان.

فى إظهار معجزات النبى ﷺ

والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد ﷺ كثيرة متنوعة، وهى أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء ويسميها من يسميها من النظار معجزات، وتسمى دلائل النبوة، وأعلام النبوة، ونحو ذلك.



وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ولهذا لم يكن لفظ «المعجزات» موجوداً فى الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ «الآية» و«البينة» و«البرهان» كما قال تعالى فى قصة موسى ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢] فى العصا واليد، وقال الله تعالى فى حق محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤] قال فى مطالبة أهل الدعاوى الكاذبة بالبرهان: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] وقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤، ٧٥].

وأما لفظ «الآيات» فكثيراً فى القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٣، ١٢٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢] وقول فرعون له: ﴿فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، وقال قوم

صالح: ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء: ١٥٤، ١٥٥]، وقال: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ [الأعراف: ٧٣] وقال المسيح: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وقال في حق محمد ﷺ: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام: ٤، ٥]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وقال: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر: ١، ٢]، وقال: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] وقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٣] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ [يونس: ١٥] وقال



تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وقال لما ذكر قصص الأنبياء فى سورة الشعراء، قال فى آخر كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩، ١٤٠] وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] إلى أن قال فى آخرها: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] إلى قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وأما لفظ المعجز، فإنما يدل على أنه أعجز غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] وقال: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

ومن لا يثبت فعلاً إلا لله، يقول: المعجز هو الله، وإنما سمى غيره معجزًا مجازًا.

وهذا اللفظ لا يدل على كون ذلك آية ودليلاً إذا فسر المراد به، وذكر شرائطه، ولهذا كان كثير من أهل الكلام لا يسمى معجزًا إلا ما كان للأنبياء فقط، وما كان للأولياء إن أثبت لهم خرق عادة سماها كرامة.

والسلف -كأحمد وغيره- كانوا يسمون هذا وهذا معجزًا، ويقولون لخوارق الأولياء: إنها معجزات، إذا لم يكن فى اللفظ ما يقتضى اختصاص الأنبياء بذلك.

بخلاف ما كان آية وبرهانًا على نبوة النبى، فإن هذا يجب اختصاصه.

وقد يسمـون الكرامات آيات، لكنها تدل على نبوة من اتهـمه الولي، فإن الدليل مستلزم للمدلول، يمتنع ثبـوته بدون ثبوت المدلول، فكذلك ما كان آية وبرهانًا وهو الدليل والعلم على نبوة النبى يمتنع أن يكون لغير النبى.

وقد يقال: إنهم سموها معجزات لأن كرامات الأولياء دليل على نبوة النبى الذى اتبعوه، ولهذا سموها آيات أيضًا، أو لأنها تعجز غيرهم، وهى آية علي صحة طريقهم، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا أن دلائل نبوة محمد ﷺ كثـيرة متنوعة، كما قد تكلمنا على ذلك فى غـير هذا الكتـاب، وبينا أن من يخـصص دلائل النبـوة بنوع فقـد غلط، بل هى أنواع كثيرة، لكن الآيات نوعان.

منها: ما هو باق إلى اليوم، كالقران الذى هو من أعـلام نبوة محمد ﷺ، وكالعلم والإيمان اللذين فى أتباعه، فإنه من أعـلام نبوته، وكشريعته التى أتى بها، فإنهـا أيضًا من أعلام نبوته، وكالآيات التى يظهرها الله وقـتًا بعد وقت من كرامات الصالحين من أُمته ووقع مـا أخبر بوقوعه، كقوله «**لا تقوم الساعة حتى تقـاتلوا الترك**» وقوله: «لا تقـوم الساعة حتى تخرج نـار بأرض الحجاز تضئ لها أعناق الإبل ببصرى».

وقد خرجت هذه النار سنة خمس وخمسين وستمائة، وشاهد الناس أعناق الإبل فى ضوء النار ببصرى.

وظهـور دينه وملتـه بالحـجة والبـرهان، واليـد والسنان، ومـثل المثـلات والعقوبات التى تحيق بأعدائه، وغير ذلك، وكنعته الموجـود فى كتب الأنبياء قبله، وغير ذلك.



في معجزات القرآن

القرآن كلام الله، وفيه الدعوة والحجة، فلـه به اختصاص على غيره، كما ثبت عنه في الصحيح أنه قال ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

والقرآن يظهر كونه آية وبرهانًا له، من وجوه، جملة وتفصيلاً.

أما الجملة، فإنه قد علمت الخاصة والعامة من عامة الأمم، علمًا متواترًا أنه هو الذي أتى بهذا القران، وتواترت بذلك الأخبار، أعظم من تواترها بخبر كل أحد من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم.

والقرآن نفسه، فيه تحدى الأمم بالمعارضة، والمتحدى هو أن يحدوهم، (أي يدعوهم ويبعثهم) إلى أن يعارضوه.

فيقال فيه: حداني على هذا الأمر (أي بعثني عليه) ومنه سمي حادي العيس، لأنه بحداه يبعثها على السير.

وقد يريد بعض الناس بالتحدى دعوى النبوة، ولكن أصله الأول، قال تعالى في سورة الطور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤] فهنا قال «فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» في أنه تقوله فإنه إذا كان محمد ﷺ قادرًا على أن يتقوله كما يقدر الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر، كان هذا ممكنًا للناس، الذين هم من جنسه فأمكن الناس أن يأتوا بمثله.

ثم إنه تحداهم بعشر سور مثله فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ

﴿الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٨]. ثم تحداهم بسورة واحدة منه فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨]. فطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، هم وكل من استطاعوا من دون الله، ثم تحداهم بسورة واحدة، وهم ومن استطاعوا قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ كما قال: ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]. أى هو يعلم أنه منزل، لا يعلم أنه مفترى كما قال: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]. أى ما كان لأن يفتري، يقول: ما كان ليفعل هذا، فلم ينف مجرد فعله، بل نفى احتمال فعله، وأخبر بأن مثل هذا لا يقع بل يمتنع وقوعه، فيكون المعنى: ما يمكن، ولا يحتمل، ولا يجوز أن يفترى هذا القرآن من دون الله، فإن الذى يفتريه من دون الله مخلوق، والمخلوق لا يقدر على ذلك، وهذا التحدى كان بمكة، فإن هذه السورة مكية، سورة يونس، وهود، والطور.

ثم أعاد التحدي في المدينة بعد الهجرة، فقال فى «البقرة» وهى سورة مدنية ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]. فذكر أمرين.



أحدهما: قوله ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا ولَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ يقول: إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق، فخافوا الله أن تكذبوه، فيحيق بكم العذاب الذي وعد به المكذبين، هذا دعاء إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة بعد أن دعاهم بالحكمة، وهو جدالهم بالتي هي أحسن.

والثاني: قوله ﴿ولَن تَفْعَلُوا﴾ و«لن» لنفى المستقبل، فثبت للخبر أنهم فيما يستقبل من الزمان، لا يأتون بسورة من مثله، كما أخبر قبل ذلك وأمره أن يقول فى سورة «سبحان» وهى سورة مكية افتتحها بذكر الإسراء، وهو كان بمكة بنص القرآن والخبر المتواتر، وذكر فيها من مخاطبته للكفار بمكة، ما يبين ذلك بقوله (قل لئن اجتمعت الإنسُ والجن على أن يأتون بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فعم بأمره له أن يخبر بالخبر جميع الخلق معجزاً لهم، قاطعًا بأنهم إذا اجتمعوا كلهم، لا يأتون بمثل هذا القرآن، ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدى والدعاء، هو لجميع الخلق، وهذا قد سمعه كل من سمع القرآن، وعرفه الخاص والعام، وعلم مع ذلك أنهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله، ومن حين بعث، وإلى اليوم، الأمر على ذلك، مع ما علم من أن الخلق كلهم كانوا كفاراً قبل أن يُبعث، ولما بعث إنما تبعه قليل.

وكان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله، مجتهدين بكل طريق يمكن.

تارة يذهبون إلى أهل الكتاب فيسئلونهم عن أمور من الغيب، حتى يسألوه عنها، كما سألوه عن قصة يوسف، وأهل الكهف، وذى القرنين كما تقدم.

وتارة يجتمعون فى مجمع بعد مجمع على ما يقولونه فيه، وصاروا يضربون له الأمثال، فيشبهونه بمن ليس بمثله لمجرد شبه ما، مع ظهور الفرق.

فتارة يقولون: مجنون، وتارة، يقـولون: ساحر، وتارة، يقولون: كاهن، وتارة يقولون: شـاعر. إلى أمثال ذلك من الأقـوال، التى يعلمون، هم وكل عاقل سمعها أنها افتراء عليه.

فإذا كان قد تحداهم بالمعارضة، مـرة بعد مرة، وهى تبطل دعوته، فمعلوم أنهم لو كانوا قادريـن عليها، لفعلوها، مع وجود هـذا الداعى التام المؤكد - إذا كانت القدرة حاصلة، وجب وجود المقدور، ثم هكذا القول فى سائر أهل الأرض.

فهذا القدر، يوجب علمًا بينًا لكل أحد يعجز عن جميع أهل الأرض، عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، بحيلة وبغير حيلة.

وهذا أبلغ من الآيات التى يـكرر جنسهـا كـإحيـاء الموتى، فإن هذا لم يأت أحد بنظيره، وكون القـرآن أنه معجزة، ليس هو من جهة فصاحـته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبـه فقط، ولا من جهة إخبـاره بالغيب فقط، ولا من جهة صـرف الدواعى عن معارضـته فقط، ولا من جهـة سلب قدرتهم عن معارضته فقط.

بل هو آية بينة معجزة من وجـوه متعددة، من جهة اللفظ ومـن جهة النظم، ومن جهة البلاغة فى دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التى أمر بها، ومعانيه التى أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته، وغير ذلك.

ومن جهة معانيه التى أخبر بها عن الغيب الماضى. وعن الغيب المستقبل،

ومن جهة ما أخبر به عن المعاد ومن جهـة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية، التى هى الأمـثال المضروبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ



﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

وكل ما ذكره الناس من الوجوه فى إعجاز القران، هو حجة على إعجازه، ولا يناقض ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له.

ومن أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعى مع قيام الموجب لها، أو بسلب القدرة الجازمة، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام. أو سلبهم القدرة المعتادة فى مثلة سلبًا عامًا، مثل قوله تعالى لزكريا: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله، فامتناعهم -جميعهم- عن هذه المعارضة مع قيام الدواعى العظيمة المعارضة- من بلغ الآيات الخارقة للعادات، بمنزلة من يقول: إنى آخذ أموال جميع أهل البلد العظيم، وأضربهم جميعهم، وأجوعهم، وهم قادرون على أن يشكوا إلى الله، أو إلى ولى الأمر، وليس فيهم -مع ذلك- من يشتكى فهذا أبلغ من العجائب الخارقة للعادة.

ولو قدر أن واحداً صنف كتابًا، يقدر أمثاله على تصنيف مثله، أو قال شعرًا، يقدر أن يقولوا مثله، وتحداهم كلهم، فقال: عارضونى، وإن لم تعارضونى فأنتم كفار، مأواكم النار، ودماؤكم لى حلال، امتنع فى العادة أن لا يعارضه أحد.

فإذا لم يعارضون، كان هذا من العجائب الخارقة للعادة.

والذى جاء بالقرآن، قال للخلق كلهم: أنا رسول الله إليكم جميعًا، ومن آمن بى، دخل الجنة، ومن لم يؤمن بى دخل النار، وقد أبيح لى قتل رجالهم

وسبى ذراريهم، وغنيمة أموالهم، ووجب عليهم -كلهم- طاعتى، ومن لم يطعنى، كان من أشقى الخلق، ومن آياتى هذا القرآن، فإنه لا يقدر أحد على أن يأتى بمثله وأنا أخبركم أن أحدًا لا يأتى بمثله.

فيقال: لا يخلو إما أن يكون الناس قادرين على المعارضة أو عاجزين.

فإن كانوا قادرين، ولم يعارضوه، بل صرف الله دواعى قلوبهم، ومنعها أن تريد معارضته مع هذا التحدى العظيم، أو سلبهم القدرة التى كانت فيهم قبل تحديه، فإن سلب القدرة المعتادة أن يقول رجل: معجزتى أنكم كلكم، لا يقدر أحد منكم على الكلام ولا على الأكل والشرب، فإن المنع من المعتاد، كإحداث غير المعتاد. فهذا من أبلغ الخوارق.

وإن كانوا عاجزين، ثبت أنه خارق للعادة، فثبت كونه خارقًا للعادة على تقدير النقيضين، للنفى والإثبات، فثبت أنه من العجائب الناقصة للعادة فى نفس الأمر.

فهذا غاية التنزيل، وإلا فالصواب المقطوع به، أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد ﷺ نفسه، من تلقاء نفسه، على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القرآن وبين سائر كلامه، لكل من له أدنى تدبر، كما قد أخبر فى قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وأيضًا فالناس يجدون دواعيهم إلى المعارضة حاصلة، لكنهم يحسون من أنفسهم العجز عن المعارضة، ولو كانوا قادرين لعارضوه.

وقد انتدب غير واحد لمعارضته، لكن جاء بكلام فضح به نفسه: وظهر به تحقيق ما أخبر به القرآن من عجز الخلق عن الإتيان بمثله، مثل قرآن مسيلمة



الكذاب، كقوله «يا ضفدع بنت ضفدعين، نِقِّي كم تَنقِّينَ، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك فى الماء، وذنبك فى الطين».

وكذلك أيضًا يعرفون أنه لم يختلف حال قدرتهم قبل سماعه وبعد سماعه، فلا يجدون أنفسهم عاجزين عما كانوا قادرين عليه، كما وجد زكريا عجزه عن الكلام بعد قدرته عليه.

وأيضًا فلا نزاع بين العقلاء المؤمنين بمحمد ﷺ والمكذبين له، أنه كان قصده أن يصدقه الناس لا يكذبوه. وكان -مع ذلك- من أعقل الناس وأخبرهم وأعرفهم بما جاء به، ينال مقصوده، سواء قيل: إنه صادق أو كاذب فإنه من دعى الناس إلى مثل هذا الأمر العظيم، ولم يزل حتى استجابوا له طوعًا وكرها، وظهرت دعوته وانتشرت ملته هذا الانتشار، هو من عظماء الرجال على أى حال كان، فإقدامه -مع هذا القصد- فى أول الأمر وهو بمكة وأتباعه قليل على أن يقول خبرًا، يقطع به أنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله، لا فى ذلك العصر، ولا فى سائر الأعصار المتأخرة، لا يكون إلا مع جزمه بذلك، وتيقنه له، وإلا، فمع الشك والظن، لا يقول ذلك من يخاف أن يظهر كذبه فيفتضح، فيرجع الناس عن تصديقه.

وإذا كان جازمًا بذلك، متيقنًا له، لم يكن ذلك إلا عن إعلام الله له بذلك.

وليس فى العلوم المعتادة أن يعلم الإنسان أن جميع الخلق لا يقدرون أن يأتوا بمثل كلامه، إلا إذا علم العالم أنه خارج عن قدرة البشر.

والعلم بهذا يستلزم كونه معجزًا، فإنا نعلم ذلك، وإن لم يكن علمنا بذلك خارقًا للعادة، ولكن يلزم من العلم ثبوت المعلوم، وإلا كان العلم جهلاً، فثبت أنه -على كل تقدير- يستلزم كونه خارقًا للعادة.

ولو قال مفتر: بل أقول الذى أخبر بهذه الغيوب وأتى هذا العجائب، كان جاهلا أخرق، ولا يدرى ما يقول.

وقيل له فهذا أبلغ فى الإعجاز وخرق العادة أن يكون مجنونًا، قد أتى بهذه الغيوب والعجائب التى لا يقدر عليها أحد من العقلاء ولا المجانين.

وأما التفصيل، فيقال: نفس نظم القرآن وأسلوبه، عجيب بديع، ليس من جنس -أساليب الكلام المعروفة، ولم يات أحد بنظير هذا الأسلوب فإنه ليس من جنس- الشعر، ولا الرجز، ولا الرسائل، ولا الخطابة، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس، عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة ليس له نظير فى كلام جميع الخلق وبسط هذا وتفصيله طويل، يعرفه من له نظر وتدبر.

ونفس ما أخبر به القرآن فى باب توحيد الله وأسمائه وصفاته، أمر عجيب خارق للعادة، لم يوجب مثل ذلك فى كلام بشر، لا نبى ولا غير نبى.

وكذلك ما أخبر عن الملائكة، والعرش والكرسى، والجن، وخلق آدم وغير ذلك، ونفس ما أمر به القرآن، من الدين والشرائع كذلك ونفس ما أخبر به من الأمثال، وبينه من الدلائل هو أيضًا كذلك.

ومن تدبر ما صنفه جميع العقلاء فى العلوم الإلهية، والخلقية، والسياسية، وجد بينه وبين ما جاء فى الكتب الإلهية، التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف الأنبياء تفاوتًا عظيمًا، ووجد بين ذلك وبين القرآن التفات أعظم مما بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم.

فالإعجاز فى معناه، أعظم وأكثر من الإعجاز فى لفظه، وجميع عقلاء بنى آدم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه، أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه.

وما فى التوراة والإنجيل، لو قدر أنه مثل القرآن لا يقدح فى المقصود، فإن تلك كتب الله أيضًا، ولا يمتنع أن يأتى نبى بنظير آية نبى كما أتى المسيح بإحياء الموتى. وقد وقع إحياء الموتى على يد غيره، فكيف وليس ما فى التوراة والإنجيل مماثلا لمعانى القرآن، لا فى الحقيقة، ولا فى الكيفية ولا فى الكمية؟! بل يظهر التفاوت لكل من تدبر القرآن، وتدبر الكتب.

وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة، ظهر له إعجازه هذا الوجه.

ومن لم يظهر له ذلك، اكتفى بالأمر الظاهر الذى لا يظهر له ولأمثاله، كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدى النبى وإخباره بعجزهم، فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد.

ودلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية فيها الظاهر البين لكل أحد كالحوادث المشهودة، مثل خلق الحيوان والنبات والسحاب وإنزاله المطر وغير ذلك. وفيما يختص به من عرفه، مثل دقائق التشريح، ومقادير الكواكب وحركاتها وغير ذلك، فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق والإقرار برسله، وما اشتدت الحاجة إليه فى الدين، فإن الله يجود به على عباده جوداً عامًا ميسراً.

فلما كانت حاجتهم إلى النَفَسِ أكثر من حاجتهم إلى الماء، وحاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى الأكل، كان سبحانه قد جاء بالهواء جوداً عامًا فى كل زمان ومكان، لضرورة الحيوان إليه ثم الماء دونه، ولكنه يوجد أكثر مما يوجد القوت وأيسر، لأن الحاجة إليه أشد.

فكذلك دلائل الربوبية، حاجة الخلق إليها فى دينهم أشد الحاجات، ثم دلائل النبوة.

فلهذا يسرها الله وسهلها أكثر مما يحتاج إليه العامة، مثل تماثل الأجسام واختلافها، وبقاء الأعراض أو فنائها، وثبوت الجوهر الفرد أو انتفاؤه، ومثل مسائل المستحاضة وفوات الحج وفساده، ونحو ذلك مما يتكلم فيه بعض العلماء.

سيرة النبى ﷺ

وسيرة الرسول ﷺ من آياته وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعلم أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالح أمته، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولد إلى أن بعث، ومن حين بعث إلى أن مات، وتدبر نسبه وبلده وأصله وفصله، **فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسبًا: من صميم سلالة إبراهيم، الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب فلم يأت نبى من بعد إبراهيم إلا من ذريته، وجعل له ابنين: إسماعيل وإسحاق، وذكر فى التوراة هذا وهذا. وبشر فى التوراة بما يكون من ولد إسماعيل، ولم يكن فى ولد إسماعيل من ظهر فيم بشرت به النبوات غيره** ودعا إبراهيم لذرية إسماعيل بأن يبعث فيهم رسولا منهم، ثم من قريش صفوة بنى إبراهيم، ثم من بنى هاشم صفوة قريش، ومن مكة أم القرى، وبلد البيت الذى بناه إبراهيم، ودعا الناس إلى حجه، ولم يزل محجوجًا من عهد إبراهيم، مذكورًا فى كتب الأنبياء بأحسن وصف.

١- سيرته ﷺ

وكان من أكمل الناس تربية ونشأة، لم يزل معروفًا بالصدق والبر والعدل، ومكارم الأخلاق، وترك الفواحش والظلم، وكل وصف مذموم، مشهودًا له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة، وممن آمن به وكفر بعد النبوة، لا يعرف له شيء يعاب به، لا فى أقواله، ولا فى أفعاله، ولا فى أخلاقه ولا جرت عليه كذبة قط،



ولا ظلم، ولا فاحشة، وكان خَلقُه، وصورته من أكمل الصور وأتمها وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله، وكان أميًا من قوم أميين، لا يعرف، لا هو، ولا هم، ما يعرفه أهل الكتاب، التوراة والإنجيل، ولم يقرأ شيئًا عن علوم الناس، ولا جالس أهلها، ولم يَدَّعِ نبوة إلى أن أكمل الله له أربعين سنة، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره، وأخبرنا بأمر، لم يكن في بلده وقومه، من يُعرف مثله، ولم يعرف قبله ولا بعده، لا في مصر من الأمصار، ولا في عصر من الأعصار، من أتى بمثل ما أتى به، ولا من ظهر كظهوره، ولا من أتى من العجائب الآيات بمثل ما أتى به، ولا دعا إلى شريعة أكمل من شريعته، ولا من ظهر دينه على الأديان كلها بالعلم والحجة وباليد والقوة كظهوره.

ثم إنه اتبعه أتباع الأنبياء، وهم ضعفاء الناس، وكذبه أهل الرياسة وعادوه، وسعوا في هلاكه وهلاك من اتبعه بكل طريق، كما كان الكفار يفعلون بالأنبياء وأتباعهم.

والذين اتبعوه. لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم، ولا جهات يوليهم إياها، ولا كان له سيف، بل كان السيف والمال والجاه مع أعدائه.

وقد آذوا أتباعه بأنواع الأذى، وهم صابرون محتسبون، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الإيمان والمعرفة.

وكانت مكة يحجها العرب من عهد إبراهيم، فتجتمع في الموسم قبائل العرب، فيخرج إليهم يبلغهم الرسالة، ويدعوهم إلى الله صابرًا على ما يلقاه من تكذيب المكذب، وجفاء الجافي وإعراض المعرض إلى أن اجتمع بأهل يثرب، وكانوا جيران اليهود قد سمعوا أخباره منهم، وعرفوه، فلما دعاهم

علموا أنه النبي المنتظر، الذى تخبرهم به اليهود، وكانوا قد سمعوا من أخبار ما عرفوا به مكانته، فإن أمره كان قد انتشر وظهر بضع عشرة سنة، فآمنوا به وتابعوه على هجرته وهجرة أصحابه إلى بلدهم وعلى ياالجهاد معه، فهاجر هو ومن اتبعه إلى المدينة، وبها المهاجرون والأنصار، ليس فيهم من آمن برغبة دنيوية ولا برهبة، إلا قليلا من الأنصار أسلموا فى الظاهر، ثم حسن إسلام بعضهم، ثم أذِن له فى الجهاد، ثم أمِرَ به، ولم يزل قائمًا بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها من الصدق والعدل. والوفاء لا يحفظ له كذبة واحدة، ولا ظلم لأحد، ولا غدر بأحد، بل كان أصدق الناس، وأعدلهم، وأوفاهم بالعهد، مع اختلاف الأحوال عليه، من حرب وسلم وأمْنٍ، وخوف وغنًى، وفقر، وقلة، وكثرة، وظهوره على العدو تارة وظهور العدو عليه تارة، وهو -على ذلك كله- ملازم لأكمل الطرق وأتمها، حتى ظهرت الدعوة فى جميع أرض العرب التى كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهان، وطاعة المخلوق فى الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرةً ولا معادًا، فصاروا أعلم أهل الأرض، وأدينهم، وأعدلهم، وأفضلهم.

حتى إن النصارى لما رأهم -حين قدموا الشام- قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء.

وهذا آثار علمهم وعملهم فى الأرض وآثار غيرهم، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

وهو ﷺ -مع ظهور أمره وطاعة الخلق له وتقديمه له على الأنفس والأموال -مات ﷺ ولم يخلف درهما ولا دينارًا ولا شاة ولا بعيرًا له إلا بغلته وسلاحه، ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقًا[1] من شعير، ابتاعها لأهله.

(١) صاعا -نسخة



وكان بيده عقار ينفق منه على أهله، والباقي يصرفه في مصالح المسلمين، فحكم بأنه لا يورث، ولا يأخذ ورثته شيئًا من ذلك.

وهو، في كل وقت، يظهر على يديه من عجائب الآيات وفنون الكرامات ما يطول وصفه ويخبرهم بخبر ما كان وما يكون، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويشرع الشريعة شيئًا بعد شيء، حتى أكمل دينه الذى بُعث به، وجاءت شريعته أكمل شريعة، لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به، ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نَهى عنه، لم يأمر بشيء فقيل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل: ليته لم ينه عنه، وأحل الطيبات، لم يحرم شيئًا منها كما حرم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئًا كما استحله غيره. **وجمع محاسن ما عليه الأمم فلا يذكر في التوراة، والإنجيل، والزبور، نوع من الخبر عن الله وعن ملائكته وعن اليوم الاخر، إلا وقد جاء به على أكمل وجه؛ وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب.**

فليس في تلك الكتب إيجاب لعدل، وقضاء بفضل، وندب إلى الفضائل، وترغيب في الحسنات، إلا وقد جاء به وبما هو أحسن منه.

وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها. وعبادات غيره من الأمم، ظهر فضلها ورجحانها، وكذلك في الحدود والأحكام وسائر الشرائع.

٢- فضائل أمة النبي ﷺ

وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم، ظهر أنهم أدْيَنُ من غيرهم.

وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله. وصبرهم على المكاره في ذات الله، ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوبًا.

وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم، وسماحة أنفسهم بغيرهم، تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم.

وهذه الفضائل به نالوها، ومنه تعلموها وهو الذى أمرهم بها، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء بتكميله، كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة.

فكانت فضائل اتباع المسيح وعلومهم، بعضها من التوراة، وبعضها من الزبور؛ وبعضها من النبوات، وبعضها من المسيح، وبعضها ممن بعده كالحواريين، ومن بعد الحواريين، وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم، حتى أدخلوا -**لما غيروا دين المسيح**- أموراً من أمور الكفار المناقضة لدين المسيح.

وأما أمة محمد ﷺ، فلم يكونوا قبله يقرءون كتابًا، بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود، والتوراة، والإنجيل، والزبور إلا من جهته، فهو الذى أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء، ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل، فقال تعالى فى الكتاب الذى جاء به: **﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾** [البقرة: ١٣٦]، وقال تعالى: **﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا**



أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وأمته لا يستحلون أن يأخذوا شيئًا من الدين من غير ما جاء به ﷺ، ولا يبتدعون بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ولايشرعون من الدين ما لم يأذن به الله.

لكن ما قصه عليهم من أخبار الأنبياء وأممهم واعتبروا به، وما حدثهم به أهل الكتاب، موافقًا لما عندهم، صدقوه، وما لم يعلموا صدقه ولا كذبه، أمسكوا عنه، وماعرفوا أنه باطل، كذبوه، ومن أدخل فى الدين ما ليس منه، من أقوال متفلسفة الهند والفرس أو اليونان أو غيرهم، كان -عندهم- من أهل الإلحاد والابتداع، **وهذا هو الدين الذى كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وهو الذى عليه أئمة المسلمين الذين لهم فى الأمة لسان صدق، وعليه جماعة المسلمين وعامتهم، ومن خرج عن ذلك كان مذمومًا مدحوراً عند الجماعة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، و هم الظاهرون إلى قيام الساعة، الذين قال فيهم النبى ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة».**

وقد تنازع بعض المسلمين، مع اتفاقهم على هذا الأصل الذى هو دين الرسل عمومًا؛ ودين محمد ﷺ خصوصًا.

ومن خالف هذا الأصل كان -عندهم- ملحدًا مذمومًا، ليسوا كالنصارى الذين ابتدعوا دينًا، قام به أكابر علمائهم وعبادهم، وقاتل عليه ملوكهم، وكان به جمهورهم، وهو دين مبتدع، ليس هودين المسيح، ولا دين غيره من الأنبياء.

والله سبحانه وتعالى أرسل رسله بالعلم النافع، والعمل الصالح، فمن اتبع الرسل، حصل له سعادة الدينا والآخرة.

وإنما دخل فى البدع، من قصر فى اتباع الأنبياء، علمًا وعملا.

ولما بعث الله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، تلقى ذلك عنه المسلمون أمته.

فكل علم نافع وعمل صالح؛ عليه أمة محمد ﷺ آخذوه عن نبيهم ﷺ مع ما يظهر لكل عاقل أن أمته أكمل الأمم فى جميع الفضائل العلمية والعملية.

ومعلوم أن كل كمال فى الفرع المتعلم، فهو من الأصل المعلم، وهذا يقتضى أنه كان أكمل علمًا ودينًا، وهذه الأمور توجب العلم الضرورى بأنه كان صادقًا في قوله: إنى رسول الله إليكم جميعًا لم يكن كاذبًا مفتريًا فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو خيار الناس وأكملهم إن كان صادقًا، أو هو من شر الناس وأخبثهم إن كان كاذبًا.

وما ذكر من كمال علمه ودينه ﷺ، يناقض الشر والخبث والجهل، فتعين أنه متصف بغاية الكمال فى العلم والدين، وهذا يستلزم أنه كان صادقًا فى قوله: «إنى رسول الله» لأن الذى لم يكن صادقًا، إما أن يكون متعمدًا لكذب أو مخطئًا والأول يوجب أنه كان ظالمًا غاويًا. والثانى يقتضى أنه كان جاهلا ضالا، وكمال علمه ينافى جهله، وكمال دينه ينافى تعمد الكذب، فالعلم بصفاته يستلزم العلم بأنه لم يكن متعمدًا للكذب، ولم يكن جاهلا يكذب بلا علم، وإذا انتفى هذا وذاك تعين أنه كان صادقًا بأنه صادق، ولهذا نزهه الله عن هذين الأمرين بقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا



غوىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤] وقال تعالى عن المَلَك الذى جاء به: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩: ٢١] ثم قال عنه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٢: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢: ١٩٥] إلى قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢١: ٢٢٣] بين سبحانه أن الشيطان إنما ينزل على من يناسبه ليحصل به غرضه، فإن الخطأ فى الدين من الشيطان أيضًا، كما قال ابن مسعود -لما سئل عن مسألة-: «أقول فيها برأى فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان، الله ورسوله ﷺ بريئان منه».

فالرسول برىء من تنزُّل الشيطان عليه فى العمد والخطأ، بخلاف غير الرسول، فإنه قد يخطىء ويكون خطؤه من الشيطان، وإن كان خطؤه مغفوراً له، فإذا لم يعرف له خير أخبر به، كان مخطئًا، ولا أمر به كان فيه فاجراً. علم أن الشيبطان لم ينزل عليه، وإنما ينزل عليه مَلَكٌ كريم، ولهذا قال فى الآية الأخرى عن النبى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ إلى آخر الآية.

صفات النبى ﷺ

وقد نقل الناس صفاته الظاهرة الدالة على كماله ونقلوا أخلاقه، من حلمه، وشجاعته، و كرمه، وزهده وغير ذلك. ونحن نذكر بعض ذلك:

ففى الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقصا، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير».

وعنه قال: «كان رسول الله ﷺ بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه، عليه حلة حمراء، ما رأيت شيئًا قط أحسن منه».

وفي البخاري: وسئل البراء: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر.

وفي الصحيحين من حديث كعب بن مالك قال: «كان النبي ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه فلقة قمر» ﷺ

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ ضخم الرأس والقدمين، لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان بسيط الكفين، ضخم اليدين».

وسئل عن شعره فقال: «كان شعراً رجلا، ليس بالجعد ولا بالبسط، بين أذنيه وعاتقه».

وفي الصحيحين عن سماك بن حرب عن جابر بن سمرة قال: «كان ﷺ ضليع الفم، أشكل العينين، منهوس العقبين» وفسرهما سماك بن حرب فقال: واسع الفم: طويل شق العين، قليل لحم العقب.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأبهق، ولا بالآدم، ولا بالجعد القطط، ولا بالبسط». وفي الصحيحين عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ، وما مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كفّ رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكا ولا عنبرة، أطيب من رائحة رسول الله ﷺ».

وروى الدارمي عن ابن عباس قال: «أبلج الثنيتين، إذا تكلم رؤي النور يخرج من ثناياه».



وروى عن ابن عمـر قال: «ما رأيت أحدًا أنجد ولا أجـود ولا أشجع ولا أضوأ من رسول الله ﷺ».

وعن أنس قـال: «دخل علينا رسـول الله ﷺ فـقـال[1] عندنا، فـعـرق، وجاءت أمي بقـارورة فجـعلت تسلت العرق فيـها، فـاستيـقظ رسول الله ، فـقال: «يا أم سليم، مـا هذا الذي تصنعـين؟» قـال: هذا عرقك نجـعله في طيبنا، وإنه أطيب من الطيب» أخرجاه.

وروى الدارمي عن جابر قال: «كان رسول الله ﷺ لا يسلك طريقًـا فيتبعه أحد، إلا عُرف أنه سلكه من طيب عرقه».

وفي حديث أم معـبد المشهور، لما مر بهـا النبي ﷺ في الهجرة، هو وأبو بكر، ومولاه. ودليلهم، وجاء زوجها فقال: «صـفيه لي يا أم معبد» فقالت: «رجلا ظاهر الـوضاءة، حلو المنطق، فـصل، لا نزر ولا هذر، كأنه منطقـة خرزات نظم يتحدَّرن».

وروى أبو زرعة بإسناده عن مـحمد بن عـمار بن ياسر قـال: قلت للربيع بنت معـوذ بن عفرا: صفي لي رسـول الله ﷺ فقالت: يا بني لو رأيته رأيت الشمس طالعة.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ وسلم أحسن الناس، وكان أجـود الناس، وكان أشجع الناس، ولقـد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصـوت، فتلَّقاهم رسول الله ﷺ راجعًا وقـد سبقهم إلى الصوت، وقـد استبرأ الخـبر وهو على فرس لأبي طلحة عـري في عنقه السيف وهو يقول: لن تراعوا.

(١) قوله: فقال،أي نام وقت الضحوة الكبرى وهو المعروف بالقيلولة.

وقال: وجدناه بحرًا، وكان الفرس قبل ذلك بطيئًا، فعاد لا يجارَى.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القران، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب قال: «كنا إذا احمر البأس نتقي به وإن الشجاع منا الذي يحاذي به (يعني النبي ﷺ)».

وعن علي بن أبي طالب قال: «**لما كان يوم «بدر»** اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأسًا، وما كان أحد أقرب إلى العدو منه» ذكره البيهقي بإسناد صحيح.

وفي الصحيحين عن أنس قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أف قط، ولا قال لشيء: لم فعلت، وهلا فعلت كذا» وفي رواية في الصحيحين أيضًا قال: «خدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا؟ ولا لشيء لم أصنعه لِمَ لمْ تصنع هذا هكذا؟ وكان أحسن الناس خلقًا».

وفي الصحيحين عن جابر قال: «ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه قال: فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة».

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو، وذكر رسول الله ﷺ قال: «لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا».

وروى البخاري عن أنس قال: «لم يكن رسول الله ﷺ سبابًا ،لا فحاشًا ولا لعانًا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ماله تربت جبينه».

وفى صحيح مسلم عن عائشة أنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله».

وعنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئًا قط، لا امرأة ولا خادمًا، إلا أن يجاهد فى سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، ولا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله».

وروى مسلم فى صحيحه عنها وقد سئلت عن رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن».

وروى أبو داوود الطيالسى عن شعبة، حدثنا أبو إسحاق، حدثنا أبو عبد الله الجدلى قال: سمعت عائشة، وسألها عن خلق رسول الله فقالت: «لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح أو يغفر» شك أبو داود.

ورواه الحاكم فى مستدركه على الصحيحين.

وفى الصحيحين عن علقمة قال: سألت عائشة كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ وهل كان يخص شيئًا من الأيام؟ قالت: «لا كان عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع».

وروى مسلم فى صحيحه عن سعد بن هشام، وقد سأل عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خلق نبى الله القرآن».

وفى صحيح الحاكم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة قال: «قام رسول ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل يا رسول الله: أليس قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً».

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه».

وروى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وأبو الشيخ الأصبهانى من حديث بهز بن حكيم، عن أبيه عن جده أن أخاه أتى النبى ﷺ فقال: «جيرانى على ما أخذوا» فأعرض عنه النبى ﷺ فقال: «إن الناس يزعمون أنك نهيت عن البغى، ثم تستحل به فقال: لأن كنت فعلت ذلك إنه لعلى وما هو عليهم، خلوا له جيرانه».

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: «ما كان شخص أحب إليهم رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك» واه عن عبد الرحمن بن مهدى: حدثنا حماد بن سلمة عن حميد عنه، رواه أبو داود والترمذى.

وروى أبو نعيم وأبو الشيخ وغيرهما عن ابن عباس «إن الله أرسل إلى نبيه ﷺ ملكاً من الملائكة معه جبريل فقال الملك «إن الله خيره بين أن يكون عبداً نبيًا وبين أن يكون ملكًا نبيًا قال: فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأشار جبريل بيده أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ «لا بل أكون عبداً نبيًا» رواه النسائى والبخارى فى تاريخه.

وفى صحيح مسلم عن أنس قال: كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ فمرض، فعاده النبى ﷺ فقال: «أتشهد أن لا إله إلا الله؟» فنظر الغلام إلى أبيه فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فأسلم. فقال النبى ﷺ «الحمد لله الذي أنقذه بى من النار».



وعن أبى حازم: أن النبى ﷺ كلم رجلا فأرعد فقال له رسول الله ﷺ «هون عليك فإنى لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد» رواه ابن الجوزى من طرق، بعضها متصلا عن ابن مسعود وجرير، قال: ابن الجوزى أو روى متصل، والصواب إرساله كما تقدم.

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك «أن امرأة كان فى عقلها شىء فقالت: يارسول الله،إنى لى إليك حاجة. قال: يا أم فلان خذى فى أى الطرق شئت، قومى فيه حتى أقوم معك، فخلا معها يناجيها حتى قضت حاجتها» رواه مسلم.

وعن أنس قال: «كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتدور به فى حوائجها حتى تفرغ ثم يرجع» رواه البخارى فى الأدب.

وروى عن ابن أبى أوفى قال: «كان رسول الله ﷺ يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى له حاجته».

وعنه قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يستنكف أن يمشى مع العبد، ولا مع الأرملة حتى يفرغ من حاجتهم» رواه الدارمى والحاكم فى صحيحه.

وروى أبو داود الطيالسى عن أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويجيب دعوة المملوك، ولقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف».

وروى مسلم فى صحيحه عن أنس قال: «ما رأيت أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ».

وروى البخارى عنه قال: «مر رسول الله ﷺ على صبيان فسلم عليهم».

وروى ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك».

وعن قدامة بن عبد الله قال: «رأيت رسول الله ﷺ على بغلة شهباء، لا ضرب ولا طرد، ولا إليك» رواهما أبو الشيخ.

وعن عائشة قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ قط مستجمعًا ضاحكا حتى أرى منه لهواته، وإنما كان يتبسم، وكان إذا رأى غيما أو ريحًا عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ قال ﷺ: يا عائشة وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد أتى العذاب قوما، وتلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] أخرجاه في الصحيحين.

وفي الصحيحين أيضًا عن أنس قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ برداثه جبذًا شديدا حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك. قال: فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء».

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مصلاه الذي يقوم فيه حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت، قام، وكانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم».

وفي رواية أخرى صحيحة «كان طويل الصمت، قليل الضحك وكان أصحابه ربما تناشدوا عنده الشعر والشيء من أمورهم فيضحكون ويتبسم».

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها وسألها الأسود: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟ فقالت: «كان يكون في مهنة أهله (يعني خدمة أهله) فإذا حضرت الصلاة خرج».

وفى رواية عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة قال: «سأل رجل عائشة، هل كان يعمل فى بيته؟ قالت: «كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل فى بيته كما يعمل أحدكم فى بيته».

وروى الطيالسى: ثنا شبعة، ثنا الأغر قال سمعت أنسا يقول: «كان رسول الله ﷺ وسلم يركب الحمار، ويلبس الصوف، ويجيب دعوة المملوك، ولقد رأيته يوم خيبر على حمار خطامه ليف».

وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خُبزِ بُرٍ تباعًا حتى مضى لسبيله».

وعنها قالت: «كنا -آل محمد ﷺ- يمر بنا الهلال والهلال ما نوقد بنار لطعام، إلا أنه التمر والماء، إلا أنه حولنا أهل دور من الأنصار فيبعث أهل كل دار بفريزة شاتهم إلى رسول الله ﷺ، وكان النبى ﷺ يشرب من ذلك اللبن» أخرجاه فى الصحيحين.

وفى صحيح البخارى، قال أنس: «ما رأى رسول الله ﷺ رغيفًا مرققًا حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطًا بعينه قط».

وفى صحيح البخارى عنه: «ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا فى سكرجة ولا خبز له مرقّق». فقيل له: على ما كانوا يأكلون؟ قال: على السفر».

وفى صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب أنه خطب وذكر ما فتح على الناس فقال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يلتوى يومه من الجوع، ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه».

وفى صحيح البخارى عن أنس: أنه مشى إلى النبى ﷺ بخبز شعير وإهالة سنخة، ولقد رهن درعه عند يهودى فأخذ لأهله شعيرًا، ولقد سمعته يقول: «ما أمسى عند آل محمد صاع بُرٍ ولا صاع حَبْ» وإنهم يومئذ تسعة أبيات.

وفيه عن عائشة قالت: «كان فراش رسول الله ﷺ من أدم حشوه ليف».

وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه -لما ذكر اعتزال رسول الله ﷺ نساءه- قال: فدخلت على رسول الله ﷺ في خزانته، فإذا هو مضطجع على حصير، فأدنى إليه إزاره وجلس، وإذا الحصير قد أثر بجنبه، وقلبت عيني في بيته فلم أجد شيئًا يرد البصر غير قبضة من شعير وقبضة من قرض نحو الصاعين، وإذا أفق معلقة فابتدرت عيناي. فقال رسول الله ﷺ: **«ما يبكيك يا ابن الخطاب»**؟ فقلت: «يا رسول الله، وما لي لا أبكي وأنت صفوة الله ورسوله وخيرته من خلقه، وهذه خزانتك وهذه الأعاجم». وفي رواية «كسرى وقيصر في الثمار والأنهار» فقال ﷺ: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم» وفي رواية: «أو ما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» قال: بلى، قال ﷺ: «فاحمد الله عز وجل» قال: فقلت: أستغفر الله.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»**.

وروى الطيالسي بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: «اضطجع النبي ﷺ على حصير فأثر الحصير بجلده، فجعلت أمسحه عنه وأقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ ألا آذنتنا فنبسط لك شيئًا يقيك منه تنام عليه؟ فقال ﷺ: **«مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»** رواه أحمد.

وروى الحاكم في صحيحه عن ابن عباس أن عمر دخل على النبي ﷺ فذكر نحوه.

وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال «حج النبي ﷺ على رحل رث وقطيفة» ورواه البخاري عن أنس أيضًا في «كتاب الحج» قال: «حج أنس على



رحل رث ولم يكن شحيحًا وحدث أن النبي ﷺ حج على رحل وكانت زاملته».

وفي صحيح الحاكم عن أنس: أن النبي ﷺ لبس خشنًا، وأكل خشنًا، ولبس الصوف، واحتذى المخصوف. قيل للحسن: ما الخشن؟ قال: غليظ الشعير، ما كان يسيغه إلا بجرعة ماء».

مناقشة النبي ﷺ للمخالفين تبرهن على أنه نبيّ صادق

ومما يبين أمر محمد ﷺ أن من دعا إلى مثل ما دعا إليه لا يخلو من ثلاثة أقسام:

● إما أن يكون نبيًا صادقًا مرسلا من الله، كما أخبر عن نفسه بمنزلة نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان وغيرهم من الأنبياء الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٦].

● وإما أن يكون ملكا عادلا وضع ناموسًا سياسيًا، وقانونًا عدليًا، ينتفع به الخلق، ويحملهم به على السيرة العادلة ليبلغ علمه، كما كان للأمم من يضع لهم النوامس، مثل واضعي النواميس من اليونان، والهند، والفرس وغيرهم.

وإن كان وضع الناموس مختصًا بقوة قدسية ينال بها العلم بسهولة وله قوة نفسية «يتصرف فيها تصـرفات خارجة عن العادة» ويكون له قوة تخييلية «تمثل له فى نفسه أشكالا نورانيـة» وأصواتًا يسمـعهـا فى داخل نفسـه، فإن هذه الخواص الثلاثة، هى التى يقول «ابن سينا» وأمثاله من المتفلسفة: إنها خواص النبى، ومن قامت به كان نبيًا والنبوة مكتسبة عندهم.

ولكن لما كانت هذه موجودة لكثير من الخلق، ولم يصل بها إلى قريب من درجة الـصديقيـن، أتباع الأنبياء، كالخلـفاء الراشديـن، وحواريى عيـسى، وأصحاب مـوسى، جعلناها من هذا القسم، إذ صاحب هذا، قـد يكون فيه عدل وسياسة بحسب ما معه من العلم والعدل، فهذا القسم الثانى.

● **وإما أن يكون رجلا كاذبًا، فاجرًا أفاكا أثيما يتعمد الكذب والظلم، أو يتكلم بلا علم، فيخطىء خطأ من يتكلم بلا علم.**

ومن يظن الكذب صدقـا، والباطل حقًا، والضـلال هدى، والغى رشداً، والظلم عدلا، والفسـاد صلاحًا وكل من دعا الخلق إلى متابعـته وطاعته على سبيل الحتم والإيجاب، بأن يصدقوه فيما أخبر، ويطيعون فيما أوجبه وأمر به باطنًا وظاهراً، من غـير أن يخيـر أحداً على اتباعـه وتصديقه وطاعـته، ولا يسوغ له مخالفتـه بوجه من الوجوه، لا فى الباطن ولا فى الظاهر. لم يخرج عن هذه الأقسام الثلاثة.

وذلك لأنه، إما أن يكون قصده الإثم والعدوان، أو قصده البر والعدل.

فإن كان قصده الأول، فهو ظالم فاجر، ومثل هذا لا يكون إلا كاذبًا عمداً أو خطأ.

وإن كان قصد البر والعدل، فلا يخلو -مع ذلك- إما، أن يكون عالما بكل ما يخبر به من الغـيوب، جازما بصدق نفسه جزما لا يحـتمل النقيض، عالما



بأن ما يأمر به هو عدل، لا يجوز لمن أمره أن يعصيه بوجه من الوجوه، وإما أن لا يكون جازما بذلك.

فإن كان جازمًا بذلك، كان هذا هو النبي المعصوم، الذى لا يخبر إلا بحق وصدق، ولا يأمر إلا بعدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

بخلاف القسم الذى يتحرى العدل والصدق باجتهاده ورأيه، فإن هذا قد يأمر بأشياء يجوز أن تكون المصلحة والعدل في خلافها، ويخبر بأشياء باجتهاده يجوز أن تكون المصلحة والعدل فى خلافها، ويخبر بأشياء باجتهاده، يجوز أن يكون الأمر بخلاف ذلك، ولا بد أن يغلط في بعض ما يخبر به من العلميات وما يأمر به من العمليات، فإنه لا معصوم إلا الأنبياء، ولهذا لم يجب الإيمان بكل ما يقوله بشر، إلا أن يكون نبيًا، فإن الإيمان واجب بكل ما يأتى به النبى.

قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وإذا كان كذلك فمعلوم بالتواتر أن محمداً ذكر أنه رسول ﷺ كإبراهيم وموسى وعيسى.

بل أخبر أنه سيد ولد آدم، وأن آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة، وأنه لما أسرى به وعرج إلى ربه، علا على الأنبياء كلهم على إبراهيم، وموسى وهارون، وعيسى، ويحيى وغيرهم، وأخبر أنه لا نبى بعده، وأن أمته هم

الآخـرون فى الخلق، السابقـون يوم القـيامـة، وأن الكتاب الذى أنزل إليـه، أحـسن الحديث، وأنه مـهـيمن على مـا بين يديه من الكـتب، مع تصديقـه لذلك.

وحينئذ فإذا كان عالمًا بصدق نفسه، فهو نبى رسول، ومن قال هذا القول وهو يعلم أنه كاذب، فهـو من أظلم الناس وأفجرهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وإن كان يظن صدق نفسه وليس كذلك، فهو مخطىء غالط ملبوس عليه.

وإذا كان كذلك، فلا بد أن يخطىء فيما يخبر به من الغيوب، ويظلم فيما يأمـر به من العدل، ولا يتـصور اسـتمـراره على هذا، بل لابد أن يتبـين له لغيره أنه صادق أو كاذب.

فإن من ظن صـدق نفسه فى مثل هذه الدعـوى وليس بصادق، يكون من اجهـل الناس وأظلمهم وأبعـدهم عن التمـييـز بين الحق والباطل، والـصدق والكذب والخيـر والشر، فإن هذا بمنزلة من اشـتبه عليه الـنبى الصادق بالنبى الكاذب، وهذا من أجهل الناس.

وإذا اشتبه عليه حال غيره. فكيف بمن اشـتبه عليه حال نفسه ولم يعلم هو ما يقوله؟ أصدق أم كَذَبُ؟

ومن كان جاهلا مع هذه الـدعوى العظيمة التى لم يدع بشـر مثلها، ومع كثـرة ما يخبر به مِنَ الغـيوب الماضيـة والمستقبلـة، ويأمر به وينهى عنه، من الأمور الكلية، والسنن العامة، والشرائـع والنواميس، فلابد أن يكون فيها من الضلال والغى ما يبين لأكثر الخلق.

فإذا كان إخباره عن الماضى والمستقبل، يصدق بعضه بعضًا، والذى يأمر به هو الطريق الأقوم، والكتاب الذى جاء به، كتاب متـشابه مثانى، يشبه بعضه



بعضًا فى الصدق، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فإنه لو كان من عند غير الله، لوجب أن يكون فيه تناقض، لامتناع قدرة البشر على أن تخبر بهذه الأخبار وما فيها من الغيوب، ويأمر بهذه الأوامر مع سلامة ذلك من التناقض. ولهذا لا يوجد بشر غير نبى يسلم من ذلك.

فإذا كان محمد ﷺ قد علم بالاضطرار من سيرته أنه كان يتحرى الصدق والعدل، وأنه ما جرت عليه كذبة قط وعلم أنه كان جازمًا بما يخبر به مع عظم الأخبار وكثرتها، وأنه -هو وحده- قام يدعو الناس إلى ما جاء به، ومن عادة طالب الملك والرياسة -ولو كان عادلا- أن يستعين بمن يعينه، كأقاربه وأصدقائه ونحوهم، وأن يبذل للنفوس من العاجل ما يرغبها به، كالمال والرياسة، ويرهب من خالفه.

ومحمد ﷺ دعا الناس وحده وهو بمكة، فآمن به المهاجرون ثم آمن به الأنصار بالمدينة، ثم آمن به أهل البحرين، ولم يعط أحدًا منهم درهمًا ولا كان معه ما يخيفهم به، لا سيف، ولا غيره. بل أقام بمكة بضع عشرة سنة، وهو والمؤمنون به، مستضعفون، لم يكن له مال يبذله لهم، ولا سيف يخيفهم به.

وكان أعظم من آمن به، أبو بكر الصديق، مع كمال عقله وخلقه ودينه فى قومه، ومحبتهم له وعلو قدره فيهم، أنفق ماله كله فى سبيل الله، حتى قال له النبى ﷺ: «ما تركت لأهلك؟» قال: «تركت لهم الله ورسوله ﷺ» ولم يعطه النبى ﷺ درهمًا واحدًا يخصه به، ثم تولى الأمر بعده، وترك ما كان معه للمسلمين، واكتفى كل يوم بدرهمين له ولعياله، ومات وهو فقير من فقراء المسلمين.

وتولى بعده عمر بن الخطاب، وفتح أعظم ممالك العالم، مملكة فارس والروم، فقهر الروم على بلاد الشام والجزيرة ومصر.

وأميره الكبير «أبو عبيدة» أزهد الخلق في ولايته الأموال، وأعبدهم للخالق، وأرحمهم للمخلوق، وأبعدهم عن هوى النفس، ولهذا قال النبي ﷺ فيه: «**إن لكل أمة أمينا، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح**» وأميره على فارس «**سعد بن أبي وقاص**» الذى كان مستجاب الدعوة، وكان من أزهد الخلق، وكان آخر من بقى من أهل الشورى والناس يتنازعون فى الولاية وهو معتزل في قصره بالعقيق، لا يزاحم أحدًا.

فقال له ابن عمر: «تركت الناس يتنازعون فى الملك وجلست ههنا؟».

فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحب العبد التقى النقى الخفى**».

دلائل نبوته ﷺ من القرآن

● ومن آيات محمد ﷺ ودلائل نبوته فى القرآن الكريم قصة الفيل قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾ [الفيل: ١-٥].

وقد تواترت قصة أصحاب الفيل، وأن أهل الحبشة، النصارى، ساروا بجيش عظيم، معهم فيل ليهدموا الكعبة، لما أهان بعض العرب كنيستهم التى باليمن، فقصدوا إهانة الكعبة وتعظيم كنايسهم.

فأرسل الله عليهم طيرًا أهلكهم عامتهم، وكان ذلك عام مولد النبى ﷺ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير من دينهم.

فعلم بذلك أن هـذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذ، بل كانت لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ، الذى ولد فى ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأى ذلك كان، **فهو من دلائل نبوته.**

فإنه إذا قيل: إنما كانت آية للبيت وحفظًا له، وذبًا عنه لأنه بيت الله الذى بناه إبراهيم الخليل. فقد علم أنه ليس من أهل الملل من يحج إلى هذا البيت ويصلى إليه، إلا أمة محمد ﷺ، هو الذى فرض حجه والصلاة إليه.

فإذا كان هذا البيت عند الله خير من الكنائس التى للنصارى، حتى إن الله أهلك الكنائس لما أرادوا تعظيم الكنائس وإهانة البيت. علم أن أهل هذا البيت خير من دين النصارى، والمشركون ليسوا خيرًا من النصارى.

فتعين أن أمة محمد ﷺ خير من النصارى، وذلك يستلزم أن نبيهم ﷺ صادق، وإلا فمن كانوا متبعين لنبى كاذب، فليسوا خيرًا من النصارى بل هم من شرار الخلق، كأتباع مسيلمة الكذاب، والأسود العنسى وغيرهما، وقال فى القرآن ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ**﴾ [الفيل: ١-٣] والأبابيل جماعات متفرقة فوج بعد فوج ترميهم بحجارة من سجيل، أى من طين مستحجرة، وهى كلمة معربة، أصلها بالفارسية (سنكك) و(كل) بالفارسية هى الطين، ويقولون فى الجمع كيلان (أى أطيان) لأن الألف والنون فى الفارسية للجمع، فيقولون: مسلمان وفقيهان وعالمان. أى مسلمون وعلماء وفقهاء.

ولما عربتها العرب صارت عربية ينطقون بها، ويعرفون معناها، والقرآن نزل بلغتهم العربية والمعرب عربى ﴿**فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾ كالتبن الذى أكل وقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ استفهام فى معنى التقرير، وهذا يقتضى أن هذا قد

وقع وعلم به الناس ورأوه، وقد قررهم على ذلك لما فيه من الدلالة والبيان والإنعام على الخلق.

فصل

● **ومن آياته الظاهرة التي في القرآن ما ذكره من أن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا، بخلاف ما كانت العادة جارية به، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢] وقد كان النبي ﷺ يقرؤه على الناس وهم يقرءونه، ولم ينكره أحد، ولا ارتاب به مؤمن، ولا احتج به عليه كافر، فدل على أن الناس علموا صدق ما أخبرت به الجن من أن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبا، وأنهم لم يتمكنوا حينئذ مما كانوا يتمكنون منه قبل ذلك من الاستماع.**

ومعلوم أن هذا أمر يراه الناس بأبصارهم فإن امتلاء السماء بالشهب، أمر يراه الناس كلهم، فلو لم يكن كذلك، لكان الناس يكذبون بهذا، مؤمنهم وكافرهم، فإن الجماعة العظيمة الذين لم يتواطؤوا، يمتنع اتفاقهم على الكذب، وعلى التصديق بما يعلمون أنه كذب، وعلى كتمان ما يعلمونه، وعلى ترك إنكار ما يعلمون أنه كذب.

وقد سمع القرآن ألوف مؤلفة، أدركوا مبعثه، وشاهدوا أحوال السماء، فلو لم يكن هذا كان موجودا -مع أن عامتهم كانوا مكذبين له، ولما آمنوا كانوا



طوائف متباينين- يمتنع اتفاقهم على كذب أو كتمان أو سكوت، فلما لم ينكر ذلك أحد، بل تظاهرت الأخبار بمثل ما أخبر القرآن من الرمى العظيم بالشهب الذى لم يعهد مثله، حتى صاروا يشكون: هل ذلك فى الكواكب التى فى الفلك أو فى غيرها؟ وقالوا: إن كان فى كواكب الأفلاك فهو خراب العالم، فلما رأوه فيما دونها، علموا أنه لأمر حدث. ففى الصحيحين من حديث ابن عباس قال: «انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين السماء، أرسلت علينا الشهب. قالوا: ما ذاك إلا من شىء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا: ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة وهى بنخل عامدين إلى سوق عكاظ وكان الرسول يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له وقالوا: هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾ [الجن: ١، ٢] فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ ﴿**قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا**﴾ [الجن: ١] **وفى لفظ البخارى بنخلة قريبًا من مكة، وهو الصواب.**

وقد ظن بعض الناس أن الشهب لم يكن يرمى بها قبل ذلك بحال، والصواب أنه كان يرمى بها كما هو الآن أحيانًا كما ثبت فى صحيح مسلم عن ابن عباس ورواه أيضًا أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ بينما هو فى نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار، فقال لهم: «ما كنتم تقولون فى هذا

النجم الذى يرمى به فى الجاهليــة؟» قالوا: كنا نقول حــين رأيناها يرمى بها، مات ملك وولد مولود فقــال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك كذلك، ولكن الله إذا قضى فى خلقــه أمرًا يسمــعه أهل العرش فيــسبحــون، فيسبح من تحــتهم بتسبــيحهم، فيســبح من تحت ذلك، فلم يزل التسبيح يهــبط حتى ينتهى إلى السمــاء الدنيا حتى يقول بعــضهم لبعض: لم سبــحتم؟ فيقــولون: سبح من فوقنا فسبحنا بتسبيحهم فيقولون: ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا؟ فيسألون فيقولون: قضى الله فى خلقه كذا وكذا، الأمر الذى كان، فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهى إلى سماء الدنيا فــيتحدثون به، فتسترقه الشياطين بالســمع على توهم منهم واخــتــلاف، ثم يأتون به الكهــان من أهل الأرض فيحدثونهم، فيخطئون ويصيبون، فيتحدث به الكهان.

وفى الصحيحين عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، إن الكهان قد كانوا يحدثوننا بالشيء فيكون حقًا قــال ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقذفها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة».

وروى البخارى فى صحيحه عن عــائشة أنها سمعت النبى ﷺ يقول: **«إن الملائكة تنزل فى العنان، وهو الســحاب، فتذكــر الأمر قضى فى الســماء، فتســترق الشياطين الســمع فتسمعــه، فتوحيه إلى الكهــان فيكذبون معهــا مائة كذبة من عند أنفسهم»**.

وفى صحيح البخــارى أيضًا عن أبى هريرة قال: إن نبى الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعًا لقوله، كأنه سلسلة على الصفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قــالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذى قال: «الحق وهو العلى الكبير» فيســمعها مسترقو السمع، ومــسترقو السمع هكذا، بعضهم فوق بعض، فيسمع الكلمة فيلقــيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى



من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: «كذا وكذا» الكلمة التى سمعت من السماء، فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء.

ورواه محمد بن إسحاق عن الزهرى، وقال فى آخره: «ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين عن السمع بهذه النجوم، فانقطعت الكهانة، فلا كهانة».

ورواه معمر عن الزهرى وقال: فقلت للزهرى: أو كان يرمى بها فى الجاهلية؟ قال: نعم.

قلت: يقول الله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩].

قال: غلظت واشتد أمرها حين بعث النبى ﷺ.

وروى الطبرى عن داود، ثنا عاصم بن على ثنا على بن عاصم عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير عن عباس قال: «كان للجن مقاعد فى السماء يستمعون الوحى، وكان الوحى إذا أوحى، سمعت الملائكة كهيئة الحديدة يرمى بها على الصنوان، فإذا سمعت الملائكة صلصلة الوحى، خروا لجباههم فإذا نزل عليهم أصحاب الوحى قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال: فينادون قال ربكم: «الحق وهو العلى الكبير».

قال: فإذا نزل إلى السماء الدنيا قالوا: يكون فى الأرض كذا وكذا موتًا، وكذا وكذا حياة، وكذا وكذا جدوبة، وكذا وكذا خصبًا، وما يريد أن يصنع، وما يريد أن يبتدى تبارك وتعالى. فنزلت الجن فأوحوا إلى أوليائهم من الإنس بما يكون فى الأرض.

فبينا هم كذلك، إذ بعث النبي ﷺ فزجرت الشياطين عن السماء، ورموهم بالكواكب، فمنعوا، فجعل لا يصعد أحد إلا احترق، وفزع أهل الأرض لما رأوا في الكواكب، ولم يكن قبل ذلك فقالوا: أهلك من في السماء.

وكان أهل الطائف أول من فزع، فينطلق الرجل إلى إبله فينحر كل يوم بعيراً لآلهتهم، فينطلق صاحب الغنم فيذبح كل يوم شاة، فينطلق صاحب البقر، فيذبح كل يوم بقرة.

فقال لهم رجل: ويلكم لا تهلكوا أموالكم، فإن معالمكم من الكواكب التي تهتدون بها لم يسقط منها شيء، فأقلعوا وقد أسرعوا في أموالهم.

وكان إبليس قال: حدث في الأرض حدث، فأتى من كل مكان في الأرض بتربة، فجعل لا يؤتى بتربة أرض إلا شمها، فلما أتى بتربة تهامة قال ههنا حدث الحدث فصرف الله إليه نفراً من الجن وهو يقرأ القرآن فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن:١] حتى ختم الآية، فولوا منذرين.

ورواه أبو زرعة عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن عطاء بنحوه، ورواه البيهقي عن حماد بن سلمة عن عطاء أيضًا.

فقد تبين أنه لما كان في زمن المبعث، ملئت السماء حرسًا شديدًا وشهبًا، وقبل ذلك لم يكن الحرس شديدًا، بل كانت السماء مملوءة حرسًا وشهبًا كما هي ترمى بها أحيانًا وكانوا يقعدون بها مقاعد للسمع، أي يسترق أحدهم ما يسمعه كما يستمع المستمع إلى حديث غيره، مختفيًا بسماعه، مسترقا له، فكانت الشياطين تسترق (أي تستمع) ما تقوله الملائكة.

فلما بُعث محمد ﷺ: صار أحدهم إذا استمع: وجد الشهاب قد أرصد له، فلم يستطع أن يقعد ويستمع كما كان قبل ذلك.



ومن آياته: الحكمة التى أنزلها الله على النبى ﷺ

وقد ذكرنا بعض آياته التى فى القرآن، لأن من أهل الكتاب من يقول لا نصدق إلا بما فى القرآن كما فى التوراة والإنجيل ما فيهما من آيات موسى والمسيح، إذ كان نقل القرآن عنه متواتراً لا يستريب فيه أحد، فنبهنا على بعض ما فى القرآن، **مع أن آياته التى ليست فى القرآن كثيرة جداً. وليس من شرط المنقول المتواتر أن يكون فى القرآن، بل كما تواتر عنه من شريعته ما ليس فى القرآن وهو من الحكمة التى أنزلها الله عليه كذلك، تواتر عنه من دلائل نبوته ما ليس فى القرآن، وهو من آياته وبراهينه، وقد قال تعالى فى غير موضع: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣] فالحكمة منزلة عليه، وهى منقولة فى غير القرآن.**

وقد تواتر عنه كون الصلاة خمسًا، والفجر ركعتين، والمغرب ثلاثا، والباقى أربعًا، والرباعية فى السفر ركعتان، وتواتر عنه سجود السهو.

وكذلك تواتر عنه أنواع من المعجزات والأخبار المأثورة فى أصناف آياته، وبراهينه كثيرة جداً لا يمكن إحصاؤها، وهى مشتملة على جنسى العلم والقدرة على أنواع من الإخبار بالغيوب المستقبلة، مفصله، كأنما رآها بعينه، لم يأت منها خبر إلا كما أخبر به، وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبى.

أما الكاهن والمنجم ونحو هؤلاء، فيكذبون كثيراً كما يصدقون أحيانًا، ويخبرون بجمل غير مفصلة.

وأما أهل الولاية والصلاح، فأعظمهم كشفًا، يخبر من ذلك بأمور قليلة، لا تبلغ عشر معشار ما أخبر به النبى ﷺ، ولا يخبرون بها مفصلة كخبره، وعلى أنواع من القدرة والتصرف الخارق للعادة والآيات. إما من باب العلم والخبرة والمكاشفة، وإما من باب القدرة والتأثير والتصرف.

وفي القرآن من الأخبار بالمستقبلات، شيء كثير كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ١-٤] فغلبت الروم فارس في بضع سنين، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فيما مضى، وكقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وروى الدارمي عن أُبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه بالمدينة وآواهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا ترون: أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟ فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، إلى آخر الآية، وكان كذلك، استخلف الله المؤمنين في الأرض، ومكن لهم دينهم في مشارق الأرض ومغاربها.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]، وكان كما أخبر ووعد، وقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨] وكان كما أخبر، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] إلى قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] فأخبر أنهم لن يفعلوا، وكان كما أخبر.

وأخبر أنه قال للمسيح ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] وكان كما أخبر.



وأنزل في مكة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥] فكان كما أخبر، هزم الجمع وولوا الدبر.

وقال: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢] فكان كما أخبر.

وقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤] وكان كما أخبر.

وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٤] إلى قوله: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] وكان كما أخبر.

وقال: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١١، ١١٢].

وقال: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ﴾ [الفتح: ٢٢]، وقال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤] وكان كذلك، فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون، وما زال الإسلام في عز وظهور حتى ظهر على أهل المشرق والمغرب.

وقال تعالى خطابًا لليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ٩٤-٩٦] وقال: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٦، ٧] فأخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبدًا، وكان كما أخبر، فلا يتمنى اليهود الموت أبدًا. وهذا دليل من وجهين، من جهة إخباره بأنه لا يكون أبدًا، ومن جهة صرف الله لدواعي اليهود عن تمني الموت، مع أن ذلك مقدور لهم وهذا من أعجب الأمور الخارقة للعادة، وهم -مع حرصهم على تكذيبه- لم تنبعث دواعيهم لإظهار تكذيبه بإظهار تمني الموت.

وقال في سورة المدثر: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ [المدثر: ١١-١٣] إلى قوله: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴾ [المدثر: ٢٦-٢٨].

وقال عن أبي لهب عمه: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١-٣]، فكان كما أخبر به، مات الوليد كافرا ومات أبو لهب كافرًا.

وقال في سورة «الفتح»: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٠] وقال: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ٢٧] وقال: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ



اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]، وهذا كله وقع كما أخبر، فحصلت لهم الغنائم الكثيرة، ودخلوا المسجد الحرام آمنين، ودعيت الأعراب إلى قتال الروم والفرس، يقاتلونهم أو يسلمون، فلابد من القتال أو الإسلام ليس هناك هدنة بلا قتال، ولا إسلام كما كان يكون قبل نزول آية الجزية.

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١-٣] فدخل الناس في دين الله أفواجًا بعد الفتح، فما مات النبي ﷺ، وفي بلاد العرب، موضع لم يدخله الإسلام.

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١، ١٢] وكذلك كان، فروى أهل التفسير والمغازي والسير، أن هذه الآية نزلت في المنافقين، كعبد الله بن أبي، وعبيد الله بن نبتل، ورفاعة بن تابوت ونحوهم، كانوا يقولون لبني النضير -وهم اليهود حلفاؤهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١] الآية. فأخبر الله عنهم أنهم لن يفعلوا ذلك، وكذلك كان وضرب الله لهم مثلا بالشيطان: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦] كذلك المنافقون وبنو النضير.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا

كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨٧-٩١].

فقد أخبر تعالى أن أهل الكتاب كانوا يستفتحون على العرب بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، أى يستنصرون به، وكانوا هم والعرب يقتتلون فتغلبهم العرب، فيقولون: سوف يُبعث النبى الأمى من ولد إسماعيل فنتبعه ونقتلكم معه شر قتلة، وكانوا ينعتونه بنعوته وأخبارهم بذلك كثيرة متواترة، وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وأخبر بما كانت عليه اليهود من أنه كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا بعضهم وقتلوا بعضهم، وأخبر أنهم باءوا بغضب على غضب فإنهم ما زالوا يفعلون ما يغضب الله عليهم، فإما أن يراد بالتثنية تأكيد غضب الله عليهم، وإما أن يراد به مرتان، فالغضب الأول: بتكذيبهم المسيح والإنجيل، والغضب الثانى: لمحمد والقرآن.

الآيات الدالة على نبوة النبى ﷺ ومعجزاته تزيد على ألف معجزة

وكان يأتيهم بالآيات الدالة على نبوته ﷺ ومعجزاته تزيد على ألف معجزة، مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات، ومثل القرآن المعجز، ومثل أخبار أهل الكتاب قبله وبشارة الأنبياء به، ومثل أخبار الكهان والهواتف به، ومثل قصة

الفيل التى جعلها الله آية عام مولده وما جرى عام مولده من العجائب الدالة على نبوته، ومثل امتلاء السماء ورميها بالشهب التى ترجم بها الشياطين، بخلاف ما كانت العادة عليه قبل مبعثه وبعد مبعثه ومثل إخباره بالغيوب التى لا يعلمها أحد بتعليم الله عز وجل، ومن غير أن يعلمه إياها بشر فأخبرهم بالماضى مثل قصة آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح وهود وشعيب وصالح وغيرهم، بالمستقبلات، وكان قومه يعلمون أنه لم يتعلم من أهل الكتاب ولا غيرهم، ولم يكن بمكة أحد من علماء أهل الكتاب ممن يتعلم هو منه، بل ولا كان يجتمع بأحد منهم يعرف اللسان العربى ولا كان هو يحسن لسانًا غير العربى، ولا كان يكتب كتابًا، ولا يقرأ كتابًا مكتوبًا، ولا سافر قبل نبوته إلا سفرتين، سفرة وهو صغير مع عمه أبى طالب لم يفارقه ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب ولا غيرهم. وسفرة أخرى وهو كبير مع ركب من قريش لم يفارقهم، ولا اجتمع بأحد من أهل الكتاب، وأخبر من كان معه بإخبار أهل الكتاب بنبوته مثل إخبار بحيرى الراهب بنبوته؛ وما ظهر لهم منه مما دلهم على نبوته، ولهذا تزوجت به خديجة بنت خويلد قبل نبوته لما أخبرت به من أحواله وهذه الأمور مبسوطة فى موضع آخر، **ولكن المقصود هنا التنبيه بأن محمداً ﷺ له معجزات كثيرة، مثل نبع الماء من بين أصابعه غير مرة، ومثل تكثير الطعام القليل حتى أكل منه الخلق العظيم، وتكثير الماء القليل حتى شرب منه الخلق الكثير**، وهذا قد جرى غير مرة له ولأمته من الآيات ما يطول وصفه، فكان بعض أتباعه يحيى الله له الموتى من الناس والدواب، وبعض أتباعه يمشى بالعسكر الكثير على البحر حتى يعبروا إلى الناحية الأخرى، ومنهم من ألقى فى النار فصارت عليه بردًا وسلامًا، وأمثال ذلك كثيرة، ولكن المقصود هنا ذكر بعض ما فى القرآن من أنه كان يخبرهم بالأمور الماضية خبرًا مفصلا لا

يعلمه أحد إلا أن يكون نبيًا أو من أخبره نبى، وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر، وهذا مما قامت به الحجة عليهم وهم مع قوة عداوتهم له وحرصهم على ما يطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنا يقبل منهم، وكان علم سائر الأمم بأن قومه المعادين له، المجتهدين فى الطعن عليه، وهم يمكنهم أن يقولوا: إن هذه الغيوب علمه إياها بشر يوجب على علم جميع الخلق أن هذا لم يعلمه إياها بشر، ولهذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ [هود:٤٩]. فأخبر أنه لم يكن يعلم ذلك هو ولا قومه. وقومه تقر بذلك ولم يتعلم من أحد غير قومه، ولهذا لما زعم بعضهم أنه تعلم من بشر ظهر كذبه لكل أحد كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:٩٨-١٠٣].

وكان بمكة رجل أعجمى مملوك لبعض قريش فادعى بعض الناس أن محمداً ﷺ كان يتعلم من ذلك الرجل الأعجمى فبين الله أن هذا كذب ظاهر، فإن ذلك رجل أعجمى لا يمكنه أن يتكلم بكلمة من هذا القرآن العربى، ومحمد ﷺ عربى لا يعرف شيئًا من ألسنة العجم، فمن كلمه بغير العربية لا يفقه كلامه، فلا ذلك الرجل يحسن التكلم بالعربية، ولا محمد ﷺ يفهم كلامًا بغير العربية، فلهذا قال تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾



[النحل:١٠٣] أى يميلون إليه ويضيفون إليه أنه علم محمداً ﷺ ﴿أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣]. وكذلك قال بعض الناس عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤] قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٤-٦].

فبين سبحانه أن قول هذا من الكذب الظاهر المعلوم لأعدائه فضلا عن أوليائه فإنهم يعلمون أنه ليس عنده أحد يعينه على ذلك، وليس فى قومه ولا فى بلده من يحسن ذلك ليعينه عليه فلهذا قال تعالى ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان:٤] فإن جميع أهل بلده وقومه المعادين له يعلمون أن هذا ظلم له وزور ولهذا لم يقل هذا أحد من عقلائهم المعروفين، وكذلك قولهم أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا، فإن قومه المعادين له يعلمون أنه ليس عنده من يملى عليه كتابا وقد بين ما يظهر كذبهم بقوله ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان:٦] فإن فى القرآن من الأسرار ما لا يعلمه بشر إلا بإعلام الله إياه فإن الله يعلم السر فى السموات والأرض، ثم لما تبين بطلان قولهم هذا، ذكر ما قدحوا به فى نبوته فقال: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان:٧، ٨].

فهذا كلام المعارضين له الذين أنكروا أكله ومشيه فى الأسواق التى يباع فيها ما يؤكل وما يلبس، وقالوا هلا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يستغنى عن ذلك بكنز ينفق منه أو جنة يأكل منها. وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً.

قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٩]. يقول مثلوك بالكاذب وبالمسحور والناقل عن غيره، وكل من قال هذه الأقوال يظهر كذبه لكل من عرفك، ولهذا قال تعالى: ﴿فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٨] والضال الجاهل العادل عن الطريق فلا يستطيع الطريق الموصلة إلى المقصود، بل ظهر عجزهم وانقطاعهم في المناظرة.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

فإنه أتاهم بجلية ما في الصحف الأولى كالتوراة والإنجيل مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئًا، فإذا أخبرهم بالغيوب التي لا يعلمها إلا نبي أو من أخبره نبي، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء تبين لهم أنه بأنه وتبين ذلك لسائر الأمم فإنه إذا كان قومه والمعادون له وغير المعادين له مقرين بأنه لم يجتمع بأحد يعلمه ذلك صار هذا منقولا بالتواتر وكان مما أق ربه مخالفوه مع حرصهم على الطعن لو أمكن، فهذه الأخبار بالغيوب المتقدمة قامت بها الحجة على قوله وعلى جميع من بلغه خبر ذلك وقد أخبر بالغيوب المستقبلة وهذه تقوم بها الحجة على من عرف تصديق ذلك الخبر كما قال تعالى: ﴿الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] ثم قال: ﴿وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ [الروم: ٣-٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]. فأخبر أنهم لم يفعلوا ذلك في المستقبل وكان كما أخبر.



وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فأخبر أنه لا يقدر الإنس والجن إلى يوم القيامة أن يأتوا بمثل هذا القرآن وهذا الخبر قد مضى له أكثر من سبعمائة سنة، ولم يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقال عن الكفار وهو بمكة ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] وظهر تصديق ذلك يوم بدر وغيره بعد ذلك بسنين كثيرة.

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ النور: ٥٥]. وكان الأمر كما وعده وظهر تصديق ذلك بعد سنين كثيرة، وكذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨]. فأظهر الله ما بعثه به بالآيات والبرهان واليد والسنان.

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

فكان كما أخبرهم غلبوا في الدنيا كما شاهده الناس وهذا يصدق الخبر الآخر وهو أنهم يحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، وقد أيده تأييدًا لا يؤيده إلا الأنبياء بل لم يؤيد أحد من الأنبياء، كما أيده كما أنه بعث بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع، وجعله سيد ولد آدم ﷺ، فلا يعرف قط أحد ادعى النبوة وهو كاذب إلا قطع الله دابره وأذله وأظهر كذبه وفجوره، وكل من أيده الله من المدعين للنبوة لم يكن إلا صادقًا كما أيد نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان،

بل وأيد شعيبًا وهودًا وصالحًا فإن سنة الله أن ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهذا هو الواقع، فمن كان لا يعلم ما يفعله الله إلا بالعادة فهذه عادة الله وسنته تعرف بها ما يصنع، ومن كان يعلم ذلك بمقتضى حكمته فإنه يعلم أنه لا يؤيد من ادعى النبوة وكذب عليه تأييدًا لا يمكن أحدًا معارضته، وهكذا أخبرت الأنبياء قبله أن الكذاب لا يتم الله أمره ولا ينصره ويؤيده، فصار هذا معلومًا من هذه الجهات ولهذا أمر سبحانه أن نعتبر بما فعله في الأمم الماضية من جعل العاقبة للأنبياء وأتباعهم، وانتقامه ممن كذبهم وعصاهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ



يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٠-٤٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ⑨ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ ④ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٤، ٥].

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ㉑ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢-٨٥].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ⑫ وَثَمُودُ

وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٥، ٦].

فأخبر أن المكذبين له سيأتيهم فى المستقبل أخبار القرآن الذى استهزءوا به وبين أن ما أخبرهم به حق بوقوع الخبر مطابقًا للخبر وكان الأمر كذلك ومثله قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

أخبر أنه سيريهم فى أنفسهم وفى الآفاق ما يبين أن القرآن حق، بأن يروا ما أخبر به كما أخبر به، ثم قال: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] فإنه قد يشهد للقرآن بأنه حق بالآيات البينات والبراهين الدالة على صدقه التى تتبين بشهادة الرب بأنه حق فلا يحتاج مع الشهادة الحاضرة إلى انتظار الآيات المستقبلة.

وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ١-٥].

أخبر باقتراب الساعة وانشقاق القمر. وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه وتواترت به الأخبار وكان النبى ﷺ يقرأ هذه السورة فى المجامع الكبار مثل الجمع والأعياد، ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار وكل الناس يقر ذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلومًا عند الناس عامة. ثم ذكر حال الأنبياء ومكذبيهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ



وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٩-١٥].

فأخبر أنه أبقى السفن آية على قدرة الرب وعلى ما جرى لنوح مع قومه، ثم قال: فكيف كان عذابي لمن كذب ونذري؟ وكذلك ذكر قصة عاد وثمود ولوط وغيرهم. يقول في عقب كل قصة: فكيف كان عذابي ونذر؟ ونذر إنذاره وهو ما بلغته عنه الرسل من الإنذار، وكيف كانت عقوبته للمنذرين: والإنذار: هو الإعلام بالمخوف، فتبين بذلك صدق ما أخبرت به الرسل من الإنذار وشدة عذابه لمن كذب رسله، وذكر قصة فرعون فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤١-٤٥].

وذكر في قصة محمد ﷺ مع الناس أنواعا من ذلك فقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٢-٤].

ومثل هذا كثير في القرآن في ذكر دلائل النبوة وأعلام الرسالة ليس هذا موضع بسطه، وإنما المقصود هنا التنبيه على جنس ذلك. وما يذكره بعض أهل الكتاب أو غيرهم من أنه نصر فرعون ونمرود وسنجاريب وجنكسخان وغيرهم من الملوك الكافرين. جوابه ظاهر، فإن هؤلاء لم يدع أحد منهم النبوة وأن الله أمره أن يدعو إلى عبادته وطاعته، ومن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار: بخلاف من ادعى أن الله أرسله بذلك فإنه لا يكون إلا رسولا صادقًا ينصره الله ويؤيده وينصر أتباعه ويجعل العاقبة لهم. أو يكون كذابًا فينتقم الله منه ويقطع دابره، ويتبين أن ما جاء به ليست من الآيات والبراهين التى لا تقبل المعارضة بل هى من جنس مخارق السحرة والكهان والكذابين التى تقبل المعارضة، فإن معجزات الأنبياء من خواصها أنه لا يقدر أحد أن يعارضها ويأتى بمثلها بخلاف غيرها، فإن معارضتها ممكنة فتبطل بدلالتها والمسيح الدجال يدعى الألوهية ويأتى بخوارق، ولكن نفس دعواه الألوهية دعوى ممتنعة فى نفسها، ويرسل الله عليه المسيح ابن مريم فيقتله ويظهر كذبه، ومعه ما يدل على كذبه من وجوه. منها أنه مكتوب بين عينيه كافر. ومنها أنه أعور والله ليس بأعور ومنها أن أحداً لن يرى ربه حتى يموت. ويريد أن يقتل الذى قتله أولاً فيعجز عن قتله. فمعه من الدلائل الدالة على كذبه ما يبين أن ما معه ليس آية على صدقه، بخلاف معجزات الأنبياء فإنه لا يمكن أحد من الإنس والجن أن يأتى بنظيرها ولا يبطلها، مثل قلب العصا حية لموسى، وإخراج ناقة لصالح من الأرض وإحياء الموتى للمسيح، وانشقاق القمر وإنزال القرآن وغير ذلك لمحمد ﷺ، فإن المشركين لما سألوا النبى ﷺ آية واقترحوا عليه انشقاق القمر فأراهم ذلك.



وقد أخبر الله تعالى بذلك في القرآن فقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ١- ٨].

ثم ذكر تعالى ما جرى قبله للمكذبين مع رسلهم فذكر قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ثم فرعون وهذه السورة كان النبي ﷺ يقرأ بها في أعظم اجتماعات الناس عنده وهي الأعياد، والناس كلهم يسمعون ما يذكره من انشقاق القمر. وقول المكذبين إنه سحر، والناس كلهم: المؤمن به والمنافق، والكافر، يقرون على هذا، **لم يقل أحد منهم إن القمر لم ينشق ولا أنكره أحد وفي صحيح مسلم أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي ما يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر، فقال: «كان يقرأ فيها بقاف والقرآن المجيد واقتربت الساعة وانشق القمر» ومعلومك بالضرورة في مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك فضلاً عن أعدائه من الكفار والمنافقين لاسيما وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مجامعهم.** وأيضًا فمعلوم أن محمدًا ﷺ كان من أحرص الخلق على تصديق الناس له واتباعهم إياه مع أنه كان أخبر الناس بسياسة الخلق، فلو لم يكن القمر انشق لما كان يخبر بهذا ويقرأ على جميع الخلق ويستدل به ويجعله آية له، فإن من يكون من أقل الناس خبرة بالسياسة لا يتعمد إلى ما يعلم جميع الناس أنه كاذب به فيجعله من أعظم آياته الدالة على صدقه ويقرأه على الناس في أعظم المجامع، وهي اقتربت الساعة وانشق القمر بصيغة الفعل الماضي، ولم يقل قامت الساعة ولا تقوم بل اقتربت -أي دنت- اقتربت وانشق القمر الذي

هو دليل على نبوة محمد ﷺ وعلى إمكان انخراق الفلك الذى هو قيام القيامة، وهو سبحانه قرن بين خبره باقتراب الساعة وخبره بانشقاق القمر فإن مبعث محمد ﷺ هو من أشراط الساعة وهو دليل على قربها، كما قال ﷺ فى الحديث الصحيح **«بعثت أنا والساعة كهاتين وجمع بين أصبعيه السبابة والوسطى»** وقد قال تعالى: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا**﴾ [محمد: ١٨].

وعلم الساعة أخفاها الله عن جميع خلقه، كما يذكر ذلك عن المسيح فى الإنجيل أنه لما سئل عنها فقال: [إنها لا يعلمها أحد من الناس ولا الملائكة ولا الابن وإنما يعلمها الأب وحده] وهذا مما يدل على أنه ليس هو رب العالم وكذلك محمد ﷺ أخبر بذلك لما سئل عنها. قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال: **«تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله»** فانشقاق القمر كان آية على شيئين على صدق الرسول ﷺ، وعلى مجىء الساعة وإمكان انشقاق الفلك، فإن المنكرين لقيام القيامة الكبرى قيام الناس من قبورهم لرب العالمين وانشقاق السموات وانفطاوها سواء أقروا بالقيامة الصغرى وأن الأرواح بعد الموت تتنعم وتعذب، كما هو قول الفلاسفة اللاإلهيين وأنكروا المعاد مطلقًا كما أنكر ذلك من أنكره من مشركى العرب والفلاسفة الطبيعيين وغيرهم ينكرون انشقاق السموات ويزعم هؤلاء الدهرية أن الأفلاك لا يجوز عليها الانشقاق، كما ذكر ذلك أرسطو وأتباعه وزعموا أن الانشقاق يقتضى حركة مستقيمة وهى ممتنعة بزعمهم فى الفلك المحدد إذ لا خلاء وراءه عندهم وهذا لو دل فإنما يدل على ذلك فى الفلك الأطلس لا فيما دونه فكيف وهو باطل فإن الحركة المستقيمة

هناك بمنزلة جعل الأفلاك ابتداء فى هذه الأحياز التى هى فيها سواء سمى خلاء أو لم يسم كما هو مذكور فى غير هذا الموضع. والمقصود هنا أنه تعالى أخبرنا بانشقاق القمر مع اقتراب الساعة؛ لأنه دليل على إمكان انشقاق الأفلاك وانفطارها الذى هو قيام الساعة الكبرى وهو آية على نبوة محمد ﷺ الذى هو من أشراط الساعة والله تعالى فى كتابه يجمع بين ذكر القيامة الكبرى والصغرى كما فى سورة الواقعة ذكر أولها القيامة الكبرى وفى آخرها القيامة الصغرى، وذلك كثير فى سور القرآن مثل سورة ق وسورة القيامة وسورة التكاثر وسورة الفجر وغير ذلك، وقد استفاضت الأحاديث بانشقاق القمر. ففى الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه فقال رسول الله ﷺ «اشهدوا» وفى لفظ «ونحن معه بمنى» فقال كفار قريش سحركم ابن أبى كبشة فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان ساحر القمر فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر هل رأوا هذا، فأتوا فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك، وعن أنس بن مالك أنه قال: «سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين حتى رأوا حراء بينهما فنزلت ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ﴾ [القمر: ١، ٢].

وهذا حديث صحيح مستفيض رواه ابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس، وهو أيضًا معروف عن حذيفة قال: أبو الفرج ابن الجوزى: والروايات فى الصحيح بانشقاق القمر عن عمرو بن مسعود وابن عباس وأنس -رضى الله عنهم- ولما زعموا أن هذا القرآن هو ألفه.

قال الله تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]. ثم تحداهم بعشر سور فقال تعالى: ﴿ **أَمْ**

يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿١٣﴾ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ [هود: ١٣، ١٤]. ثم تحداهم بسورة واحدة فقال: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿٢٣﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالى أيضًا: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ [يونس: ٣٨]. فعجز جميع الخلق أن يعارضوا ما جاء به ثم سجل على جميع الخلق العجز إلى يوم القيامة، بقوله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فأخبر من ذلك الزمان أن الإنس والجن إذا اجتمعوا لا يقدرون على معارضة القرآن بمثله فعجز لفظه ومعناه ومعارفه وعلومه أكمل معجزة وأعظم شأنًا والأمر كذلك فإنه لم يقدر أحد من العرب وغيرهم مع قوة عداوتهم له وحرصهم على إبطال أمره بكل طريق وقدرتهم على أنواع الكلام أن يأتوا بمثله، وأنزل الله إذ ذاك آيات بين فيها أنه رسول الله ﷺ إليهم ولم يذكر فيها أنه لم يرسل إلى غيرهم.

فقال تعالى في سورة القصص: ﴿لقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴿٤٣﴾ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴿٤٤﴾ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ﴿٤٥﴾ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قومًا ما



أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٣- ٤٧].

وقال فى سورة السجدة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ٣].

وقال فى سورة يس: ﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس: ١- ٦].

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الثلاثة نعمته عن هؤلاء وحجته عليهم بإرساله وذكر بعض حكمته فى إرساله، وذلك لا يقتضى أنه لم يرسل إلا لهذا بل مثل هذا كثير معروف فى لسان العرب وغيرهم.

قال تعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

ومعلوم أن فى هذه الدواب منافع غير الركوب، وقال تعالى: ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (١٥) يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]. فقد أخبر أنه ينزل الملائكة بالوحى على الأنبياء لينذروا يوم القيامة وذلك لا يمنع أن يكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين والأمر والنهى بالشرائع.

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢].

فأخبر تعالى أنه خلق العالم العلوى والسفلى ليعلم العباد قدرته وعلمه، ومع هذا ففى خلق ذلك له من الحكمة أمور أخرى غير علم العبادة ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧].

ومعلوم أن فى جعل الكعبة قيامًا للناس والهدى والقلائد حكما ومنافع أخرى.

وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

ومعلوم أن فى ملك الله حكمًا أخرى غير جزاء المحسن والمسيء، وكذلك قوله: ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ- إلى قوله- رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٢- ١٦٥].

ومعلوم أن فى إرسال الرسل سعادة من آمن بهم وغيرها حكم أخرى غير دفع حجة الخلق على الله.

إخباره النبى ﷺ عن الغيب، الماضى والحاضر والمستقبل

وآياته ﷺ قد استوعبت جميع الآيات الفعلية والخبرية، فإخباره عن الغيب الماضى والحاضر والمستقبل بأمور باهرة، لا يوجد مثلها لأحد من النبيين قبله، فضلاً عن غير النبيين، ففى القرآن من إخباره الغيوب شيء كثير كما تقدم

بعض ذلك، وكذلك فى الأحاديث الصحيحة مما أخبر بوقوعه، فكان كما أخبر.

ففى الصحيحين عن حذيفة قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاما ما ترك شيئًا يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابى هؤلاء وإنه ليكون منه الشىء قد نسيته فأراه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم رآه عرفه.

وفى صحيح مسلم عن أبى زيد عمرو بن أحطب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى بنا، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس، قال: وأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأحفظنا أعلمنا.

وفى صحيح البخارى عن عدى بن حاتم قال: بينا أنا عند النبى ﷺ، إذ جاء رجل فشكى إليه الفاقة، ثم آتى آخر فشكى إليه قطع السبيل، فقال ﷺ يا عدى «هل رأيت الحيرة» فقلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال ﷺ: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حين تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدًا إلا الله، قال: قلت فيما بينى وبين نفسى: فأين ذعارطى الذين سعروا البلاد؟ ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى؛ قلت: **كسرى بن هرمز؟** قال ﷺ: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أعطك مالا وأفضل عليك؟ فيقول: بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم» قال عدى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اتقوا النار ولو بشق ثمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».**

قال عدى: **فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز،** ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال رسول الله ﷺ: «يخرج الرجل ملء كفه».

قلت: وهذا الذى أخبر به من خروج الرجل ملء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله، ظهر كما أخبر، فى زمن عمر بن عبد العزيز.

وفى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة عن نافع بن عتبة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة فأتى النبى ﷺ قوم من قبل المغرب عليهم ثياب الصوف، فوافقوه عند أكمة، فإنهم لقيام رسول الله ﷺ قاعد. قال: فقلت لنفسى: آتيهم فقم بينهم وبينه لا يغتالونه، قال: ثم قلت لعله يجىء معهم، فأتيتهم فقمت بينه وبينهم، قال فحفظت منه أربع كلمات أعدهن فى يدى. قال: **«تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم تغزون فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله».**

وروى البخارى عن عوف بن مالك قال: أتيت النبى ﷺ فى **«غزوة تبوك»** وهو فى قبة أدم. فقال: أعدوا أشياء بين يدى الساعة موتى وفتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كعقاص الغنم، ثم استفاضة المال، ثم يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بنى الأصفر، فيقدرون فيأتونكم تحت ثمانين غابة كل غابة اثنا عشر ألفًا.

قلت ففتح بيت المقدس بعد موته فى خلافة عمر بن الخطاب، ثم بعد ذلك وقع الطاعون العظيم بالشام (طاعون عمواس) فى خلافة عمر أيضًا، ومات فيه معاذ بن جبل، وأبو عبيدة الجراح وخلق كثير، وكان ذلك أول طاعون وقع فى الإسلام، فكان مما أخبر به حيث أحدهم يعطى مائة دينار فيسخطها،



حتى كانت الفرس تشترى بوزنها، ثم وقعت الفتنة العامة التى لم يبق من العرب بيت إلا دخلته لما قتل عثمان، واتسعت الفتنة بين المسلمين يوم الجمل وصفين.

وفى الصحيحين عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله لنا، ألا تستنصر لنا. قال فجلس محمراً وجهه ثم قال ﷺ: **«والله إن من كان قبلكم ليؤخذ الرجل فيمشط بأمشاط الحديد ما بين لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويؤخذ فتحفر له الحفيرة فيوضع المنشار على رأسه، فيشق باثنتين، ما يصرفه عن دينه وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل أو الذئب على غنمه ولكنكم تعجلون»**.

وفى الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين، حمر الوجوه، دلف الأنف كأن وجوههم المجان المطرقة، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلون قومًا نعالهم الشعر.

قلت: وهؤلاء الطوائف كلهم قاتلهم المسلمون كما أخبر ﷺ وأمر هذه الطوائف معروف، فإن قتال الترك من التتار وغيرهم الذين هذه صفتهم معروف مشهور، وحديثهم فى أكثر من عشرة آلاف نسخة، كبار وصغار من كتب المسلمين، قبل قتال هؤلاء الذين ظهروا من ناحية المشرق، الذين هذه صفتهم، التى لو كلف من رآهم بعينه أن يصفهم لم يحسن مثل هذه الصفة.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال **«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز، وتضيء لها أعناق الإبل ببصرى»**.

وقد ظهرت هذه النار سنة بضع وخمسين وستمائة، ورآها الناس، ورأوا أعناق الإبل قد أضاءت ببصرى، وكانت تحرق الحجر ولا تنضج اللحم.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد وأسماء، أن رسول الله ﷺ قال لعمار بن ياسر: «تقتله الفئة الباغيةَ».

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «هلكَ كَسرى، ثم لا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن، ثم لا يكون قيصر بعده، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنورهما في سبيل الله».

وفي الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لتفتحن عصابة من المسلمين، أو قال المؤمنين، كنز آل كسرى الذي في الأبيض».
والأبيض قصر كان لكسرى، وفتح هذا الكنز سعد في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه-.

وفي صحيح البخاري عن أبي بكرة عن النبي ﷺ أنه قال عن الحسن ابن ابنته، وهو يخطب على المنبر: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

قلت فوقع هذا كما أخبر بعد موت الرسول ﷺ بنحو ثلاثين سنة وهو سنة أربعين من الهجرة، لما أصلح الله بالحسن بين الفئتين العظيمتين كانتا متحاربتين، صف عسكر علي، وصف عسكر معاوية.

وفي الصحيحين عن ابن عباس، أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنظف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها بأيديهم، فمنهم المستكثر والمستقل، ثم إذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل بعدك



فعلاً، ثم أخذ به رجل آخر فـعلا ثم أخذ به رجل آخر فانقطع، ثم وصل له فَعَلاَ.

قال أبو بكر: يا رسول الله بابى أنت وأمي: لتدعنى فلأعبره فقال: عبر.

قـال أبو بكر: أمـا الظلة فظـلة الإسـلام -وأما الـذى تنظف من السـمن والعسل فـهو القرآن، حـلاوته ولينه، وأما مـا يتكفف، فالمسكثـر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض، فالحق الذى أنت عليه فأخذت به فـيعليك الله ثم يأخذ به رجل من بعدك فـيعلو، ثم يأخذ به رجل فيـعلو، ثم يأخذ به رجـل آخر فينقطـع، ثم يوصل له فيـعلو به، فأخـبرنى رسول الله: أصبت أم أخطأت؟ فقال: «أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا».

قال: فوالله يا رسول الله لتخبرنى بالذى أخطأ؟ قال: لا تقسم.

وفى الصحيحين عن أبى هـريرة -رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«بينا أنا نائم رأيتنى على قلـيب عليها دلـو فنزعت منها مـا شاء الله ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منهـا، ذنوبا أو ذنوبين، وفى نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غربًا فأخذ ابن الخطاب فلم أر عـبقريًا من الناس ينزع نزع عمر، حتى ضرب الناس بعطن»**.

وفى رواية **«فاستحالت الدلو غربا فى يد عمر»**.

قال الشافعى: **«رؤيا الأنبياء وحى»**.

وقوله: «فى نزعه ضعف» قصـر مدته، وعجله موته، وشـغله بالحرب مع أهل الردة عن الافتتاح والمزيد الذى بلغه عمر فى طول مدته.

وفى الصحيـحين عن محمـد بن جبير بن مطعم عن أبيـه أن امرأة سألت رسول الله ﷺ شيئًا، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: يا رسول الله، أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ قال: أى كأنها تعنى الموت.

قال ﷺ: «فإن لم تجديني فائتي أبا بكر».

وروى أبو داود الطيالسي عن أبي ثعلبة الخشني، وعن أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: **«إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة وكائنًا خلافة ورحمة، وكائنًا ملكًا عضوضًا، وكائنًا عنوة وجبرية وفسادًا في الأمة، يستحلون الفروج والخمور والحرير، وينصرون على ذلك، ويرزقون أبدًا حتى يلقوا الله عز وجل»**.

وروى أبو داود الطيالسي عن سمرة بن جندب أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني رأيت كأن دلوًا دلي من السماء، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شربًا ضعيفًا ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء عليّ فأخذ بعراقيها فانتشطت وانتضح عليه منه شيء.

وفي السنن عن سفينة عن النبي ﷺ أنه قال: «تكون خلافة النبوة ثلاثين سنة، ثم تصير ملكًا». فكان هذا العام تمام الثلاثين سنة من موته، ودخل في **ذلك خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي**.

قلت: وتمامها ستة أشهر، التي استخلف فيها سيدنا الحسن السبط رضوان الله عليه وعلى سائر أصحاب رسول الله ﷺ، وأهل بيته الطاهرين.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»**.

وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتي سيبلغ ملكها مازوى لي منها وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال**



لي: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا».

وهذا أخبر به في أول الأمر وأصحابه في غاية القلة قبل فتح مكة، وكان أخبر، فإن ملك أمته انتشر في الشرق والغرب، ولم ينتشر في الجنوب والشمال، كانتشاره في الشرق والغرب. إذ كانت أمته أعدل الأمم، فانتشرت دعوته في الأقاليم التي هي وسط المعمورة من الأرض، كالثالث، والرابع، والخامس، وقد تقدم ﷺ قوله: **«إذا هلك كسرى فلا يكون كسرى بعده»**، وذاك كسرى بن هرمز آخر الأكاسرة المملكين، ثم ولي ولاة مستضعفون، فكان آخرهم «يزدجرد» وإليه الإشارة باللفظ الآخر: **«إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**.

وهذا أخبر به وملك كسرى وقيصر أعز ملك في الأرض، وصدق الله خبره في خلافة عمر وعثمان، فهلك كسرى وهو آخر الأكاسرة في خلافة عثمان، بأرض فارس، ولم يبق بعده كسرى، ولم يبق للمجوس والفرس ملك، وهلك قيصر بأرض الشام وغيرها، ولم يبق بعده من هو ملك على الشام، ولا مصر، ولا الجزيرة من النصارى، وهو الذي يدعى قيصر.

قال الشافعي: كانت قريش تنتاب الشام انتيابًا كثيرًا، وكان كثير من معايشها منه، وتأتي العراق فيقال: لما دخلت في الإسلام ذكرت للنبي ﷺ عليه وسلم خوفها من انقطاع معايشها بالتجارة من الشام والعراق، إذا فارقت الكفر ودخلت في الإسلام، وخلاف ملك الشام والعراق لأهل الإسلام.

فقال النبي ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده» فلم يبق بأرض العراق كسرى يثبت له أمر بعده.

وقال: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» فلم يكن بأرض الشام قيصر، فأجابهم على ما قالوا، وكان كما قال، قطع الله الأكاسرة عن العراق وفارس وقيصر عن الشام.

وقال في كسرى: «مزق الله ملكه» فلم يبق للأكاسرة ملك، وقال في قيصر: «ثبت ملكه» فثبت ملكه ببلاد الروم وتنحى عن الشام. وكل هذا يصدق بعضه بعضًا.

وفي الصحيحين عن سفيان بن زهير قال: قال رسول الله ﷺ «تفتح اليمن»، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. ثم تفتح الشام، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم تفتح العراق فيأتي قوم يوم متحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» وفي رواية فيخرج من المدينة.

فأخبر ﷺ بفتح اليمن والشام والعراق قبل أن يكون، وأخبر أنه يخرج من المدينة أقوام يتحملون بأهليهم ومن أطاعهم إلى هذه الأمصار، ويطلبون الشرف وسعة الرزق، قال: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعملون».

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «ستفتح مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط، فأستوصوا بأهلها خيراً».

وفي رواية: «فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمًا، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان على موضع لبنة فاخرج مَنها».

فمر أبو ذر بعد فتح مصر بمدة، بابْنَيْ شرحبيل بن حسنة وهما يتنازعان في موضع لبنة، فخرج منها.

وفى صحيح البخارى عن سليمان بن صرد قال: سمعت النبى ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه «الآن نغزوهم ولا يغزونا» وكذلك كان.

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرأن أن رسول الله ﷺ قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم أىُّ قوم أنتم».

قال عبد الرحمن بن عوف نقول كما أمرنا الله.

قال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، ثم تنطلقون فى مساكن المهاجرين، فتحملون بعضهم على رقاب بعض».

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة، أنه لما أنزل ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٢، ٣].

سئل النبى ﷺ عن هؤلاء الآخرين فقال: «لو كان الدين معلقًا بالثريا لناله رجال من أبناء فارس» وفى لفظ «لو كان الإيمان» وفى لفظ «العلم» وكان كما أخبر، فإنه حصل فى التابعين وتابعيهم وهَلُمَّ جرًا، من أبناء فارس، مثل الحسن البصرى، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبير، وأضعاف هؤلاء، مَنّ نالوا ذلك.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، سئل عنهم فقال: (هم قوم هذا) وأشار إلى أبى موسى الأشعرى، وقال: (إنى لا أجد نفس الرحمن من قِبَلِ اليمن).

وفي الصحيحين عنه أنه قال ﷺ: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوبًا وألين أفئدة، الإيمان يماني، والحكمة يمانية».

فلما ارتد من ارتد عن الإسلام أتى الله بهؤلاء الذين يحبهم ويحبونه، فقاتل الصديق بهم أهل الردة، وغلب بهم أبو بكرٍ وعمر، كسرى وقيصر.

وقال لعثمان بن عفان: «إن الله مقمصك قميصًا، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه».

وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: بينا رسول الله ﷺ في حائط من حوائط المدينة وهو متكيء يركز بعود في الماء والطين إذا استفتح رجل فقال: «افتح وبشره بالجنة» فإذا هو أبو بكر، ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر فقال: «افتح له وبشره بالجنة» فذهبت فإذا هو عمر، ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر فقال: «افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه» فذهبت فإذا هو عثمان، ففتحت له وبشرته بالجنة، وقلت له الذي قال، فقال: اللهم صبرًا، والله المستعان.

وفي الصحيحين حديث حذيفة عن النبي ﷺ في الفتن التي تموج موج البحر، وقال لعمر «إن بينك وبينها بابًا مغلقًا، يوشك ذلك الباب أن يكسر» فسأله مسروق من الباب فقال: عمر.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فَلْيَعُذْ به» رواه أبو بكرة.

وقال فيها: «فإذا وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه».



قال: فقال رجل، يا رسول الله، أرأيت إن لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال ﷺ: «يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة، اللهم هل بلغت؟».

فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بى إلى أحد الصفين، أو أحد الفئتين، فضربنى رجل بسيفه، أو نحى سهم فيقتلنى؟ قال ﷺ: «يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار».

وفى صحيح أبى حاتم قال النبى ﷺ «ويل للعرب، من شر قد اقترب، أو فتنة عمياء صماء بكماء، القاعد فيها خير من الماشى، والماشى خير من الساعى، ويل، الساعة فيها من الله يوم القيامة».

وفى الصحيحين عنه أنه قال ﷺ: «إنى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم، كمواقع القطر».

وفى الصحيحين من غير وجه أنه لما قال له ذو الخويصرة: يا محمد، اعدل فإنك لم تعدل، فقال ﷺ: «ويحك قد خبت وخسرت إن لم أعدل».

فقال بعض أصحابه: دعنى أضرب عنق المنافق.

فقال النبى ﷺ: «إنه يخرج من ضئضىء هذا أقوام، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم أن فيهم رجلا مخدج اليد، على عضده مثل البضعة من اللحم، تدور عليها شعرات».

وفى رواية فى الصحيحين قوله ﷺ: «تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أدين الطائفتين إلى الحق».

وهؤلاء ظهروا بعد موته ببضع وعشرين سنة فى أواخر خلافة على لما افترق المسلمون، وكانت الفتنة بين عسكر على وعسكر معاوية، وقتلهم على ابن أبى طالب وأصحابه، وهم أدنى الطائفتين إلى الحق، والطائفة الأخرى قتلوا عمار بن ياسر، وهى الطائفة الباغية.

وكان على قد أخبرهم بهذا الحديث وبعلامتهم، وطلبوا هذا المخدج فلم يجدوه، حتى قام علىٌ بنفسه، ففتش عليه، فوجده مقتولا، فسجد شكرًا لله.

وفى الصحيح عنه أنه قال: «ستكون بعدى أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معها نافلة».

وهؤلاء ظهروا بعده بمدة، فكانوا يؤخرون الظهر إلى وقت العصر، ويؤخرون العصر إلى اصفرار الشمس.

وفى الصحيحين عنه أنه قال ﷺ: **«إنكم ستلقون بعدى أثرة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض»** فلقوا بعده من استأثر عليهم ولم يعطهم حقهم.

وفى الصحيحين عنه أنه قال ﷺ: **«ستكون بعدى أمراء، يطلبون منكم حقهم ويمنعونكم حقكم»** قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«أدوا إليهم حقهم واسئلوا الله حقكم»**.

وفى الصحيحين عنه أنه سارٌ فاطمة فقال لها وهو فى مرضه الذى توفى فيه «إنى أقبض فى مرضى هذا» ثم أخبرها أنها أول أهله لحوقا به».

وفى رواية «وأخبرها أنها سيدة نساء المؤمنين».

وفى الصحيحين عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: **«أسرعكن لحاقًا أطولكن يدًا»** قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا، فكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق.



وفى صحيح البخارى وغيره عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «**أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور لهم**».

وفى صحيح البخارى، عن أم حرام أيضًا، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا».

قالت: يا رسول الله، أنا فيهم؟ قال ﷺ: «**أنت فيهم**» قالت: ثم قال النبى ﷺ: «**أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**».

فقلت: يا رسول الله «أنا فيهم؟» قال ﷺ: لا

وغزاها المسلمون فى خلافة معاوية، وكان يزيد أميرهم، وكان فى المعسكر، أبو أيوب الأنصارى الذى نزل النبى ﷺ فى بيته لما قدم المدينة مهاجرا، ومات ودفن تحت سورها، وذكروا أنهم كانوا إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فَيُسْقَوْن[1].

ثم غزاها المسلمون مرة ثانية، وفى خلافة عبد الملك، غزاها ابنه مسلمة، وحصروها مدة سنين وبنوا فيها مسجداً.

وفى الصحيحين عن أنس قال: كان النبى ﷺ يدخل على أم حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها

---

(١) قوله: (وذكروا أنهم كانوا إذا أجدبوا كشفوا عن قبره فيسقون). كلام نرى أنه من الأهدى والأجدى، إبعاده من طريق الموحدين، حتى لا يدخل عليهم الشبهات والضلالات.

ونحن مع احترامنا لشيخ الإسلام ولآرائه، ولعقيدته، لا نوافقه على صحة هذا الذى رواه، إذ أنه لا يتفق ومذهب شيخ الإسلام نفسه فى تخليص التوحيد مما علق به من خرافات وأضاليل، وفى إخفاء قبر دانيال النبى عظة وعبرة.

على أن الإسناد الذى اعتمده شيخنا شيخ الإسلام -رضى الله عنه- فى عرض هذه الرواية، لا ينسجم مع طريقته فى التمحيص والتدقيق والتحقيق، إذ أنه صدر «الرواية» بقوله: «ذكروا»؛ فمن هم هؤلاء الذين ذكروا؟ هل هم ثقات عدول، أو غير ذلك.

من أجل هذا كله، فنحن لا نقبل هذه الرواية، وإنما نردها بقوة.

رسول الله ﷺ فأطعمته، وجعلت تفلى رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: مم تضحك؟ قال ﷺ: «عرض على ناس من أمتى يركبون ثبج هذا البحر، ملوكا على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة» فقالت أم حرام: أدع الله أن يجعلنى منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: مم تضحك؟ فقال ﷺ: «**عرض على ناس من أمتى**» كما قال فى الأولى، فقالت: يا رسول الله أدع الله يجعلنى منهم، قال ﷺ: «**أنت من الأولين**».

قال أنس: فركبت البحر زمان معاوية بن أبى سفيان، فصرعت عن دابتها لما خرجت من البحر فماتت، وهذا كان فى خلافة عثمان، ومعاوية نائبه.

وكان المسلمون فى خلافة عمر لم يغزوا فى البحر، وأول ما غزوا البحر فى خلافة عثمان، وفتحوا جزيرة قبرص، وجاءوا بسبيها إلى دمشق.

وكان أبو الدرداء حيا بدمشق، فجعل يبكى، فقيل له: ما يبكيك يا أبا الدرداء، هذا يوم قد أعز الله فيه الإسلام؟ فقال: إنما أبكى أنى رأيت هذه الأمة كانت قاهرة ظاهرة، فأضاعت أمر الله، فأصارها الله إلى ما ترون، ما أهون العباد على الله إذا ضيعوا أمره؟

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: «**سألت ربى ثلاثا، فأعطانى اثنتين، ومنعنى واحدة، سألته أن لا يسلط على أمتى عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها، وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها**».

وثبت عنه فى الصحيحين أنه قال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة**».



وهذا أخبر به حين كانت أمته أقل الأمم، فانتشرت الأمة في مشارق الأرض ومغاربها وكان كما أخبر به، فإن هذه الأمة -ولله الحمد والمنة- لم يزل فيها طائفة ظاهرة بالعلم والدين والسيف، لم يصبها ما أصاب من قبلها من بني إسرائيل وغيرهم، حيث كانوا مقهورين مع الأعداء، بل إن غلبت طائفة في قطر من الأرض، كان في القطر الآخر أمة ظاهرة منصورة، ولم يسلط على مجموعها عدوا من غيرهم، ولكن وقع بينهم اختلاف وفتن.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار، لم أرهما بعد، قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا».

وهؤلاء ظهروا بعده بمدة طويلة، وظهر النسوة بعد ذلك بسنين كثيرة، وعلى رءوسهن عمائم كأسنمة الجمال البخاتي، يسمون العمائم سنام الجمل[1].

وفي حديث مسلم عن أسماء بنت أبي بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون في ثقيف كذاب ومبير».

وظهر الكذاب من ثقيف، وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي أظهر التشيع والانتصار للحسين، وقتل عبيد الله بن زياد وغيره من قتلة الحسين، ثم أظهر أنه يوحى إليه، وأنه ينزل عليه حتى قيل لابن عمر وابن عباس عنه، قيل لأحدهما: إنه يوحى إليه، وللآخر أنه ينزل عليه.

فقال أحدهما: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

---

(١) وصف ابن تيمية، ما رآه في عصره، ولو عاش معنا الآن لرأى ما عناه النبي ﷺ في نسائنا الكاسيات العاريات.

وقال الآخر: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

وأما المبير، فكان هو الحجاج بن يوسف الثقفى، وكان مبيرًا سفاكًا للدماء بغير حق، انتصارا لملك عبد الملك بن مروان، الذى استنابه.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: لقد قال رسول الله ﷺ يوما «أيكم يبسط ثوبه، فيأخذ من حديثى فيجمعه إلى صدره فإنه لن ينسى شيئًا سمعه». فبسطت بردة على حتى فرغ من حديثه، ثم جمعتها إلى صدرى، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئًا سمعته منه.

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثنى عشر خليفة، كلهم من قريش**».

وفى لفظ: «إلى اثنى عشر أميرًا».

وفى رواية لأبى داود الطيالسى «كلهم يجتمع عليهم الأمة».

وفى رواية فقالوا: ثم يكون ماذا؟ قال: «ثم يكون الهرج».

قال أبو بكر البيهقى: وفى الرواية الأولى بيان العدد، وفى الثانية بيان المراد بالعدد، وقد بين وقوع الهرج، وهو القتل بعدهم.

وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبد الملك ثم وقع الهرج والفتنة العظمى، وإنما يزيدون على العدد المذكور إذا تركت الصفة المذكورة فيه أو أوعد معهم من كان بعد الهرج.

وفى الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**هل لك من أنماط؟**» قلت: يا رسول الله، وأنى يكون لى أنماط؟ فأنا أقول اليوم لامرأتى: نحى عنك أنماطك، فتقول: ألم يقل رسول الله ﷺ: «**إنها ستكون لكم أنماط؟**».



وفى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت أنه وضع فى يدى سواران من ذهب، فقطعتهما فكرهتهما، فأذن لى فى نفختهما، فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدى».

قال عبد الله: أحدهما العنسى الذى قتل فيروز الديلمى باليمن، والآخر مسيلمة.

وفى الصحيحين من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ قال - وهو مستقبل المشرق- «ها إن الفتنة هاهنا، ها إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان».

وفى بعض طرق البخارى قام خطيبًا فأشار بيده نحو مسكن عائشة فقال: وذكر الحديث.

فالمشرق عن مدينته فيه البحرين، ومنها يخرج مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة، وهو أول حادث حدث بعده، واتبعه خلائق، وقاتله خليفته الصديق.

وروى أبو حاتم فى صحيحه، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت النبى ﷺ يقول: **«إن بين يدى الساعة كذابين، منهم صاحب اليمامة، ومنهم صاحب صنعا العنسى. ومنهم صاحب حمير، ومنهم الدجال وهو أعظمهم فتنة، وصاحب اليمامة هو مسيلمة قال:** وقال أصحابى: قال: **«هم قريب من ثلاثين كذابًا»**.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون، دجالون كذابون، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يفيض المال، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج»**: قالوا وما الهرج يا رسول الله؟ قال ﷺ: **«القتل القتل»**.

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر قال: ركب رسول الله ﷺ حمارًا وأردفنى خلفه ثم قال: «يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد حتى لا

تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟» فقال: الله ورسوله أعلم قال: «تعفف» قال: «يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد حتى يكون البيت بالوصيف، كيف تصنع؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «اصبر» -«يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضًا حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟» قال الله ورسوله أعلم، قال ﷺ: «اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك» فقال: أرأيت إن لم أترك؟ قال: «فائت من أنت منه فكن فيهم» قال: فإن أخذ سلاحي؟ قال: «إذا تشاركهم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك، يبوء بإثمك وإثمه».

وفيه عن ابن مسعود قال: أتيت النبي ﷺ وهو في قبة من أدم، فيها أربعون رجلا، فقال: «إنكم فاتحون ومنصورون، فمن أدرك ذلك الزمان منكم فليتق الله وليأمر بالمعروف ولينه عن المنكر، ومن كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

وأما الفتوح التي فتحت عليهم، والنصرة التي نصروا، فقد أخبر به في أوائل مبعثه كما تقدم ذكره، ووقع ما أخبر به.

وروى أبو حاتم في صحيحه عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب فأتته قريش، وأتاه النبي ﷺ يعوده، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل فقعد فيه، فشكوا رسول الله ﷺ إلى أبي طالب، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا.

قال: ما شأن قومك يشكونك يا ابن أخي؟

قال: «يا عم إنما أردتهم على كلمة واحدة؛ تدين لهم بها العرب وتؤدي لهم بها العجم الجزية» فقال: وما هي؟ «قال لا إله إلا الله».

فقاموا فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] قال: ونزلت: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ -إلى قوله- إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ١].

وفى صحيح ابن حبان عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم قال: لما أقبلت عائشة مرت ببعض مياه بنى عامر، طرقتهم ليلا، فسمعت نباح الكلاب، فقالت: أى ماء هذا: قالوا: ماء الحوأب، قالت: ما أظننى إلا راجعة، قالوا مهلا يرحمك الله تقدمين، فيراك المسلمون، فيصلح الله بك. قالت: ما أظنني إلا راجعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كيف بإحداكن ينبح عليها كلاب الحوأب؟

وفيه أيضًا عن على بن أبى طالب قال: قال لى عبد الله بن سلام وقد وضعت رجلى فى الغرز وأنا أريد العراق: لا تأت العراق، فإنك إن تأتهم أصابك ذنب السيف.

قال على: وأيم الله لقد قالها رسول الله ﷺ، قال أبو الأسود: فقلت فى نفسى، ما رأيت كاليوم رجلا محاربًا يحدث الناس بمثل هذا.

وهذه وأمثاله مما أخبر به ﷺ من المستقبلات، فوقع بعده كما أخبر، ورأى الناس ذلك.

وأما ما أخبر به، مما لم يقع الآن فكثير.

وقد أخبر بأشياء من المغيبات، ووقعت فى زمانه، ووجد كما أخبر، كما فى الصحيحين عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر **«لأعطين هذه الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله ﷺ يفتح الله على يديه»** فكان كذلك.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ حنينا فقال لرجل ممن يدعى الإسلام: «**هذا من أهل النار**» فلما حضرنا القتال، قاتل الرجل قتالا شديدا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذى قلت له آنفًا: إنه من أهل النار، فإنه قاتل اليوم قتالا شديدًا، فأصابته جراحة وقد مات، فقال النبى ﷺ: «**إلى النار**» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب.

فبينما هم على ذلك إذ قيل: فإنه لم يمت، ولكن به جرحًا شديدًا.

فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه فأخبر النبى ﷺ بذلك فقال ﷺ: «الله أكبر، أشهد أنى عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالا فنادى فى الناس، إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإنَّ الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر. ورواه سهل بن سعد.

وفى الصحيحين عن على رضى الله عنه قال: «بعثنى رسول الله ﷺ، وأبا مرثد الغنوى، والزبير بن العوام، والمقداد وكلنا فارس فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة ظعينة، معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها خبب، فقلنا لها: أين الكتاب؟ فقالت: ما معى كتاب، قال: فأنخنا بها، فالتمسنا الكتاب فى رحلها، فلم نر كتابًا، قال: فلنا: ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. قال: فلما رأت أنى أهويت إلى حجزتها وهى محتجزة بكساء، أخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه «من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبى ﷺ».

فقال: رسول الله ﷺ «يا حاطب، ما حملك على هذا؟» قال: لا تعجل على إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ولم أكن من أنفسها وكان من كان معك من المهاجرين لهم قربات يحمون أهلهم بمكة، فأحببت -إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم- أن أتخذ يدًا يحمون بها قرابتى، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن دينى، ولا رضاء بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ «إنه قد صدقكم» فقال عمر: دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: «قد شهد بدراً وما يدريك؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؟.



فكان فى هذا الكتاب إخبار المشركين بأن النبى ﷺ يريد غزوهم فأعلمه الله بذلك.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: نعى رسول الله ﷺ للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه، فخرج إلى المصلى وكبر أربع تكبيرات.

وفى رواية عن جابر قال: إن رسول الله ﷺ صلى على أصحمة النجاشى.

وفى لفظ من رواية أبى هريرة قال: قد مات اليوم عبد الله الصالح أصحمة فأمَّنا وصلى عليه. وفى رواية عمران بن حصين قال: إن أخًا لكم قد مات، فصلوا عليه. يعنى النجاشى.

وروى موسى بن عقبة عن ابن شهاب قصة الصحيفة، ورواها عروة بن الزبير، ومحمد بن إسحاق بمعناه قال: ثم إن المشركين اشتدوا على رسول الله ﷺ كأشد ما كانوا حتى بلغ بالمسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء وأجمعت قريش مكرها، على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية.

فلما رأى أبو طالب عمل القوم، جمع بنى عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك، مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية. ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا.

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا الرسول ﷺ واجتمعوا على ذلك، واجتمع المشركون من قريش، أجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل وكتبوا فى مكرهم صحيفة وعهودا ومواثيق، لا يقبلوا من بنى هاشم أبدًا صلحًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم فى شعبهم ثلاث سنين واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلم يتركوا طعامًا يقدم مكة، ولا بيعًا إلا بادرهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ.

زاد ابن إسحاق فى روايته قال: حتى كان تسمَع أصوات صبيانهم يتضاغون من وراء الشعب من الجوع، وغدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة، وزلزلوا زلزالاً شديدًا.

وفى الصحيحين من حديث أبى حميد الساعدى قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فأتينا وادى القرى على حديقة لامرأة، فقال رسول الله ﷺ: «اخرصوها» فخرصناها، وخرصها رسول الله ﷺ عشرة أوسق قال: «احصها حتى نرجع إليك إن شاء الله تعالى» انطلقنا حتى قدمنا «تبوك» فقال النبى ﷺ: «ستهب عليكم -الليلة- ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله» فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طى».

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان الذى أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو، وهو كعب بن عمرو، أحد بنى سلمة.

فقال له رسول الله ﷺ: «كيف أسرته يا أبا اليسر؟» فقال: لقد أعاننى عليه رجل ما رأيته بعد ولا قبل هيئته كذا وكذا.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم».

وقال للعباس: «يا عباس إفد نفسك، وابنى أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن فهر».

قال: «فإنى قد كنت مسلمًا قبل ذلك وإنما استكرهونى».

قال: «الله أعلم بشأنك، إن يك ما تدعى حقًا فالله يجزيك بذلك، وأما



ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك» وقد كان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية ذهبًا.

فقال: «يا رسول الله، احسبها لى من فداى. قال: «لا ذيك شىء أعطانا الله منك». قال: فإنه ليس لى مال: «فأين المال الذى وضعته بمكة حين خرجت عند أم الفضل وليس معك أحد غير كما؟ فقلت: إن أصبت فى سفرى هذا، فللفضل كذا، ولقثم كذا، ولعبد الله كذا؟».

قال: فوالذى بعثك بالحق ما علم بهذا أحد من الناس غيرى وغيرها، وإنى أعلم أنك لرسول الله ﷺ.

وفى صحيح البخارى عن نافع عن ابن عمر قال: أمر رسول الله ﷺ فى غزوة «مؤتة» زيد بن حارثة، فإن قتل زيد «فجعفر» وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة.

قال ابن عمر: كنت معهم، ففتشته -يعنى ابن رواحة- فوجدنا فيما أقبل من جسده بضعًا وسبعين، ما بين طعنة ورمية.

وروى البخارى عن أنس بن مالك قال: نعى رسول الله ﷺ زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس، قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال ﷺ: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر، فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فأصيب، وإن عينى رسول الله ﷺ لتذرفان، ثم أخذها خالد ابن الوليد سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم».

آيات النبى ﷺ المعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع

الأول منها: ما هو فى العالم العلوى، كانشقاق القمر، وحراسة السماء بالشهب، الحراسة التامة لما بعث، وكعراجه إلى السماء.

فقد ذكر الله انشقاق القمر، وبين أن الله فعله، وأخبر به لحكمتين عظيمتين:

إحداهما: كونه من آيات النبوة لما سأله المشركون آية، فأراهم إنشقاق القمر،

والثانية: أنه دلالة على جواز انشقاق الفلك، وأن ذلك دليل على ما أخبرت به الأنبياء من انشقاق السموات، ولهذا قال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ**﴾ [القمر: ١-٧]

فذكر اقتراب الساعة وانشقاق القمر، وجعل الآية فى انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب، لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك إذ هو الجسم المستنير الذى يظهر الانشقاق فيه، لكل من يراه ظهوراً لا يتمارى فيه، وأنه -نفسه- إذا قبل الانشقاق فقبوله محله أولى بذلك، قد عاينه الناس وشاهدوه.

وكان النبي ﷺ يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار، مثل صلاة الجمعة والعيدين، ليسمع الناس ما فيها من آيات النبوة ودلائلها، والاعتبار بما فيها، وكل الناس يقر بذلك ولا ينكره، فعلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة.

وفى صحيح مسلم: أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ فى الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيها بـ«ق» والقرآن المجيد، و«اقتربت الساعة وانشق القمر».



آية إنشقاق القمر فرقتين

ومعلوم بالضرورة فى مطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع المؤمنون به إلى تكذيب ذلك، فضلا عن أعدائه الكفار والمنافقين.

ومعلوم أنه كان من أحرص الناس على تصديق الخلق له واتباعهم إياه.

فلو لم يكن انشق، لما كان يخبر به ويقرأه على جميع الناس، ويستدل به، ويجعله آية له.

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال: إن أهل مكة سألوا نبى الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فرقتين.

وعنه قال: إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فانشق القمر فرقتين.

زاد الترمذى: فنزلت «اقتربت الساعة وانشق القمر -إلى قوله- سحر مستمر» يقول: ذاهب.

وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وعن ابن مسعود أيضًا قال: رأيت القمر منشقًا شقتين بمكة قبل مخرج النبى ﷺ، شقة على جبل أبى قبيس، وشقة على السويداء، فقال كفار قريش - أهل مكة- هذا سحر، سحركم به ابن أبى كبشة، أنظروا للسفار فإن كانوا رأوا مثل ما رأيتم، فقد صدق، وإن لم يكونوا رأوا مثل ما رأيتم، فهو سحر.

قال فسئل السفار، وقدموا من كل وجه، فقالوا: «رأينا» رواه البخارى ومسلم.

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال: انشق القمر على زمان رسول الله ﷺ.

وروى مسلم عن ابن عمر فى قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: قد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق القمر فلقتين، فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال رسول الله ﷺ «اللهم اشهد».

وعن جبير بن مطعم قال: انشق القمر ونحن بمكة، حتى صار فرقتين على هذا الجبل، وعلى هذا الجبل، فقال: وعلى هذا الجبل.

فقال للناس: سحرنا محمد ﷺ.

فقال رجل: إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم، رواه الترمذى.

آية مسرى النبى ﷺ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصعوده ليلة المعراج إلى السموات

وكذلك صعوده ليلة المعراج إلى ما فوق السموات، وهذا مما تواترت به الأحاديث، وأخبر به القرآن، أخبر بمسراه ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو بيت المقدس، وفى موضع آخر بصعوده إلى السموات فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] فأخبر - هنا- بمسراه ليلاً بين المسجدين، وأخبر أنه فعل ذلك، ليريه من آياته.

ومعلوم أن الأرض قد رأى الناس ما فيها من الآيات، فعلم أن ذلك ليريه آيات لم يرها عموم الناس، كما قال فى السورة الأخرى: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٢، ١٤].



وفى الصحيحين عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قال: هى رؤيا عين أريها النبى ﷺ ليلة أسرى به.

كان فى إخباره بالمسرى ليريه من آياته، بيان أنه رأى من آياته ما لم يره الناس، وقد بين ذلك فى السورة الأخرى، وأنه رأى جبريل عند السدرة المنتهى (**عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى**) وأنه رأى بالبصر آيات ربه الكبرى.

وذكر فى تلك السورة المسرى، لأنه أمكنه أن يقيم عليه برهانًا.

فإنه لما أخبرهم به، فكذبه من كذبه، وتعجبوا من ذلك، سألوه عن نعته وصفاته، فنعته لهم، لم يخرم من النعت شيئًا، وأخبر خبر عيرهم التى كانت فى الطريق، فظهر لهم صدقه وكان صدقه فى هذا، آية على صدقه فيما غاب عنهم، وكان قطع المسافة البعيدة فى الزمان اليسير لأجل ما رآه من الآيات التى تختص برؤيتها الأنبياء.

وبهذا تميز عمن يقطع المسافة كرامة لولى أو تسخيراً لجن كما فى قصة بلقيس حيث: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٩، ٤٠] فإن قطع الجسم الثقيل للمسافة البعيدة إنما كان لما أوتيه سليمان من الملك كما كانت الريح: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٦ - ٣٨] وهذا تسخير ملكى.

وقطع محمد ﷺ كان لما أراه الله من الآيات التى ميزه بها على سائر النبيين، وكان ذلك فتنة (**أى محنة وابتلاء**) للناس، ليتبين من يومن به ممن يكذبه.

وأحاديث المعراج وصعوده إلى ما فوق السموات، وفرض الرب عليه الصلوات الخمس حينئذ، ورؤيته لما راه من الآيات، والجنة والنار، والملائكة

والأنبياء فى السموات، والبيت المعمور، وسدرة المنتهى وغير ذلك معروف متواتر فى الأحاديث، وهذا النوع لم يكن لغيره من الأنبياء مثله يظهر به تحقيق قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فالدرجات التى رفعها محمد ﷺ ليلة المعراج وسيرفعها فى الآخرة كالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون الذى ليس لغيره مثلها.

ففى الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة وأبى ذر ومن رواية ابن عباس، وأبى حبة الأنصارى وغيرهم.

فروى أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى بصره. قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: إخترت الفطرة» ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا، فإذا أنا بآدم عليه السلام، فرحب بى ودعا لى.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ، قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة، عيسى، ويحيى بن زكريا عليهما السلام، فرحبا بى، ودعوا لى بالخير.

ثم عرج بى إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: أو قد بعث إليه؟ قال.

والأنبياء فى السموات، والبيت المعمور، وسدرة المنتهى وغير ذلك معروف متواتر فى الأحاديث، وهذا النوع لم يكن لغيره من الأنبياء مثله يظهر به تحقيق قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

فالدرجات التى رفعها محمد ﷺ ليلة المعراج وسيرفعها فى الآخرة كالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون الذى ليس لغيره مثلها.

ففى الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة وأبى ذر ومن رواية ابن عباس، وأبى حبة الأنصارى وغيرهم.

فروى أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى بصره. قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التى تربط بها الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: إخترت الفطرة» ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا، فإذا أنا بآدم عليه السلام، فرحب بى ودعا لى.

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ، قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. قال: ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة، عيسى، ويحيى بن زكريا عليهما السلام، فرحبا بى، ودعوا لى بالخير.

ثم عرج بى إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل. فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال. محمد ﷺ، قيل: أو قد بعث إليه؟ قال



قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى شطراً من الحسن، قال: فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: أو قد بعث إليه: قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس ﷺ فرحب بي ودعا لي بخير: قال الله عز وجل: **(ورفعناه مكانًا عليًا)**.

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل:

من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، فقيل: أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا **بهارون عليه السلام**. فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى **السماء السادسة**، فاستفتح جبريل عليه السلام، قيل: من هذا؟ قال جبريل، قيل ومن معك؟ قال محمد ﷺ، قيل أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا **بموسى عليه السلام**، فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال محمد ﷺ، قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم ﷺ **مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه.**

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشيها، تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها.

فأوحى الله إلَّي ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة.





أخذ بيدى، فعرج بى إلى السماء الدنيا، فلما جئنا إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن سماء الدنيا، افتح، قال من هذا؟ قال جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معى رسول الله ﷺ، فلما علونا السماء، فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، قال فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى. قال مرحبًا بالابن الصالح والنبى الصالح، قال: قلت يا جبريل من هذا؟ قال آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار.

قال الزهرى: وأخبرنى ابن حزم عن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى يقولان: **قال رسول الله ﷺ: ثم عرج بى حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام.**

وفى صحيح مسلم، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السابعة، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها قال: **(إذ يغشى السدرة ما يغشى)** قال: فراش من ذهب، قال: فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثًا:

١- أعطى الصلوات الخمس.

٢- وأعطى خواتيم سورة البقرة.

٣- وغفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المقحمات وعنه فى قوله عز وجل: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾ أن النبى ﷺ رأى جبريل فى صورته وله ستمائة جناح.

وفى الصحيحين، عن جابر بن بعد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتنى قريش، قمت فى الحجر، فجلى الله لى بيت المقدس، فطفت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتنى فى الحجر. وقريش تسألنى عن مسراى، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، **فكربت كربة، ما كربت مثلها قط**» قال: **«فرفعه الله إلى أنظر إليه، ما يسألونى عن شىء إلا أنبأتهم به»**.

قلت: وصعود الآدمى ببدنه إلى السماء قد ثبت فى أمر المسيح، عيسى ابن مريم عليه السلام، فإنه صعد إلى السماء، وسوف ينزل إلى الأرض.

وهذا مما يوافق النصارى عليه المسلمين، فإنهم يقولون: إن المسيح صعد إلى السماء ببدنه وروحه، كما يقوله المسلمون، ويقولون: إنه سوف ينزل إلى الأرض أيضًا، كما يقوله المسلمين، وكما أخبر به النبى ﷺ فى الأحاديث الصحيحة.

لكن كثيرًا من النصارى يقولون: أنه صعد بعد أن صلب، وأنه قام من القبر.

وكثيرًا من اليهود يقولون: إنه صلب، ولم يقم من قبره.

وأما المسلمون، وكثير من النصارى، يقولون: إنه لم يصلب، ولكن صعد إلى السماء بلا صلب.

والمسلمون ومن وافقهم من النصارى يقولون: إنه ينزل إلى الأرض قبل القيامة، وإن نزوله من أشراط الساعة. كما دل على ذلك الكتاب والسنة.

وكثيرًا من النصارى يقولون: إن نزوله هو يوم القيامة، وأنه هو الله الذى يحاسب الخلق.

وكذلك إدريس صعد إلى السماء ببدنه، وكذلك عند أهل الكتاب أن إلياس صعد إلى السماء ببدنه.



ومن أنكر صعود بدن إلى السماء، من المتفلسفة، فعمدته شيئان:

أحدهما: أن الجسم الثقيل لا يصعد، وهذا فى غاية الضعف، فإن صعود الأجسام الثقيلة إلى الهواء مما تواترت به الأخبار فى أمور متعددة، مثل عرش بلقيس الذى حمل من اليمن إلى الشام فى لحظة، لما قال سليمان: ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٣٨ - ٤١]. ومثل حمل الريح لسليمان عليه السلام وعسكره، لما كان يحمل البساط فى الهواء، وهو جالس عليه بأصحابه.

ومثل حمل قرى قوم «لوط» ثم إلقائها فى الهواء. ومثل المسرى إلى بيت المقدس الذى ظهر صدق الرسول بخبره.

ورجال كثيرون فى زماننا وغير زماننا يحملون من مكان إلى مكان فى الهواء، وهذا مما تواتر عندنا، وعند من يعرف ذلك.

وأيضًا فمعلوم أن النار والهواء الخفيف تحركه حركة قسرية، فيهبط، والتراب والماء الثقيلان، يحركان حركة قسرية، فيصعد، وهذا مما جرت به العادة.

والشبهة الثانية: ظن بعض المتفلسفة، كأرسطو وشيعته، أن الأفلاك لا تقبل الانشقاق، رجحتهم على ذلك فى غاية الضعف، فإنهم قالوا: لو كانت تقبل الانشقاق، لكان المحدد للأفلاك المحرك لها، يتحرك حركة مستقيمة، والحركة المستقيمة تحتاج إلى خلاء خارج العالم، ولا خلاء هناك.

وهذه الحجة فاسدة من وجوه:

منها: أنها تدل على ذلك في الفلك الأعلى، لا فيما دونه، كفلك القمر وغيره، وهذا مما أجابهم به الرازي وغيره.

ومنها: أن وجود الأجسام خارج الفلك، كوجود الفلك في حيزه.

فإن كان الخلاء عدمًا محضًا، فهو منتف في الجانبين، وإن قيل: إنه أمر وجودي، ولزم أن يحتاج إليه في الموضعين، وحينئذ فيبطل القول بنفيه.

وبهذا يظهر جوابهم عن إنكارهم انشقاق القمر، فإن عمدتهم فيه، أن الفلك لا قبل الانشقاق، وقد عرف فساد ذلك عقلاً وسمعًا، وتواترت عن الأنبياء أنهم أخبروا بانشقاق السموات.

وإيضاح الرد على هؤلاء أن ما يثبتونه من أن الحركة لا بد لها من جهة ومحدد يحدد الجهات، إنما يدل على الافتقار إلى جنس المحدد، لا يدل على الاحتياج إلى محدد معين.

فإذا قدر أنه خلق وراء المحدد محددًا آخر وخرق الأول، حصل به المقصود.

وهكذا عامة أدلتهم إنما تدل على شيء مطلق، ولكن يعينونه بلا حجة، فيغلطون في التعيين، كدليلهم على دوام الفاعلية أو الحركة أو زمانها، فإن ذلك لا يدل على الحركة الفلكية، وأن الزمان هو مقدار الحركة، بل إذا كان الله قد خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كما أخبرت به الرسل، لم تكن تلك الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض هي مقدار حركة الشمس التي هي مما خلق في تلك الأيام.

بل قد أخبر الله تعالى أنه كان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض، وأخبر أنه خلق السموات من دخان، وهو بخار الماء.



فإذا كان قبل هذه الحركات المشهودة، حركات أخر لأجسام غير هذه الأجسام المشهودة، لم يكن هذا مناقضًا لما دل عليه العقل.

وكذلك ما يذكرونه من قِدَم العالم.

فليس مع القوم دليل واحد عقلى صحيح يناقض ما أخبرت به الرسل، ولكن قد تناقض بعض ما يظنه بعض أهل الكلام من دين الرسل، كما قد بسط فى غير الموضع.

والنوع الثانى: آيات الجوّ، كاستسقائه ﷺ واستصحائه، وطاعة السحاب فى حصوله، وذهابه بدعائه ﷺ، ونزول المطر بدعائه.

آية استسقاء النبى ﷺ ونزول المطر بدعائه اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا.. اللهم أغثنا

ففى الصحيحين عن أنس بن مالك: أن رجلاً دخل المسجد فى يوم جمعة، من باب كان نحو دار القضاء، ورسول الله ﷺ قائمًا يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السُّبل، فادع الله يغثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا اللهم أغثنا».

قال أنس: ولا والله، ما نرى فى السماء من سحاب ولا من قزعة، وإن السماء لمثل الزجاجة، وما بيننا وبين سلع من دار، فو الذى نفسى بيده، ما وضع يديه حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر عن لحيته.

وفى رواية أخرى: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء، انتشرت، ثم أمطرت، قال: فلا والله ما رأيت الشمس سبتًا.

قال: ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ

قائمًا يخطب، فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله أن يمسكها عنا.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يده، ثم قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، الظراب وبطون الأودية، ومنابت الشجرِ**».

قال: فما يشير بيده إلى ناحية إلا تفرجت حتى رأيت المدينة فى مثل الجوبة، وسال الوادى قناة شهرًا، ولم يجئ أحد من ناحية إلا أخبر بجود».

ومن هذا الباب نصر الله له بالريح التى قال الله فيها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩].

قال مجاهد: يعنى ريح الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق، حتى كفأت قدورها على أفواهها، ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم، وجنودًا لم تروها (يعنى الملائكة).

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**».

وفى المغازى والسير والتفسير قصة الأحزاب، وكيف أرسلت عليه الريح الملائكة وانهزموا بغير قتال معروف.

والنوع الثالث: تصرفه فى الحيوان - الإنس والجن والبهائم.

فروى عن عبد الله بن جعفر قال: أردفنى رسول الله ﷺ ذات يوم فأسرَّ إلى حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس.

قال: وكان أحب ما استتر به هدف أو حائش[1] نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى رسول الله ﷺ حَنَّ وذرفت عيناه، فأتاه

(١) قوله: أو حائش: هكذا فى الأصل. ولعل الأصح: حائط. بدل حائش.

قائمًا يخطب، فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله أن يمسكها عنا.

قال: فرفع رسول الله ﷺ يده، ثم قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، الظراب وبطون الأودية، ومنابت الشجر**».

قال: فما يشير بيده إلى ناحية إلا تفرجت حتى رأيت المدينة فى مثل الجوبة، وسال الوادى قناة شهرًا، ولم يجئ أحد من ناحية إلا أخبر بجود».

ومن هذا الباب نصر الله له بالريح التى قال الله فيها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٩].

قال مجاهد: يعنى ريح الصبا، أرسلت على الأحزاب يوم الخندق، حتى كفأت قدورها على أفواهها، ونزعت فساطيطهم حتى أظعنتهم، وجنودًا لم تروها (يعنى الملائكة).

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**».

وفى المغازى والسير والتفسير قصة الأحزاب، وكيف أرسلت عليه الريح الملائكة وانهزموا بغير قتال معروف.

والنوع الثالث: تصرفه فى الحيوان - الإنس والجن والبهائم.

فروى عن عبد الله بن جعفر قال: أردفنى رسول الله ﷺ ذات يوم فأسرَّ إلى حديثًا لا أحدث به أحدًا من الناس.

قال: وكان أحب ما استتر به هدف أو حائش[1] نخل، فدخل حائط رجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى رسول الله ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه

(١) قوله: أو حائش: هكذا فى الأصل. ولعلّ الأصح: حائط. بدل حائش.



النبى ﷺ، فمسح رأسه وذفراه فسكن، ثم قال: «لمن هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال: هو لى يا رسول الله.

فقال له النبى ﷺ **«ألا تتقى الله فى هذ البهيمة التى ملكك الله إياها، فإنه شكا إلىَّ أنك تجيبه وتذيبه»** روى مسلم بعضه، وبعضه على شرطه، ورواه أبو داود وغيره.

وروى الإمام أحمد، والدارمى وغيرهما، عن جابر قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بنى النجار، إذ فيه جمل لا يدخل الحائط أحدٌ إلا شدَّ عليه، فذكروا ذلك للنبى ﷺ، فجاء حتى أتى الحائط فدعا البعير، فجاء واضعًا مشفره إلى الأرض حتى برك بين يديه.

قال: فقال النبى ﷺ: **«هاتوا خطامه، فخطمه، ودفعه إلى صاحبه»**. قال: ثم التفت إلى الناس فقال: **«إنه ليس شىء بين السماء والأرض إلا يعلم أنى رسول الله. إلا عاصى الجن والإنس»**.

وروى الطبرانى عن جابر قال: خرجنا فى غزوة ذات الرقاع، حتى إذا كنا بحرة واقم، عرضت امرأة بدوية بابن لها، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسو ل الله: هذا ابنى قد غلبنى عليه الشيطان قال ﷺ **«فأدنيه منى»** فأدنته منه. فقال: **«افتحى فمه»** ففتحته، فبصق فيه رسول الله ثم قال: **«اخسأ عدو الله وأنا رسول الله»** قالها ثلاث مرات، ثم قال: **«شأنك بابنك، ليس عليه بأس، فلن يعود إليه شىء مما كان يصيبه»**.

وذكر قصة الشجرتين، إلى أن قال: ثم خرجنا، فنزلنا منزلاً صحراء ديمومة، ليس فيها شجرة، فقال النبى ﷺ لجابر **«يا جابر انطلق فانظر لى مكانًا، يعنى الوضوء، فخرجت أنطلق فلم أجد إلا شجرتين مفرقتين لو أنهما اجتمعتا سترتاه»**.

فرجعت إلى النبى ﷺ فقلت يا رسول الله، والله ما رأيت شيئًا سترك إلا شجرتين مفرقتين، ولو أنهما اجتمعتا سترتاك.

فقال النبي ﷺ: «انطلق إليهما فقل لهما: إن رسول الله ﷺ يقول: **اجتمعا**».

قال: فخرجت فقلت لهما، فاجتمعتا حتى كأنهما في أصل واحد.

ثم رجعت فأخبرت النبي ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ حتى قضى حاجته، ثم رجع فقال: ائتهما فقل لها: إن رسول الله ﷺ يقول لكما: **ارجعا كما كنتما كل واحدة إلى مكانها**.

فرجعت فقلت لها: إن رسول الله ﷺ يقول لكما «**ارجعا كما كنتما**» فرجعتا.

ثم خرجنا فنزلنا في واد من أودية بني محارب، فعرض له رجل من بني محارب يقال له «غورث بن الحارث» والنبي ﷺ متقلد سيفه، فقال: يا محمد أعطني سيفك هذا، فسله فناوله إياه ونظر إليه ساعة، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فارتعدت يده حتى سقط السيف من يده، فناوله رسول الله ﷺ ثم قال: «**يا غورث من يمنعك مني؟**» قال: لا أحد.

قال: ثم أقبلنا راجعين، فجاء رجل من أصحاب النبي ﷺ بُعشٍ يحمله، وفيه فراخ وأبواه يتبعانه ويقعان على يد الرجل، فأقبل النبي ﷺ على من كان معه، فقال: «أتعجبون بفعل هذين الطيرين بفراخهما؟».

زاد في رواية «**فرُبكم أرحم بكم من هذا الطائر بفراخه**».

ثم أقبلنا راجعين، حتى إذا كنا بحرة واقم، عرضت لنا المرأة التي جاءت بابنها برطب ولبن شاة، فأهدته له فقال «**ما فعل ابنك، هل أصابه شيء كما يصيبه؟**» قالت: لا، والذي بعثك بالحق، ما أصابه شيء مما كان يصيبه وقبل هديتها.

ثم أقبلنا حتى إذا كنا بمهبط من الحرة، أقبل جمل يرفل، فقال: «**أتدرون ما قال هذا الجمل؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: «**هذا جمل جاءنى يستعدى على سيده، يزعم أنه كان يحرث عليه منذ سنين، حتى إذا أجربه وأعجفه، وكبر سنه أراد نحره، اذهب معه يا جابر إلى صاحبه فائت به**» فقلت: ما أعرف صاحبه يا رسول الله. قال: «إنه سيدلك عليه».

قال: فخرج بين يَدَىَّ معنقا، حتى وقف بى فى مجلس بنى خطمة، فقلت: أين رب هذا الجمل؟ قالوا: فلان.

فجئته فقلت: أجب رسول الله ﷺ، فخرج معى حتى جاء إلى النبى ﷺ، فقال له النبى ﷺ «**إن جملك يستعدى عليك**» **يزعم أنك حرثت عليه زمانًا حتى اجربته واعجفته، وكبر سنه ثم أردت نحره**».

فقال: والذى بعثك بالحق، إذن ذلك لكذلك.

فقال له رسول الله ﷺ «تبيعنيه» قال: نعم يا رسول الله بابتاعه منه، ثم سيبه فى الشجر حتى نصب سنامًا، فكان إذا اعتل على بعض المهاجرين والأنصار نواضحهم شىء أعطاه إياه، فمكث بذلك زمانًا.

وهذا الحديث له شواهد، أخرج أهل الصحيح منه قصة الشجرتين، وقصة الذى شهر السيف على رسول الله ﷺ، وقصة الطير، رواه أبو داود الطيالسى، وقصة الصبى، ذكرها غير واحد.

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن يعلى بن مرة الثقفى قال: ثلاثة أشياء رأيتهن من رسول الله ﷺ.

بينما نحن نسير معه إذ مررنا ببعير يسنى عليه، فلما رآه البعير جرجر، ووضع جرانه بالأرض، فوقف عليه النبى ﷺ فقال: «أين صاحب هذه البعير؟ فجاءه فقال: «بعنيه» فقال: بل أهبه لك يا رسول الله



فقال ﷺ **«لا، بل بعنيه»**، فقال: بل نهـبه لك، وهو لأهل بيت، ما لهم معيشة غيره.

فقال: **«أما إذ ذكرت هذا من أمـره، فإنه يشتكى إلى كثـرة العمل وقلة العلف، فأحسنوا إليه»**. وفى رواية: **«أنهم أرادوا نحره»**.

ثم سرنا من منزلنا، فقال النبى ﷺ: **«انطلق إلى هاتين الشجرتين فقل لهما إن رسول الله ﷺ يقول لكما أن تجتمعا»**.

فانطلقت فقلت لهـما ذلك، فانتزعت كل واحدة منهـما من أصلها فنزلت كل واحدة إلى صاحبتـها، فالتفتا جميعًا، فقـضى رسول الله ﷺ حاجته من ورائهما، ثم لما فرغ عادت كل واحدة منهما مكانها بأمره.

وأتته امرأة بصبى لهـا به لمم فقالت يا رسول الله، إن ابنى هذا، به لمم منذ سبع سنين، يأخذه فى كل يوم مرتين. فـتفل النبى ﷺ فى فيه، **«أخرج عدو الله، أنا رسول الله»** فبرىء.

فلمـا رجعنا، جـاءت أم الغلام بكبـشين وشىء من أقط، قـالت: والذى بعثك بالحق ما رأينا منه ريبًا بعدك. فأخذ أحد الكبشين والأقط، ورد الكبش الآخر.

وروى القصة، أبو يعلى الموصولى عن أسامة بن زيد رضى الله عنه، ورواه الحاكم فى صحيحه قال فيه: سافرت مع رسول الله ،فرأيت منه عجبًا، وذكر الحديث.

وفيه أن رسول الله ﷺ قال للمـرأة لما أخرج الشيطان من ابنها: **«إذا رجعنا فأعلمينا ما صنع»** رواه الدرامى. أيضًا.

وروى الدرامى عن ابن عباس أن امرأة جاءت بابن لها إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن ابنى به جنون، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا، فيخبث علينا، فمسح رسول الله، صدره ودعا، فثع ثعة خرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى.

وروى أبو داود الطيالسى عن ابن مسعود قال: كنا مع النبى ﷺ فى سفر، فدخل رجل غيطه فأخرج منها بيض حمرة، فجائت الحمرة ترف على رأس رسول الله ﷺ وأصحابه فقال: «أيكم فجع هذه» فقال رجل من القوم: أخذت بيضتها فقال ﷺ: **«رده رحمة لها»**.

وروى الحاكم فى صحيحه عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: ركبنا البحر فى سفينة فانكسرت السفينة، فركبت لوحًا من ألواحها فطرحنى فى أجمة فيها أسد، فلم يرعنى إلا به. فقلت: «يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ» فطأطأ رأسه وغمر بمنكبه شقى، فمازال يغمرنى ويهدينى الطريق حتى وضعنى على الطريق، فلما وضعنى على الطريق همهم فظننت أنه يودعنى.

وروى الإمام أحمد فى مسنده، وأبو يعلى الموصلى عن عائشة قالت: «كان لآل رسول الله وحش، إذا خرج رسول الله ﷺ اشتد ولعب وأقبل وأدبر، فإأذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض، فلم يترمرم كراهية أن يؤذيه» ولفظه للإمام أحمد، ورواه أبو نعيم.

وروى عنها أحمد أيضًا أن رسول الله ﷺ كان فى نفر من المهاجرين والأنصار. فجاء بعير فسجد له فقال: **«اعبدوا ربكم وأكرموا أخاكم، ولو كنت امرًا أحد أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، ولو أمرها أن تنتقل من جبل أصفر إلى جبل أسود، ومن جبل أسود إلى جبل أبيض كان ينبغى لها أن تفعله»**

رواه الإمام أحمد عن عفان، وابن ماجه، ببعضه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عفان قال: ثنا حماد بن سلمة ثنا أبى ثنا على بن يزيد ثنا سعيد عن عائشة.

وقصة هذ الجمل رواها جماعة من الصحابة.

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعى فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه فقال: **«ألا** تتقى الله، تنزع منى رزقًا ساقه الله إلى؟ فقال: يا عجبًا ذئب مقع على ذنبه يكلمنى الناس كلام الإنس؟».

فقال الذئب: «ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب، يخبر الناس بأنباء ما قد سلف».

قال: فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره.

فأمر رسول الله ﷺ، فنودى: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للأعرابى: **«أخبرهم»** فأخبرهم.

فقال: رسول الله ﷺ: **«صدق والذى نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك فعله، ويخبره ما أحدث أهله بعده»**.

وروى الترمذى آخره وصححه، قال البيهقى: إسناده صحيح وله شاهد من وجه آخر.

ورواه أحمد عن أبى هريرة قال: **وكان الراعى يهوديًا فأسلم.**

وقال فيه: أعجب من هذا رجل فى النخلات بين الحرتين يخبركم بما مضى، وبما هو كائن بعدكم.



وفى الصحيحين عن أنس قال: كان بالمدينة فزع فاستعاو النبى ﷺ فرسًا لأبى طلحة وكان يقطف فلما رجع قال إن وجدنا فرسكم هذا بحرًا وكان بعد ذلك لايجارى.

وفى الصحيحين، عن سلمة بن الأكوع، وسهل بن سعد، عن النبى ﷺ فى غزوة خيبر: أنه أرسل إلى على وهو أرمد العين فقال: «لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله ﷺ، ويحب الله ورسوله ﷺ، يفتح الله على يديه» فبصق فى عينيه فبرىء، كأن لم يكن به وجع قط، وأعطاه الراية فقال علىٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: «انفد على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيهم، فوالله لأن يَهْدِى الله بك رجلا واحدًا خير لك من حمر النعم».

وعن عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه قتادة بن النعمان: أنه أصيبت عينه فى الغزو مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فسالت على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال: لا ودعاه وغمز حدقته براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت» فكانت أحسن عينيه وأحدهما وفى رواية «فرفع حدقته حتى وضعها موضعها، ثم وضعها موضعها، ثم غمزها براحته وقال ﷺ: «**اللهم اكسها جمالات فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت**» رواه عنه أهل المغازى.

وأنشد ولده بحضرة عمر بن العزيز وهو خليفة، وأقره من حضر ولم ينكره:

أَنَا ابْنُ الذى سَالَتْ على الخدِّ عَيْنُهُ	**وَرُدَّتْ بِكَفِّ المُصْطفى أحْسنَ الردِّ**
فَعَادَتْ كماَ كانَت لِإحسنِ حَالهَا	**فيَا حسنَ ما عيْنٍ ويا حسنَ ما ردٍّ**

فلو أنه كان معروفًا عند التابعين لم يقروه، وهم إنما نقلوا هذا عن الصحابة.

رواه الإمام أحمد عن عفان، وابن ماجـه، ببعضه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عفان قال: ثنا حماد بن سلمة ثنا أبى ثنا على بن يزيد ثنا سعيد عن عائشة.

وقصة هذ الجمل رواها جماعة من الصحابة.

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعى فانتزعـها منه، فأقعى الذئب على ذنبه فقال: «ألا تتقى الله، تنزع منى رزقًا سـاقه الله إلى؟ فقال: يا عجبًـا ذئب مقع على ذنبه يكلمنى الناس كلام الإنس؟».

فقـال الذئب: «ألا أخبرك بأعـجب من ذلك؟ محمـد ﷺ بيثرب، يخـبر الناس بأنباء ما قد سلف».

قال: فـأقبل الـراعى يسوق غنمـه حتى دخل المدينة فـزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره.

فأمر رســول الله ﷺ، فنودى: الصلاة جامعة، ثم خرج فـقال للأعرابى: «أخبرهم» فأخبرهم.

فقال: رسول الله ﷺ: «**صدق والذى نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى تكلم السبـاع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه وشـراك فعله، ويخبره مـا أحدث أهله بعده**».

وروى الترمذى آخره وصححهُ، قال البيهقى: إسناده صحيح وله شاهد من وجه آخر.

ورواه أحمد عن أبى هريرة قال: **وكان الراعى يهوديًا فأسلم**.

وقال فـيه: أعـجب من هذا رجل فى النخلات بيـن الحرتين يخبـركم بما مضى، وبما هو كائن بعدكم.



وفى الصحيحين عن أنس قال: كان بالمدينة فزع فاستعاو النبى ﷺ فرسًا لأبى طلحة وكان يقطف فلما رجع قال إن وجدنا فرسكم هذا بحرًا وكان بعد ذلك لايجارى.

وفى الصحيحين، عن سلمة بن الأكوع، وسهل بن سعد، عن النبى ﷺ فى غزوة خيبر: أنه أرسل إلى على وهو أرمد العين فقال: «لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله ﷺ، ويحب الله ورسوله ﷺ، يفتح الله على يديه» فبصق فى عينيه فبرىء، كأن لم يكنِ به وجع قط، وأعطاه الراية فقال علىٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال: «انفد على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيهم، فوالله لأن يَهْدِى الله بك رجلا واحدًا خير لك من حمر النعم».

وعن عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه قتادة بن النعمان: أنه أصيبت عينه فى الغزو مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فسالت على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال: لا ودعاه وغمز حدقته براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت» فكانت أحسن عينيه وأحدهما وفى رواية «فرفع حدقته حتى وضعها موضعها، ثم وضعها موضعها، ثم غمزها براحته وقال ﷺ: **«اللهم اكسها جمالات فمات وما يدرى من لقيه أى عينيه أصيبت»** رواه عنه أهل المغازى.

وأنشد ولده بحضرة عمر بن العزيز وهو خليفة، وأقره من حضر ولم ينكره:

أنَا ابْنُ الذى سَالَتْ على الخدِّ عَيْنُهُ ... وَرُدَّتْ بِكَفِّ المُصْطفى أحْسنَ الردِّ

فَعَادَتْ كماَ كانَت لإحسنِ حَالهَا ... فيَا حسنَ ما عيْنٍ ويا حسنَ ما ردِّ

فلو أنه كان معروفًا عند التابعين لم يقروه، وهم إنما نقلوا هذا عن الصحابة.

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالا من الأنصار، وأمر عليهم عبد الله بن عقيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف لبواب لَعَلِّي أدخل.

قال: فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلت فكمنت. فلما دخل الناس أغلق الباب ثم أغلق الأغاليق على ودخل.

قال فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في عدلي له؛ فلما ذهبت عنه أهل السمرة، صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت عليَّ من داخل، قلت: إن القوم لو نذروا بي لم يخلصوا إلى حتى أقتله فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت.

قلت: أبا رافع. قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فضربته ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنت شيئًا وصاح.

فخرجت من البيت فمكثت غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟

فقال: لأمك الويل، إن رجلا في البيت ضربني قبلُ بالسيف.

قال فضربته ضربة أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت صيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعلمت أني قد قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا فبابًا، حتى انتهيت إلى درجة، فوضعت رجلي، وأنا أرى أني قد انتهيت إلى



الأرض، فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامتى، ثم انطلقت حتى جلست عند الباب فقلت: لا أبرح حتى أعلم أقتلته أم لا؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور ينعى أبا رافع فانطلقت إلى أصحابى فقلت: النجا النجا قتل اللهُ أبا رافع.

قال فانتهينا إلى النبى ﷺ وحدثنا فقال: **«أبسط رجلك»**.

فبسطها فمسحها فكأنما لم يشكها قط.

وفى البخارى عن يزيد بن أبى عبيد قال: رأيت فى ساق سلمة بن الأكوع أثر ضربة، فقلت يا أبا مسلم، ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربة أصابتى يوم خيبر فقال الناس: أصيب سلمة، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيت منها حتى الساعة.

وفى الترمذى وغيره عن عثمان بن حنيف: أن رجلا ضريرًا أتى رسول الله ﷺ فقال: ادع الله تعالى أن يعافينى. قال ﷺ: إن شئت صبرت فهو خير لك، وإن شئت دعوت الله» قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء، ويصلى ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء. اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى هذه اللهم فشفعه فى».

وفى رواية قال: «يا رسول الله ليس لى قائد وقد شقّ على» وذكر الحديث.

فقال عثمان: «والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر قط» قال الترمذى: حديث صحيح.

النوع الثالث: آثاره فى الأشجار والخشب:

وفى الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: كان المسجد مسقوفًا على جذوع النخل، فكان النبى ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع المنبر وكان عليه، سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النبى ﷺ فوضع يده عليها فسكنت.

وفى رواية «**فصاحت النخلة صياح الصبى**».

وفى الصحيحين عن جابر: أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه، فإن لى غلامًا نجارًا قال: «**إن شئتِ**» قال: **فَعَمِلَتْ** له المنبر.

فلما كان يوم الجمعة، قعد النبى ﷺ على المنبر الذى صنع له، **فصاحت** النخلة التى كان يخطب عليها، حتى كادت أن تنشق فنزل النبى ﷺ فضمها عليه، فجعلت تئن أنين الصبى الذى أخذ يسكت حتى استقرت.

وفى صحيح مسلم من حديث جابر قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا واديًا أفيح، فذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته، فاتبعته بأداوة من ماء فنظر رسول الله ﷺ فلم ير شيئًا يستر به فإذا شجرتان بشاطئ الوادى، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصنين من أغصانها، فقال: «**انقادى على بإذن الله**» فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال: «**انقادى على بإذن الله**» فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمنصف فيما بينهما فلئم بينهما حتى جمع بينهما، فقال: «**التئما على بإذن الله تعالى**» فالتأمتا عليه فخرجت أحضر مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربى، فتباعدت فجلست أحدث نفسى، فحانت منى لفتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبلا، وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة منهما على ساق. ذكر الحديث.



وعن ابن عباس قال: جاء رجل من بنى عامر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرنى الخاتم الذى بين كتفيك، فإننى من أطب الناس قال: **«ألا أريك آية؟»** قال: بلى فنظر إلى نخلة فقال: «ادع ذلك العذق» فجاءه ينفر حتى قام بين يديه. فقال له **«ارجع»** فرجع.

فقال العامرى يا آل بنى عامر، «ما رأيت أسحر منه» قال الترمذى: حديث حسن صحيح، ورواه الدرامى أيضًا قال: فجاءت النخلة تنفر بين يديه ثم قال لها: «ارجعى» فعادت إلى مكانها.

وفى رواية الترمذى: جاء أعرابى إلى رسول الله ، فقال: بم أعرف أنك نبى قال: «**إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة، أتشهد إنى رسول الله ﷺ** قال: نعم، فدعاها رسول الله ﷺ فجعل ينزل من النخلة حتى سقط إلى النبى ﷺ ثم قال: «**ارجع**» فعاد فأسلم الأعرابى.

وروى الدرامى عن عبد الله بن عمر قال: كنا مع رسول ﷺ فى سفر فأقبل أعرابى، فلما دنا منه، قال: له النبى ﷺ: **«أين تريد؟»** قال: إلى أهلى. قال: **«هل لك فى خير؟»** قال: وما هو؟ قال: **«تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله»** قال: ومن يشهد على ما نقول؟ قال: **«هذه السلمة»** فدعاها رسول الله ﷺ وهى بشاطىء الوادى فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثًا، فشهدت ثلاثًا أنه كما قال، ثم رجعت إلى منبتها، ورجع الأعرابى إلى قومه فقال: إن اتبعونى أتيتك بهم وإلا رجعت فكنت معك.

وفى الصحيحين عن معن بن عبد الرحمن قال: سمعت أبى يقول: سألت مسروقًا من آذن النبى ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك «يعنى عبد الله بن مسعود» أنه قال اذنته بهم شجرة.

وفى الترمذى عن على قال: كنت مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجنا فى بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: **«السلام عليك يا رسول الله»** رواه الحاكم فى صحيحه.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ ذات يوم وهو جالس حزين قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له: «مالك؟» فقال «فعل هولاء وفعلوا».

قال: فقال له جبريل: «أتحب أن أريك آية؟» قال: «نعم».

فنظر إلى شجرة من وراء الوادى فقال: أدع تلك الشجرة فدعاها، فجاءت تمشى حتى قامت بين يديه فقال: «مرها فلترجع إلى مكانها» فقال لها: «ارجعى» فرجعت حتى عادت إلى مكانها فقال النبى ﷺ: «حسبى» رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده.

تكثير الماء والطعام والثمار ببركة النبى ﷺ

والنوع الرابع: الماء والطعام والثمار الذى كان يكثر ببركته فوق العادة وهذا الباب واسع نذكر منه ما تيسر.

أما الماء فى الصحيحين عن أنس أن النبى ﷺ دعا بماء فأتى بقدح رحراح، فجعل القوم يتوضئون قال: فحزرت ما بين السبعين إلى الثمانين.

وفى رواية عنه: أن النبى ﷺ خرج فى بعض مخارجه ومعه أناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة فلم يجدوا ما يتوضئون به، فانطلق رجل من القوم، فجاء بقدح فيه ماء يسير، فأخذه النبى ﷺ فتوضأ، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ثم قال: «قوموا فتوضؤا» وكانوا سبعين أو نحوه.

وفيهما عن أنس أيضًا: أن النبى ﷺ وأصحابه بالزوراء، «والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد ثمة» دعا بقدح فيه مـاء، فوضع فيه كفه فجعل ينبع بين أصابعه، فتوضأ جميع أصحابه قال: قلت: كم كانوا يا أبا حمزة؟ قال: كانوا زهاء الثلاثمائة، وفى رواية «بماء لا يغمر أصابعه»

وفى الصحـيحين عنه قـال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العـصر، فالتمس الناس والوضوء فلم يجـدوا، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء فوضع فى ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتـوضئوا منه، قـال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤا من عند آخرهم.

وفى الصـحيـحـين عن جابر قـال: قـد رأيتنى مع رسول الله ﷺ وقـد حضرت صلاة العصر، وليس معنا غير فضلة، فجعل فى إناء فأتى النبى ﷺ فأدخل يده فـيه، وفرج أصحـابه ثم قال: «**حى على الوضوء والبـركة من الله**» فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعـه، فتوضأ الناس وشربوا فجعلت لا آلو ما جعلت فى بطنى منه فعلمت أنه بركـة قلت لجابر: كم كنتم يؤمئذ؟ قال: ألفا وأربعمائة.

وفى صحـيح البخـارى عن جابر أيضًـا قال: عطش الـناس يوم الحديبـية والنبى ﷺ بين يديه ركوة فتوضأ، فجـهش الناس نحوه قال: «مالكم؟ قالوا: ليس عندنا مـا نتوضأ ولا نشـرب إلا ما بين يديك. فـوضع يده فى الركوة، فجعل الماء يثور بين أصـابعه كأمثال العيون، فـشربنا وتوضأ قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

وفى البخارى عن البراء بن عازب قـال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فـتح مكة فتحًا، ونحـن نعد الفتح بيعـة الرضوان يوم الحديـبية، كنا مع النبى ﷺ أربع عشرة مـائة، والحديبية بئر، فنزحناها، فلم نترك فـيها قطرة، فـبلغ ذلك النبى ﷺ فأتاها فـجلس على شـفيـرها، ثم دعا بإناء من مـاء،

فتوضأ، ثم تمضمض، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا، وكنا ألفًا وأربعمائة، أو أكثر من ذلك. وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويها، فقعد رسول الله ﷺ على جبا الركية، فإما دعا، وإما بصق فيها.

قال: فجاشت فسقينا واستقينا.

وعن ابن عباس قال: دعا النبى ﷺ بلالا، فطلب بلال الماء، ثم جاء فقال: لا، والله ما وجدت الماء، فقال ﷺ «فهل من شن ماء؟» فأتاه بشن فبسط كفيه فيه فانبعثت من يديه عين. قال: فكان ابن مسعود يشرب وغيره يتوضأ.

وعن جابر عن عبد الله قال غزونا أو سافرنا مع رسول الله ﷺ ونحن يومئذ بضع عشرة ومائتين فحضرت الصلاة، فقال: رسول الله ﷺ هل فى القوم من طهور؟ فجاء رجل يسعى بإداوة فيها شيء من ماء، ليس فى القوم ماء غيره، فصبه رسول الله ﷺ فى قدح، ثم توضأفأحسن الوضوء ثم انصرف وترك القدح، فركب الناس ذلك القدح وقالوا: تمسحوا تمسحوا. فقال: رسول الله ﷺ «على رسلكم» حين سمعهم يقولون ذلك، فوضع رسول الله ﷺ كفه فى الماء والقدح وقال: «بسم الله» ثم قال: «**أسبغوا الطهور**». فوالذى ابتلانى ببصرى قد رأيت العيون الماء تخرج من بين أصابعه، فلم يرفعها حتى توضؤوا أجمعون» رواهما الدارمى فى مسنده.

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نعد الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فقل الماء: «فقال اطلبوا فضلة من ماء، فجاؤا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده فى الإناء، ثم



قال: «حى على الطهر المبارك والبركة من الله» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبى ﷺ ولقد كان نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وروى مسلم فى صحيحه عن معاذ بن جبل، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، فكان يجمع الصلاة، فصلى الظهر والعصر جمعًا، والمغرب والعشاء جمعًا، حتى إذا كان يوم آخر للصلاة، ثم خرج، فصلى الظهر والعصر جمعًا. ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جمعًا، ثم قال: «إنكم ستأتون غدًا -إن شاء الله- عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من ماءها شيئًا حتى أتى».

فجئناها، وقد سبقنا إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشىء من ماء، فسألهما رسول الله ﷺ «هل مسستما من مائها شيئًا؟» قالا: نعم، فسبهما رسول الله ﷺ وقال لهما ما شا الله إن يقول، قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا جتى اجتمع شىء، قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجههُ ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر أو قال: غزير، فاستقى الناس ثم قال: «يوشك -يا معاذ إن طالت بك حياة هاهنا قد ملأ جنانا».

وفى صحيح مسلم من حديث جابر الذى رواه عبادة بن الوليد وقد تقدم أوله فى قصة الشجرتين وانقيادهما ثم افتراقهما ووضع الغصن على القبرين، وقال فى آخره: فأتينا العسكر فقال رسول الله ﷺ «يا جابر ناد بوضوء» فقال: ألا وضوء ألا وضوء. قال: قلت:يا رسول الله: ما وجدت فى الركب من قطرة، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء فى أشجاب له، فقال لى: انطلق إلى فلان الأنصارى، فانظر هل فى أشجابه من شىء؟ قال: فانطلقت إليه. نظرت فيها، فلم أجد إلا قطرة فى عزلا شجب، لو أنى أفرغه لشربه يابسه.

فأتيت رسـول ﷺ فقلت: يا رسول الله لم أجـد فيهـا إلا قطرة فى عزلا شجب، لو أنى أفرغه لشربه يابسه.

قال اذهب فائتنى به، فأتيته به، فـأخذه بيده، فجعل يتكلم بشىء لا أدرى ما هو ويغـمزه بيده، ثم أعطانيـه، ثم قال: يا جابـر... نادِ لجفنة الركب، فقلت يا جفنة الركب فأُتيت بها تُحمل، فوضـعتها بين يديه. فقال رسول الله ﷺ فقـام بيده من الجفنة هكذا، فـبسطها وفرق بين أصـابعه فى قعـر الجفنة فقال: خذ يا جابر.. فصـب علىّ وقل: بسم الله» فصببت عليه وقلت: بسم الله فـرأيت الماء يفور من بـين أصابعـه ﷺ، ثم فـارت الجفنة ودارت حـتى امتلأت. فقال: «ياجابر ناد من كانت له حـاجة بماء قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا، قال فقلت: هل بقى أحد له حاجة؟.

فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهى ملأى.

وفى الصحيحن عن عمران بن حصين قال: كنت مع النبى ﷺ فى مسير له فأدلجنا ليلتنا حتى إذا كان وجه الصبح، عـرسنا، فغلبتنا أعيننا حتى بزغت الشمس فكان أول من استيـقظ منا أبو بكر الصديق، وكنا لا نوقظ رسول الله ﷺ من منامه حـتى يكون هو الذى يستيقظ، لأنا لا ندرى مـا يحدث له فى نومه، ثم استيقظ عمر، فجعل يكبر، حتى استيقظ رسول الله ﷺ، فلما رفع رأسه ورأى الشمس قد بزغت قال: ارتحلوا، فـسار بنا حتى ابيضت الشمس، نزل، فصلى بنا الغـداة فاعتـزل رجل من القوم لم يصل معنا، فلمـا انصرف قال له رسول الله ﷺ «ما منعك أن تصلى معنا؟» قال أصابنى جنابة ولا ماء. قال له: «عليك بالصعيد فإنه يكفيك» فتيمم بالصعـيد فصلى، ثم عجلنى فى ركب بين يديه يطلب الماء، وقد عطشنا شديداً.

فبينما نحن نسير إذا نحن بامرأة سادلة رجليها بين مزادتين، فقلنا لها: أين الماء؟ فقـالت: إيهاه إيهـاه، ولا ماء لكم، فـقلت: كم بين أهلك وبين الماء؟



قالت: مسيرة يوم وليلة، قلنا: انطلقى إلى رسول الله ﷺ قالت: وما رسول الله؟ فلم نملكها من أمرها شيئًا حتى انطلقنا بها فاستقبلنا بها رسول الله ﷺ فسألها فأخبرته مثل الذى أخبرتنا وأخبرته أنها مويمة لها صبيان أيتام.

فأمر بروايتها فأنيخت، فمج فى العزلاوين العلياوين، ثم بعث بروايتها فشربنا، ونحن أربعون رجلا عطاشا حتى روينا، وملأنا كل رواية وملأنا كل قربة معنا وإداوة وغسلنا صاحبنا، غير أنا لم نَسْقِ بَعيراً وهى تكاد تتضرج من الماء يعنى المزادتين، ثم قال: «هاتوا ما عندكم» فجمعنا لها من كسر وتمر، وصر لها صرة، وقال لها، اذهبى فأطعمى عيالك، واعلمى أنا لم نرزأ من مائك شيئًا.

فلما أتت أهلها قال: لقد رأيت أسحر البشر، أو إنه النبى كما زعم، كان من أمرها رأيت ورأيت، فهدى الله عز وجل ذلك القوم بتلك المرأة، فأسلمت وأسلموا. وفى الصحيحين عن أبى قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «إنكم تسيرون عشيتكم وليلتكم، وتأتون الماء غدًا إن شاء الله، فانطلق الناس لا يلوى أحد على أحد، وذكر حديث النوم فى الوادى فقال: ثم دعا بميضأة كانت معى فيها شىء من ماء، فتوضأ منها وضوءاً، دون وضوء وبقى فيها شىء من ماء، ثم قال لأبى قتادة : «احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ» ثم قال: أصبح الناس فقدوا نبيهم.

فقال أبو بكر وعمر: إن رسول الله ﷺ يعدكم لم يكن ليخلفكم.

وقال الناس: إن رسول الله ﷺ بين أيديكم، فإن تطيعوا أبا بكر وعمر ترشدوا.

قال: فانتهينا إلى الناس حتى امتد النهار وحمى كل شىء، وهم يقولون: يا رسول الله هلكنا عطشًا فقال: «لا هلك عليكم» ثم قال: «اطلقوا لى

غمرى» قال: ودعا بالميضأة، فجعل رسول الله ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم، فلم يعد أن رأى الناس ما فى الميضأة تكابوا عليها.

فقال رسول الله ﷺ: «أحسنوا الملاء كلكم سيروى» قال: ففعلوا، فجعل رسول الله ﷺ يصب، وأسقيهم حتى ما بقى غيرى وغير رسول الله ﷺ، ثم صب رسول الله ﷺ فقال لى : «اشرب» فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله قال: «إن ساقى القوم آخرهم شربًا» فشربت وشرب رسول الله ﷺ. قال فأتى الناس الماء جامعين رواء.

قال عبد الله بن رباح: إنى لأحدث بهذا الحديث فى مسجد الجامع إذا قال لى عمران بن حصين: أنظر كيف تحدث، فأنا أحدث الركب تلك الليلة فقلت: أنت أعلم. فقال: ممن أنت؟ قلت من الأنصار، قال: أنتم أعلم بحديثكم. قال عمران: لقد شهدت تلك الليلة، وما شعرت أحدًا حفظه كما حفظته.

وفى مسند الإمام أحمد ورواه أبو يعلى الموصلى عن البراء بن عازب قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فأتينا على ركى زمه، قال: فنزل ستة، أنا سابعهم، أو سبعة أنا ثامنهم. قال: فأدليت إلى دلو، ورسول الله ﷺ على شفتى الركى، فجعلنا فيها نصفها أو قريب ثلثيها فرفعت إلى رسول الله ﷺ قال: فكدت بإنائى آخذ سقيًا أجعله فى حلقى فما وجدت. قال: فغمس رسول الله ﷺ يديه فيها فقال ما شاء الله أن يقول، فأعيدت إلينا الدلو وما فيها، قال: فقد رأيت آخرنا أخرج مخافة الغرق، قال: وساخت».

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى وأبو داود، وابن ماجه طرف منه، عن زيادة بن الحارث الصداى، قال فى آخره: ثم قلنا: يا نبى الله، إن لنا بئرًا إذا كان الشتاء وسعنا ماؤها واجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قلَّ ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا وقد أسلمنا وكل من حوالينا عدو، فادع الله فى بئرنا أن يسعنا ماؤها، فنجتمع ولا نتفرق.

فدعا بسبع حصيات فعركهن في يده، ودعا فيهن ثم قال: «**اذهبوا بهذه الحصيات، فإذا أتيتم البئر فألقوا واحدة واحدة، واذكروا اسم الله عز وجل**»

قال الصداى: ففعلنا ما قال لنا، فما استطعنا بعد أن ننظر إلى قعرها.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أصبح رسول الله ﷺ ذات يوم، وليس في العسكر ماء، فأتاه رجل فقال: يا رسول الله ليس في العسكر ماء قال: ﷺ: «**هل عندك شيء؟**» قال: نعم. قال: ﷺ «**فائتني به**»، قال: فأتاه بإناء فيه شيء من ماء قليل، قال: فجعل رسول الله ﷺ أصابعه على فم الإناء وفتح أصابعه قال: فانفجرت من بين أصابعه عيون، وأمر بلالا فقال: «**نادى في الناس: الوضوء المبارك**».

تكثير الطعام بين يدى النبى ﷺ

وأما تكثير الطعام، ففي الصحيحين عن جابر قال: لما حفر الخندق رأيت رسول الله ﷺ خمصا، فانكفأت إلى امرأتي فقلت لها: «هل عندك شيء؟ فإني رأيت رسول الله ﷺ خمصًا شديدًا، فأخرجت لي جرابًا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن» قال: فذبحت وطحنت، ففرغت إلى فراغي فقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ»، فقالت: «**لا تفضحني** برسول الله ﷺ ومن معه».

قال: فجئت فساورته فقلت: «يا رسول الله، إنا ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعا من شعير عندنا، فتعال أنت ونفر معك».

فصاح رسول الله ﷺ وقال: «**يا أهل الخندق، إن جابرا قد صنع صوراً فحيلاً بكم**» وقال رسول الله ﷺ: «**لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجئ**».

فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم الناس، حتى جئت امرأتى فقالت: «بك وبك» قال: «**قد فعلت الذى قلت لى**».

فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك ثم قال: «أدعى لى خابزة فلتخبز معك، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف».

فأقسم بالله، لأكلوا حتى تركوه، وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هى وإن عجيننا ليخبز كما هو».

وفى رواية، قال جابر: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة: فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: «هذه كدية عرضت» فقال «**أنا نازل**» فقال وبطنه معصوب بحجر[1]، ولبثنا ثلاثًا لا يذوق ذواقًا فأخذ النبى ﷺ المعول، فضرب فعاد كثيبًا أهيل.

فقلت: يا رسول الله، ائذن لى إلى البيت، فقلت لامرأتى: إنى رأيت من رسول الله ﷺ شيئًا ما فى ذلك صبر.

قالت: عندى شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافى قد كادت أن تنضج فقلت: طعيم لى، فقم أنت يا رسول الله ورجل ورجلان. قال: «**كم هو**» فذكرت له. فقال: «**كثير طيب**» قال: «**قل لها، لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى**»، قال: «**قوموا**» فقام المهاجرون والأنصار.

فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبى ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم.

---

(١) الصواب: أنه كان يربط الحجز لا الحجر، والحجز هو (الحزام)، «١٣- الجواب الصحيح ج٤».

قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. فقال: **«ادخلوا ولا تضاغطوا»**.

فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ننزع، فلم يزل يكسر ويفرق حتى شبعوا وبقى بقية، قال **«كل هذا وأهد فإن الناس أصابتهم مجاعة»**.

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال أبو طلحة لأم سليم: قد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ فقالت: نعم. فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخذت خمارًا لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت ثوبى وردتنى ببعضه، ثم أرسلتنى إلى رسول الله ﷺ.

قال: فذهبت به، فوجدته جالسًا فى المسجد والناس معه فقمت عليهم.

فقال رسول الله ﷺ: أرسلك أبو طلحة؟ فقلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ لمن معه **«قوموا»**.

قال: فانطلق وانطلقت معهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ بالناس وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم.

قال: فانطلق أبو طلحة: حتى لقى رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ معه حتى دخل رسول الله ﷺ، وقال: **«هلمى يا أم سليم ما عندك»** فأتت بذلك الخبز ففت، وعصرت عليه أم سليم هكة لها فأدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول ثم قال: **«ائذن لعشرة»** فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: **«ائذن لعشرة»** فأذن لهم. فأكلوا حتى شبعوا، ثم قال: **«ائذن لعشرة»** فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: **«ائذن لعشرة»** فأذن لهم، حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلا أو ثمانون، وفى طريق البخارى ثمانون وقيل فى روايه ثم

أكل رسول الله ﷺ وأبو طلحة وأم سليم وأنس وفضل فضلة، فأهديناها لجيراننا.

وفى صحيح مسلم عن سلمة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة خيبر، فأمرنا أن نجمع ما فى أزوادنا، يعنى من التمر -فبسط نطعًا فثرنا عليه أزوادنا قال: فطيت فتطاولت فنظرت فحزرته كربضة شاة، ونحن أربع عشرة مائة قال: فأكلنا ثم تطاولت فنظرته فحزرته كربضة شاة.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة وأبى سعيد وسلمة بن الأكوع، واللفظ لسلم، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير، قال: فنفدت أزواد القوم حتى هموا بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر: يا رسول الله، لو جمعت ما بقى من أزواد القوم فدعوت الله عليها، قال ففعل: فجاء ذو البر ببرة، وذو التمر بتمرة: وذو النوى بنواه.

قيل: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: يمصونه ويشربون عليه الماء، قال: فدعا عليها حتى ملأ القوم أزوادهم.

قال: فقال عند ذلك **«أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيها إلا دخل الجنة»**.

قال: لما كان يوم «غزوة تبوك» أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وأدهنّا، فقال رسول الله ﷺ: افعلوا.

قال: فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلَّ الظهر، وفى رواية: ما بقاؤهم بعد إبلهم، ولكن ادْعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم البركة، لعل الله أن يجعل البركة فى ذلك.



فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فدعا بنطع فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذُرة، وجعل الأخر يجيء بكف تمر، وجعل الآخر يجيء بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير.

قال: فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال: «**خذوا فى أوعيتكم**» قال فأخذوا فى أوعيتهم حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملئوه قال: فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة (الحديث).

وروى البخارى من حديث سلمة بن الأكوع بنحوه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة، فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا، فأمرنا نبى الله ﷺ، فجمعنا مزاودنا، فبسطنا له نطعًا، فاجتمع زاد القوم على النطع، قال: فتطاولت لأحزره كم هو؟ فحزرته كربضة العنز، ونحن أربع عشر مائة. قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعًا، ثم حشينا جروبا. فقال نبى الله ﷺ: «**فهل من وضوء؟**» قال: فجاء رجل بأداوة فيها نطفة، فأفرغها فى قدح، فتوضأنا كلنا بدعفقة دعفقة، أربع عشر مائة، ثم جاء بعد ذلك ثمانية فقالوا: هل من طهور؟ فقال رسول الله ﷺ «**فرغ الوضوء**».

وفى صحيح مسلم عن جابر أن أم مالك كانت تهدى للنبى ﷺ فى عكة لها سمنًا، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم وليس عندهم شيء. فتعمد إلى الذى كانت تهدى فيه للنبى ﷺ، فتجد فيه سمنًا، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته، فأتت النبى ﷺ. فقال: «**عصرتيها**»؟ فقالت: نعم. قال: «**لو تركتيها ما زال قائمًا**».

وروى مسلم فى صحيحه عن جابر أيضًا، قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ يستطعمه فأطعمه شطر ونبق شعير، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما حتى كاله، فأتى النبى ﷺ فقال: «**لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم**».

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: تزوج النبي ﷺ زينب فدخل بأهله، قال: فصنعت أم سليم حيسًا فجعلته في تور من حجارة، فقالت: يا أنس، اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل: بعثت بهذا أمي إليك وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله.

قال: فذهبتُ بها إلى رسول الله ﷺ فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل. فقال: «ضعه» ثم قال: اذهب فادع فلانًا وفلانًا ومن لقيت» وسمى رجالا. قال فدعوت من سمى ومن لقيت قال الجعد -وهو الراوي عن أنس: عددكم كم كانوا: قال: كانوا زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أنس هات التور**» قال: فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة. فقال رسول الله ﷺ «**ليتحلق عشر عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه**». قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم. فقال: «**يا أنس ارفع**» فرفعت فما أدري حين وَضَعْتُ كان أكثر أم حين رَفَعْتُ؟ قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون، وذكروا نزول آية الحجاب.

وروى البخاري عن أنس أيضًا: أن أم سليم عمدت إلى مُدٍّ من شعير، جشته وجعلت منه خطيفة، وعصرت عكة عندها، ثم بعثتني إلى رسول الله ﷺ، فأتيته هو وأصحابه، فدعوته. قال: «**ومن معي؟**» فجئت فقلت: إنه يقول «ومن معي؟» فخرج إليه أبو طلحة فقال يا رسول الله: إنما هو شيء صنعته أم سليم، فدخل فجيء به وقال: «**أدخل عشرة**» حتى عد أربعين، ثم أكل النبي ﷺ، ثم قام فجعلت أنظر، هل نقص منها شيء؟.

عن سمرة بن جندب قال: كنا مع النبي ﷺ نتداول قصعة من غدوة من الليل، يقوم عشرة. ويقعد عشرة، فقلنا: ما كانت تُمَدُّ؟ قال: فمن أي شيء تعجب؟ وما كانت تمد إلا من ههنا، وأشار بيده إلى السماء. رواه



النسائى والترمذى، وقال: حديث حسن صحيح، ورواه الدارمى والحاكم فى صحيحه.

وفى البخارى عن أبى هريرة: أنه كان يقول: والله الذى لا إله إلا هو، إن كنت لأعتمد على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجز على بطنى من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليستتبعنى، فمر ولم يفعل، ثم مر بى أبو القاسم ﷺ، فتبسم حين رآنى، وعرف ما فى وجهى وما فى نفسى، ثم قال: «**يا أبا هر**». قلت: لبيك يا رسول الله قال: «الحق» ومضى: فاتبعته فدخل فاستأذن فأذن لى، فدخلت، فوجد لبنًا فى قدح فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: «يا أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله قال: «**الحق إلى أهل الصفة فادعهم لى**». قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا إلى مال، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءنى ذلك فقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصفة: كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا، فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت فقال: «**يا أبا هر**» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**خذ فاعطهم**» فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح. حتى انتهت إلى النبى ﷺ وقد روُى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم فقال: «يا أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**بقيت أنا وأنت**» قلت: صدقت يا رسول الله. قال: «**اقعد فاشرب**» فقعدت فشربت، فما زال يقول «**اشرب**» حتى قلت: لا والذى

بعثك بالحق ما أجد له مسلكا قال «فأرنى» فأعطيت القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة.

وفى الصحيحين عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق قال: كنا مع رسول الله ﷺ ثلاثين ومائة، فقال النبى ﷺ: هل مع أحد منكم طعام؟» فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل منفش الرأس، ثائر الرأس طويل، بغنم يسوقها فقال النبى ﷺ «أبيعا أم عطية» أو قال: «هبة» قال: بل بيع فاشترى منه شاة فصنعت وأمر النبى ﷺ بسواد البطن أن يُشوى، وأيم الله ما فى الثلاثين ومائة إلا من قد حز له النبى ﷺ حزّة من سواد بطنها، إن كان شاهداً أعطاه، وإن كان غائبًا أخبأ له، فجعل منها قصعة فأكلوا أجمعون، وشبعنا ففضلت القصعتان فحملناه على البعير» أو كما قال.

تكثير الثمار بين يدى النبى ﷺ

وأما تكثير الثمار، ففى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله أن أباه استشهد وترك دينًا، وترك ست بنات، فلما حضر جداد النخل قال: أتيت النبى ﷺ فقلت: قد علمت أن والدى قد استشهد يوم أحد، وترك دينًا كثيراً وإنى أحب أن يراك الغرماء: قال: «اذهب فبيدر كل تمر على ناحية» ففعلت، ثم دعوته. فلما نظروا إليه، كأنهم اغروا بى ذلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون، أطاف حول أعظمها بيدرًا ثلاث مرات، ثم جلس عليه ثم قال: «ادع لى أصحابك» فما زال يكيل لهم حتى أدى الله عن والدى أمانته، وأنا أرضى أن يؤدى الله عن والدى أمانته ولا أرجع إلى أخواتى بتمرة، فلم الله البيادر كلها، حتى إنى لأنظر إلى البيدر الذى كان عليه النبى ﷺ، كأنها لم تنقص تمرة واحدة.

وفى رواية أن أباه ترك عليه ثلاثين وسقا لرجل من اليهود، فاستنظره جابر، فأبى أن يُنظره، فكلم جابر النبى ﷺ ليشفع له إليه، فجاءه وكلم اليهودى ليأخذ تمر نخلة بالذى له فأبى، فدخل رسول الله ﷺ النخل، فمشى فيها، ثم قال لجابر: **«جدله فأوف له»** فجدله بعد ما راح رسول الله ﷺ ثلاثين وسقا، وفضل له سبع عشرة وسقا، فجاء جابر ليخبره بالذى كان فوجده يصلى العصر، فلما انصرف أخبره بالفضل. فقال: **«أخبر بذلك ابن الخطاب»** فذهب جابر إلى عمر فأخبره فقال عمر: لقد علمتُ حين مشى فيها رسول الله ﷺ ليباركن فيها.

وروى الإمام أحمد والترمذى وغيرهما، حديث مزود أبى هريرة، قال: أحمد: ثنا يونس ثنا حماد بن زيد عن المهاجر، عن أبى العالية، عن أبى هريرة قال: أتيت النبى ﷺ بتمرات وقلت: ادع الله لى فيهن بالبركة، قال: فصفهن بين يديه قال: ثم دعا فقال لى: **«اجعلهن فى مزودك، وأدخل يدك ولا تنثره»** قال: فحملت منه كذا وكذا وسقا فى سبيل الله، ونأكل ونطعم، وكان لا يفارق حقوى فلما قتل عثمان انقطع من حقوى فسقط» رواه الترمذى عن عمران ابن موسى الفرار، عن حماد، بنحوه، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

ورواه الحافظ عبد الغنى من طريق أخرى، عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال: كان رسول الله ﷺ فى غزاة، فأصابهم عوز من الطعام فقال: **«يا أبا هريرة عندك شىء؟»** قال: قلت لا، إلا شىء من التمر فى مزودى، قال: **«جىء به»** فجئت بالمزود وقال: **«هات نطعا»** فجئت بالنطع فبسط، فأدخل يده فقبض على التمر فإذا هو إحدى وعشرون تمرة قال: ثم قال: **«بسم الله»** فجعل يضع كل تمرة ويسمى، حتى أتى على التمر فقال له هكذا فجمعه فقال: **«ادع فلانًا وأصحابه»** فأكلوا وشبعوا وخرجوا ثم قال **«ادع فلانًا وأصحابه»** فأكلوا

وشبعوا وخرجوا، قال: وفضل تمر فـقال لى: «اقعد» فقعدت فأكل وأكلت، قال: وفضل تمر فأخـذه فأدخله فى المزود، فقال: **«يا أبا هريرة إذا أردت شيئًا فأدخل يدك فـخذ ولا تكفأ فـيكفأ عليك»**. قال: فما كنت أريد تمرًا إلا دخلت يدى، فأخذت منه خمسين وسقـا فى سبيل الله عز وجل، وكان معلقًا خلف ظهرى فوقع زمان عثمان، فذهب.

ورواه من طريق يزيد بن أبى منصور عن أبيـه عن أبى هريرة قال: أصبت بثلاث بموت النبى ﷺ، وكنت صويحبه وخـويدمه، وبقتل عثمان، والمزود، وما المزود!! كنا مع رسول الله ﷺ فأصاب الناس مخـمصة، فقال لى رسول الله ﷺ: **«هل من شىء يا أبا هريرة؟»** فقلت: نعم، شـىء من تمر فى مزود. قال: **«فائتنى به»** فأتيته به، فأخذ يده، فـأخرج قبضة فبسطها، ثم قال: **«ادع لى عشرة»** فأكلوا حتى شبعوا، فما زال يصنع كذلك حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا، ثم قال: **«خذ ما جئت به وأدخل يدك واقبض، ولا تكفه»**.

قال أبـو هريرة: قبـضت على أكثـر مما جئت به، ثم قـال أبو هريرة: ألا أحدثكم عمـا أكلت منه؟ أكلت حياة[1] رسول الله ﷺ وأطعمـت، وحياة[1] أبى بكر وأطعمت، وحياة[1] عمر، وأطعـمت، وحياة[1] عثمان وأطعمت، فلما قتل عثمان انتهب بيتى وذهب المزود.

وروى الإمام أحمد فى مسنده: ثنا يعلى بن عبـيد، ثنا إسماعيل عن قيس عن دكين بن سعيد المدنى قال: أتينا رسـول الله ﷺ أربعين وأربعمائة، فسأله الطعام فقـال لعمر: **«اذهب فأعطهم»**، فقـال: يا رسول الله ما بقى إلا آصع من تمر ما أرى تقـبضنى، قال ﷺ: **«اذهب فأعطهم»**، قال: سمـعًا وطاعة، قال: فأخرج عمـر المفتاح منَ حجزته ففتح الباب، فـإذا شبه الفصيل الرابض

(١) أى: مدة حياة رسول الله ﷺ.



من تمر فقال: خذوا، فأخذ كل منا ما أحب، ثم التفت وكنت من آخر القوم، وكأنا لم نرزأ تمرة.

ورواه أبو داود عن عبد الرحيم بن مطرق عن عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبى خلد، عن قيس بن أبى حازم، عن دكين، قال أبو عبد الله المقدسى: وإسناده على شرط الصحيح.

تأثير النبى ﷺ وتصرفه فى الأحجار

وأما النوع الخامس، تأثيره فى الأحجار وتصرفه فيها وتسخيرها له.

ففى صحيح البخارى عن أنس قال: صعد النبى ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم الجبل فقال: «**اسكن**» وضربه برجله «**فليس عليك إلا نبى وصدِّيق وشهيدان**».

وفى الصحيحين عن جابر بن سمرة عن النبى ﷺ أنه قال: «**إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىَّ قبل أن أبعث، إنى لأعرفه الآن**».

وفى الترمذى عن على قال: «كنت مع النبى ﷺ بمكة، فخرجنا فى بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله» ورواه الحاكم فى صحيحه وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ حُنينا، فلما واجهنا العدو تقدمته فأعلو ثنية، فاستقبلنى رجل من العدو، فرميته بسهم فتوارى عنى، فما دريت ما صنع ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى، فالتقوا هم وأصحاب محمد ﷺ، فولى أصحاب النبى ﷺ، فرجعت منهزما، وعلى بردتان، متزراً بإحداهما، مرتديًا بالأخرى، فاستطلق إزارىً فجمعتهما جميعًا، ومررت على رسول الله ﷺ منهزمًا وهو على بغلته الشهباء؛ فقال رسول الله ﷺ: «**لقد**

رأى ابن الأكوع فزعا» فلما غشوا النبى ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من الأرض واستقبل بها وجوههم فقال: «**شاهت الوجوه**» فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولوا مدبرين، فهزمهم الله.

وفى صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامى، فلما التقى المسلمون والكفار، وولى المسلمون مدبرين، طفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أى عباس، ناد أصحاب السمرة**» فوالله لكأن عطفهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها، يا لبيك يا لبيك. قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة فى الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج فقالوا: يا بنى الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «**هذا حين حمى الوطيس**» ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى وجوه الكفار ثم قال: «**انهزموا ورب الكعبة**» قال فذهبت أنظر. فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدهم كليلا، وأمرهم مدبرًا حتى هزمهم الله، وقد قال الله تعالى عن يوم بدر ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**﴾ [الأنفال: ١٧].

وروى ابن إسحاق عن جماعة، منهم عروة، والزهرى، وعاصم بن عمرو وغيرهم قالوا: فكان رسول الله فى العريش، هو وأبو بكر، ما معهما غيرهما، وقد تدانى القومى بعضهم من بعض، فجعل رسول الله ﷺ يناشد ربه، ما وعده من نصره ويقول: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد**»، وأبو



بكر يقول: بعد مناشدتك ربك يا رسول الله فإن الله سينجز لك ما وعدك من نصره، وخفق رسول الله ﷺ خفقة ثم هب، فقال رسول الله ﷺ: «**أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله عز وجل هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع (يقول الغبار)**» ثم خرج رسول الله ﷺ فعبأ أصحابه وهيأهم وقال: «**لا يعجلن منكم بقتال حتى يؤذنه فإذا أكثبكم القوم -يقول قربوا منكم- فانضحوهم عنكم بالنبل**» ثم تزاحم الناس، فلما تدانى بعضهم من بعض، خرج رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من حصباء، ثم استقبل بها قريشًا فنفخ بها وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**احملوا عليهم يا معشر المسلمين**» فحمل المسلمون وهزم الله قريشًا، وقُتل من قُتل من أشرافهم، وأسر من أسر منهم.

وفي حديث ابن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس قال له جبريل، «**خذ قبضة من تراب**» فأخذ قبضة من تراب، ورمى بها وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين.

تأييد الله عزوجل للنبي ﷺ بملائكته

النوع السادس من آياته، تأييد الله له بملائكته، قال الله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩]، الآية وقال تعالى: ﴿**إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥]، وقال تعالى في الخندق: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ**

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩]، وقال تعالى في حنين: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ** ﴾ [التوبة: ٢٦] وقال تعالى في الهجرة: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا** ﴾ [التوبة: ٤٠] وقال تعالى في بدر: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾ [الأنفال: ١٢].

وفي الصحيحين -واللفظ لمسلم- عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه وجعل يهتف بربه: «**اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه مادًا يديه، مستقبل القبلة حتى سقط رداءه عن منكبيه.

فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه عن منكبيه، ثم التزمه من ورائه، فقال: «يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك» فأنزل الله عز وجل: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ [الأنفال: ٩] فأمده الله بالملائكة.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة سوط فوقه، وسط الفارس يقول: «أقدم حيزوم» فنظر إلى المشركين أمامه، فخر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا قد خطم أنفه، وشق وجهه، كضربة بالسوط، فاخضر ذلك أجمع.

فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة**» فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين، وذكر الحديث.



وذكر البخارى فى هذا الحديث: فخرج -يعنى النبى ﷺ- وهو يقول: «**سيهزم الجمع ويولون الدبر**».

وقال ابن إسحاق: حدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم، عن بعض بنى ساعدة قال: سمعت أبا أسد مالك بن ربيعة -بعد ما أصيب بصره- يقول: لو كنت معكم ببدر الآن، ومعى بصرى، لأخبرتكم بالشعب الذى خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى، فلما نزلت الملائكة رآها إبليس، وأوحى الله إليهم: ﴿**أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الأنفال: ١٢]، إن الملائكة تأتى الرجل فى صورة الرجل تعرفه وتقول له: أبشروا، فإنهم ليسوا بشىء، والله معكم، كروا عليهم.

فلما رأى إبليس الملائكة، نكص على عقبيه، وقال: ﴿**إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ**﴾ [الأنفال: ٤٨]، وهو فى صورة سراقة.

وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول: لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه على موعد مع محمد وأصحابه، ثم قال: واللات والعزى لا ترجع حتى نقرن محمداً وأصحابه فى الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً».

وفى الصحيحين، عن سعد بن أبى وقاص قال: رأيت يوم «أحد» عن يمين النبى ﷺ وعن يساره، رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عن رسول الله ﷺ أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده-؟ يعنى جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وفى الصحيحين عن عائشة قالت: أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش بن العرقة، رماه فى الأكحل، فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة فى المسجد يعوده من قريب.

فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق، ووضع السلاح، فاغتسل فأتاه جبريل عليه السلام، وهو ينفض عن رأسه من الغبار، فقال: «وضعت



السلاح، فوالله ما وضعناه، أخرج إليهم» فقال رسول الله ﷺ «فأين» فأشار إلى بنى قريظة، فقاتلهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فرد رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلى سعد، قال: فإنى أحكم فيهم أن يقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية والنساء، وتقسم أموالهم.

وفى بعض طرق البخارى: فأتاه جبريل وقد عُصب رأسه الغبار.

وروى البخارى عن أنس قال: كأنى أنظر إلى الغبار ساطعًا فى زقاق بنى غنم، موكب جبريل صلوات الله عليه، حين سار رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة.

وفى المغازى من طريق: أن الصحابة رأوا جبريل فى صورة «دحية الكلبى»

وأنه معتم بعمامة أرخى طرفها بين كتفيه، وقال النبى ﷺ: بعثه الله إلى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويلقى الرعب فى قلوبهم.

وروى البخارى عن ابن عباس: أن النبى ﷺ قال يوم بدر **«هذا جبريل، أخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب»**.

وفى الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: **«يا رسول الله هل** لى أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال ﷺ: **«لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلاب، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فنادانى ملك الجبال وسلّم علىّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قومكَ لك وما ردوا عليك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثنى إليك ربك لتأمرنى بأمرك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت.**

فقال رسول الله ﷺ : «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا».

النوع السابع: فى كفاية الله له أعداءه، وعصمته له من الناس، وهذا فيه آية لنبوته من وجوه:

منها: أن ذلك تصديق لقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٦]، فهذا إخبار الله بأنه يكفيه المشركين المستهزئين.

وأخبر أنه يكفيه أهل الكتاب بقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].

فأخبره الله أنه يكفيه هؤلاء المشاقين له من أهل الكتاب، وأخبره أنه يعصمه من جميع الناس بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة: ٦٧] فهذا خبر عام، بأن الله يعصمه من جميع الناس.

فكل من هذه الأخبار الثلاثة العامة، قد وقع كما أخبر، وفى هذا عدة آيات.

منها: أنه كفاه أعداءه، بأنواع عجيبة خارجة عن العادة المعروفة.

ومنها: أنه نصره مع كثرة أعدائه وقوتهم وغلبهم، وأنه كان وحده جاء هو بمعاداتهم، وسب آبائهم، وشتم آلهتهم وتسفيه أحلامهم، والطعن فى دينهم وهذا من الأمور الخارقة للعادة.

والمستهزئون كانوا من أعظم سادات قريش، وعظماء العرب، وكان أهل مكة أعز الناس وأشرفهم، يعظمهم جميع الأمم.

أما العرب فكانوا يدينون لهم، وأما غيرهم من الأمم، فكانوا يعظمونهم به، لاسيما من حين ما جرى لأهل الفيل ما جرى، كما كانت الأمم تعظم بنى إسرائيل، لما ظهر فيهم من الآيات ما ظهر.

وهؤلاء بنو إسماعيل ابن خليل الله، وهؤلاء بنو إسحاق ابن خليل الله، وكلاهما ممن وعد الله إبراهيم فى التوراة فيهم بما وعده، من إنعام الله عليه النعمة التى ينعم الله بها على غيرهم.

فكان أهل مكة معظمين لأنهم جيران البيت، ولأنهم أشراف بنى إسماعيل. فإن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى بنى هاشم من قريش، واصطفى محمدًا من بنى هاشم.

وكان قد عاداه أشراف هؤلاء، كما عادى المسيح أشراف بنى إسرائيل.

وبدّل هؤلاء وهؤلاء نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار.

وكفى بالله رسوله المسيح من عاداه منهم، ولم ينفعهم نسبهم ولا فضل مدينتهم.

وكذلك كفى الله محمدًا ﷺ من عاداه، وانتقم منهم، ولم ينفعهم انتسابهم، ولا فضل مدينتهم.

فإن الله إنما يثيب بالإيمان والتقوى، لا بالبلد والنسب، فقال تعالى: ﴿**وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٦، ٦٧] وقال: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ**﴾ [محمد: ١٣]، وقال: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ**



فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ النحل: ١١٢، ١١٣] وقد سمى أهل العلم بعض من كفاه الله من المستهزئين، وكانوا معروفين مشهورين عند الصحابة بالرياسة والعظمة، فى الدنيا، فذكروهم ليُعرف هذا الأمر العظيم، الذى أكرم الله نبيه به.

ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال أبو جهل: «**هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟**» قيل نعم. قال: «**واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته**»، فما فاجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه. فقيل له: مالَكَ؟ قال: «**إن بينى وبينه لخندقًا من نار، وهؤلاء أجنحةً**» فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**» وأنزل الله تعالى: ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (10) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (12) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (13) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (14) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ [العلق: ٩- ١٩].

وفى الصحيحين من حديث البراء بن عازب، حديث هجرة النبى ﷺ وأبى بكر من مكة إلى المدينة قال فيه سراقة بن مالك بن جعشم، ونحن فى جدد من الأرض فقلت: يا رسول الله أتينا، قال: «**لا تحزن إن الله معنا**»، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فارتبطت فرسه إلى بطنها فقال: «**إنى قد علمت أنكما دعوتما على فادعوا لى، والله لكما أن أرد منكما الطلب، فدعا الله فنجا، فرفع لا يلقى أحداً إلا قال: قد كفيتم ما ههنا فلا يلقى أحد إلا رده**».

وفى لفظ «**فساخ فرسه فى الأرض إلى بطنه، ووثب عنه فقال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن يخلصنى مما أنا فيه، ولك على لأعمين على من ورائى**».

وفى الصحيحين عن ابن شهاب، من رواية سراقة نفسه قال: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون فى رسول الله ﷺ وأبى بكر، دية كل واحد منهما لمن قتله أوأسره.

فبينما أنا جالس فى مجلس قومى بنى مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة،إنى رأيت آنفًا أسودة بالساحل، أراهما محمدًا وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت: ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا، ثم لبثت ساعة، ثم قمت فدخلت بيتى، فأمرت جاريتى أن تخرج فرسى وهى من وراء أكمة فتجسها على، وأخذت رمحى فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزجه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسى فركبتها، فرفعتها تقرب بى حتى دنوت منهم وعثرت فى فرسى، فخررت عنها، فقمت عنها، فأهويت بيدى إلى كنانتى فاستخرجت منها الأزلام؛ فاستقسمت بها: أضرهم أم لا، فيخرج الذى أكره، فركبت وعصيت الأزلام، فقربت بى، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسى فى الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لا تريد بها غبار ساطع فى السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام. فخرج الذى أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسى حتى جئتهم، ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ. وذكر تمام الحديث.

وفى الصحيحين عن جابر قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزاة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ فى القائلة، فى واد كثير الفضاء، فنزل رسول الله ﷺ



تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر.

فقال رسول الله ﷺ: «إن رجلا أتاني، وأنا نائم، فأخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على رأسي، والسيف صلتا في يده. فقال: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فسام السيف، فها هو ذا جالس» ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ وكان ملك قومه، فانصرف حين عفا عنه فقال: لا أكون في قوم هم حربٌ لك.

وفي صحيح الحاكم عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال: كان فلان يجلس إلى النبي ﷺ، فإذا تكلم النبي ﷺ اختلج بوجهه، فقال النبي ﷺ: «كن كذلك»، فلم يزل يختلج حتى مات».

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: كان نصراني فاسلم وقرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له.

فقال: رسول الله ﷺ: «اللهم اجعله آية» فأماته الله، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه فحفروا له فأعمقوا ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض فقالوا: مثل الأول، فحفروا له وأعمقوا، فلفظته الثالثة، فعلموا أنه ليس من فعل الناس فتركوه منبوذًا.

وروى الإمام أحمد من حديث محمد بن إسحاق قال: حدثني يحيى بن عروة عن أبيه عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا: أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال حضرتهم وقد أجتمع أشرافهم يومًا في الحِجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل ﷺ قط، قد سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وفرق جماعاتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا على أمر عظيم، أو كما قالوا.

فبينما هم فى ذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت فلما أن مرَّ بهم، غمزوه ببعض ما يقول. قال: فعرفت ذلك فى وجهه ثم مضى، فلما مر الثانية بهم غمزوه بمثلها فعرفت ذلك فى وجهه، ثم مضى فَمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فقال: «تسمعون يا معشر قريش يا معشر قُريش، أما والذى نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح» فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك، ليرفأه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: «انصرف انصرف يا أبا القاسم راشدًا، فوالله ما كنت جهولاً فانصرف رسول الله ﷺ، حتى إذا كان من الغد، اجتمعوا فى الحِجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه.

فبينما هم فى ذلك. طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون: أنت الذى تقول كذا وكذا، لما كان يبلغهم عن عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: **«نعم، أنا الذى أقول ذلك»** قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكى: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟ ثم انصرفوا عنه.

وذكر البخارى بعد حديث عروة عن عبد الله بن عمرو قال: وقال عبده عن هشام عن أبيه، قيل لعمرو بن العاص.

وروى سعيد بنُ جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى: **﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾** [الحجر: ٩٥] قال: المستهزئون **«الوليد بن المغيرة»** و**«الأسود بن عبد يغوث الزهرى»** و**«الأسود بن عبد المطلب»** أبو زمعة من بنى أسد بن عبد العُزَّى و**«الحارث بن عيطل السهمى»** و**«العاص بن وائل»** فأومى جبريل إلى أكحل الوليد بن المغيرة، فقال له النبى ﷺ: **ما صنعت؟ قال**: كفيته، وأومى



إلى الأسود بن عبد يغوث فقال. ما صنعت؟ قال: كفيته، وأومى إلى الحارث السهمى إلى بطنه، فقال: ما صنعت؟ قال. كفيته، وأومى إخمص العاص بن وائل، فقال: ما صنعت؟ قال: كفيته.

فأما الوليد فمرَّ برجل من خزاعة وهو يُريش نبله فأصاب أكحله فقطعها.

وأما الأسود بن عبد المطلب، فعمى فمنهم من يقول: عمى هكذا، ومنهم من يقول: نزل تحت سمرة فجعل يقول: يا بنى ألا تدفعون عنى؟ ويقولون: ما نرى شيئًا فجعل يقول: هلكت ها هو ذا.. أُطعن فى عينىَّ بالشوك.. فجعلوا يقولون: ما نرى شيئًا فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه. وأما الأسود. فخرج فى رأسه قروح فمات منها. وأما الحارث بن عيطل فأخذه الماء الأصفر فى بطنه حتى خرج خرؤه من فيه فمات. وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف على حمار، فربض به فى شبرقة يعنى شوكة، فدخلت فى إخمص قدمه فمات وقيل: دخلت فى رأسه شبرقة فمات ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره ثنا يونس بن حبيب، ثنا أبو داود، ثنا أبو عوانة، ثنا أبو سير، عن سعيد وروى بإسناده عن الربيع ابن أنس، قال: أراد صاحب اليمن أن يأوى النبى ﷺ، فأتاه الوليد فزعم أن محمدًا ساحر، وأتاه العاص بن وائل فأخبره أن محمدًا ﷺ تعلم أساطير الأولين، وأتاه آخر فزعم أنه كاهن وآخر أنه شاعر، وآخر رغم أنه مجنون، فأهلكهم الله كل منهم أصابه عذاب سوى عذاب صاحبه، وذكر تفصيل عذابهم.

وروى مثله عن عكرمة. وقال محمد بن إسحاق ثنا يزيد بن رومان عن عكرمة وغيره من العلماء، أن جبريل أتى النبى ﷺ وهم يطوفون بالبيت فقام رسول الله ﷺ إلى جانبه فمر به الأسود بن عبد المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعمى، ومر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه فاستسقى، فمات منها ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى جرح بأسفل كعبه كان أصابه لما مر برجل يربش نبله فخدش رجله وليس بشىء فانتقض فمات. ومر به العاص بن

وائل فأشار إلى إخمص قدمه فذكر مثل ما تقدم من رواية ابن عباس ورواه أبو زرعة من طرق كثيرة عن جماعة من التابعين. ومن المشهور عند أصحاب السير وغيرهم دعوته على عتيبة بن أبى لهب، وكان أبو لهب لما عادى النبى ﷺ أمر ابنيه أن يُطَلِّقَا ابنتى النبى ﷺ، رقية وأم كلثوم قبل الدخول، وقال عتيبة لرسول الله ﷺ: كفرت بدينك وفارقت ابنتك لا تحبينىَ ولا أحيبك، ثم تسلط عليه بالأذى وشق قميصه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك، فخرج فى نفر من قريش، حتى نزلوا فى مكان من الشام يقال له الزرقاء ليلاً فأطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول: ويل أخى هو والله آكلى كما دعا محمد علىّ، قتلنى وهو بمكة وأنا بالشام فعدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه، وفى رواية هشام بن عروة عن أبيه قال: لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم قاموا وجعلوا عتيبة فى وسطهم فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة ففدغه.

وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبى ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى انطلق إنسان إلى فاطمة فجاءت وهى جويرية فطرحته عنه ثم أقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى النبى ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا ثم قال: «اللهم عليك بقريش» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته، ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: «اللهم عليك بأبى جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد

بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط»، وذكر السابع لم أحفظه فوالذى بعث محمدًا بالحق، لقد رأيت الذى سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر.

وعنه قال استقبل رسول الله ﷺ، القبلة ودعى على ستة نفر فذكره، وفى رواية غير أن أمية بن خلف، كان رجلاً ضخمًا فقطعت أوصاله، فلم يلق فى البئر، وقال: غيرتهم الشمس، وكان يومًا حارًا.

انتقام الله عز وجل ممن يسب النبى ﷺ ويذمه ويذم دينه ﷺ

ويدخل فى هذا الباب ما لم يزل الناس يرونه ويسمعونه من انتقام الله ممن يسبه ويذمه ويذم دينه بأنواع من العقوبات، وفى ذلك من القصص الكثيرة، ما يضيق هذا الموضع عن بسطه، وقد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه من انتقام الله ممن يؤذيه بأنواع من العقوبات العجيبة، التى تبين كلاءة الله لعرضه وقيامه بنصره، وتعظيمه لقدره، ورفعه لذكره، وما من طائفة من الناس إلا وعندهم من هذا الباب ما فيه عبرة لأولى الألباب، ومن المعروف المشهور المجرب عند عساكر المسلمين بالشام، إذا حاصروا بعض حصون أهل الكتاب أنه يتعسر عليهم فتح الحصن، ويطول الحصار إلى أن يسب العدو لرسول الله ﷺ، فحينئذ يستبشر المسلمون بفتح الحصن وانتقام الله من العدو فإنه يكون ذلك قريبًا كما قد جربه المسلمون غير مرة تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣].

ولما مزق كسرى كتابه مزق الله ملك الأكاسرة كل ممزق، ولما أكرم هرقل والمقوقس كتابه بقى لهم ملكهم.

النوع الثامن: فى إجابة دعوته، وإجابة الدعاء منه ما تكون إجابته معتادة لكثير من عباد الله كالإغناء والعافية ونحو ذلك.

ومنه ما يكون المدعو به من خوارق العادات كتكثير العطام الشراب كثرة خارجة عن العادة، وإطعام النخل فى العام مرتين، مع أن العادة فى مثله مرة، ورد بصر الذى عمى، ونحو ذلك مما يأتى وما تقدم من أدعيته.

ومعلوم أن من عودة الله إجابة دعائه، لا يكون إلا مع صلاحه ودينه، ومن ادعى النبوة لا يكون إلا من أبر الناس إن كان صادقًا، أو من أفجرهم إن كان كاذبًا، وإذا عوده الله إجابه دعائه لم يكن فاجرًا بل برًا، وإذا لم يكن مع دعوى النبوة إلا برًا تعين أن يكون نبيًا صادقًا، فإن هذا يمتنع أن يتعمد الكذب، ويمتنع أن يكون ضالاً يظن أنه نبى، وأن الذى يأتيه ملك، ويكون ضالاً فى ذلك، والذى يأتيه الشيطان، فإن هذا حال من هو جاهل بحال نفسه، وحال من يأتيه، ومثل هذا لا يكون أضل منه، ولا أجهل منه، لأن الله تعالى جعل بين الملائكة والشياطين، وبين الأنبياء الصادقين، وبين المتشبهين بهم من الكذابين من الفرق ما لا يحصيه غيره، بل جعل بين الأبرار والفجار من الفروق أعظم مما بين الليل والنهار، ولأن ما يأتى به الأنبياء من الأخبار والأوامر مضادة من كل وجه لما يأتى به الشيطان، ومن استقرء أحوال الرسل وأتباعهم وحال الكهان والسحرة، تبين له ما يحقق ذلك.

والشيطان الذى يقول لمن ليس بنبى إنك نبى صادق، والله أرسلنى إليك، يكون من أعظم الناسَ كذبًا، والكذاب يستلزم الفجور، فلابد أن يأمره بما ليس صدقًا بل كذبًا، كما هو الواقع ممن تضله الشياطين من جهلة العباد، وممن يزين له أنه نبى أو أنه المهدى أو خاتم الأولياء. فكل هؤلاء لابد أن تأمره الشياطين بإثم، ولا بد أن يكذب فى بعض ما تخبره به، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].



وحينئذ: فمثل هذا لا يكون مع دعوى النبوة من الأبرار الذين عوَّدهم الله إجابة دعواهم إجابة خارجة عن العادات، بل لا يكون مع دعوى النبوة إلا من الأفاكين الفجار، وإذا كان صادقًا فى دعوى النبوة عالمًا بأنه صادق ثبت أنه نبى.

والأنبياء معصومون من الإقرار على الخطأ فيما يبلغونه عن الله باتفاق الناس، وحينئذ: فكل ما يبلغه عن الله فهو حق، وهو المطلوب، ومن كان يأتيه صادق وكاذب، مثل ابن صياد ومثل كثير من العباد الذين لهم إلهام من الملك، ووسواس من الشيطان، فمثل هذا أخبره الشيطان بأنه نبى، ويقول: أنا أرسلنى الله فلابد أن يتبين كذبه، ولو ببعض الوجوه، مثل: أن يخبره بكذب فإن مثل هذا الشيطان الذى قال له إنه نبى لابد أن يكذب فيما يخبره، ومثل إخبار الصادق له بأن هذا كاذب فإذا أتاه الشيطان بالكذب لا بد أن يخبره الصادق الذى يأتيه بما يخالف ذلك، بخلاف الإخبار بأمور جزئية إذ إخباره بأنه نبى صادق مع أنه ليس كذلك، يهلكه هلاكًا عظيمًا، ويفسد على الصادق جميع ما يأتيه به؛ لأن ذلك يستلزم أن يصدق ذلك الكاذب، فى كل ما يخبره به، إذ قد اعتقد أنه نبى، وحينئذ فلا يكون عنده كاذبًا، ولا يعرف أنه كاذب فلا يكون مثل ابن صياد ونحوه، ممن يعرف أنه يأتيه صادقًا وكاذب، بل أضل من هؤلاء من يظن أن كل ما يأتيه فهو صادق، ولهذا كل من كان يأتيه ملكى صادق، وأخبار شيطانى كاذب، فلابد أن يعرف أنه يأتيه كاذب، لأنه تبين له الكذب فيما يخبره به الشيطان الكاذب، كما هو الواقع، ولهذا يوجد الكهان يعرفون كذب من يخبرهم كثيرًا، وكذلك العباد الذين لهم خطابات ومكاشفات، بعضها شيطانى، وبعضها ملكى، يتبين له الكذب فيما يأتيهم به الشيطان، كما هو الواقع فلا يوجد شيخ عابد له حال شيطانى إلا ولا بد أن يخبره بكذب يظهر له أنه كذب، وحينئذ: فإذا صدق هذا

الكاذب في إخباره النبوة كان مصدقا لكاذب، ولأن الصادق الذى يأتيه مخبراً له بالصدق، ناصحًا له، لا بد أن يبين له ذلك فلا يصر على اعتقاده أن من يأتيه صادق، وهو فى نفس الأمر كاذب، ولا يعلم أنه كاذب، إلا من هو أفاك أثيم، والله تعالى يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

فينزلها على الأفاك الأثيم، وأما نزول الشيطان مرة أو مرتين، فقد يكون على من ليس بأفاك أثيم، فإن من لم يكن مدعيًا للنبوة، فيمتنع أن يقره الصادق الذى يأتيه على ذلك، بل لا بد أن يبين له هذا إن جوز ذلك.

فإن الناس تنازعوا: هل يجوز أن يلقى الشيطان على لسان النبى ما ينسخه الله ويمحوه أو لا يجوز ذلك؟ وعلى كل حال يمتنع أن يقرأ على خطأ.

والمقصود هنا ذكر بعض أدعية النبى ﷺ! التى شوهد إجابتها، وقد تقدم ذكر بعض أدعيته، مثل دعائه على الملأ من قريش، فقتلوا «يوم بدر» وألقوا فى القليب ومثل: دعائه على عتيبة بن أبى لهب ومثل دعائه على الذى كذب عليه بأن يجعله آية. ومثل دعائه لما قل الزاد وجمعوه على نطع فكثره الله ببركة دعوته حتى كفى الجيش العظيم فى «غزوة تبوك» ومثل دعائه فى «غزوة الخندق» فكفى الطعام، وهو صاع من شعير لألف نفر، وكذلك دعاؤه لما نزحت بئر «الحديبية» فكثر ماؤها، حتى كفى الركب، وهم ألف وخمسمائه وركابهم.

وقد تقدم دعاؤه للذى ذهب بصره فأبصر، ودعاؤه فى الاستسقاء فما رد يديه إلا والسماء قد أمطرت، ودعاؤه فى الاستصحا[1] وإشارته إلى السحاب

---

(١) الاستصحا: طلب الصحو. ومعنى ذلك انكشاف الغيم، وإقلاع السماء عن المطر، وكان ذلك بعد الاستسقاء، لما عاد الرجل إلى النبى ﷺ، وشكا إليه كثرة المطر وما فعله بهم من أفاعيل.



فقطع من ساعته، ودعوته على «سراقة بن جعشم» لما تبعهم فى الهجرة، فغاصت فرسه فى الأرض، ودعاؤه «يوم بدر ويوم حنين» وقال الله له يوم بدر: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ [الأنفال: ٩] وأمثال ذلك.

وفى الصحيحين عن جابر قال لما نزل ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٥] قال النبى ﷺ: **«أعوذ بوجهك، (أو من تحت أرجلكم) قال: أعوذ بوجهك (أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض)**. قال: هاتان أهون أو أيسر.

وفى الصحيحين: عنه ﷺ قال: «سألت ربى ثلاثًا فأعطانى اثنتين، ومنعنى واحدة، سألته أن لا يهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلط عليها عدوًا من غيرهم فيجتاحهم، فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها فلن يُزال الهرج[1] إلى يوم القيامة». وفى صحيح مسلم من حديث سلمة بن الأكوع قال جعل عمى يرجز ويقول:

تالله لولا اللهُ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

ونحن من فضلك ما استغنينا ... فثبت الأقدام إن لاقينا

* وأنزلنْ سكينة علينا*

فقال رسول الله ﷺ: **«من هذا»** قالوا، عامر، قال: **«غفر لك ربك»**. قال: وما استغفر رسول الله ﷺ لإنسان يخصه إلا استشهد قال: فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل يا نبى الله لولا متعتنا بعامر؟. قال: فلما قدمنا خيبر خرج ملكهم «مرحب» يخط بسيفه وهو يقول:

قد علمت خيبرُ أنِّى مرحبُ ... شاكى السلاح بطلٌ مجرَّبُ

(١) الهرج: القتل.

* إذا الحروبُ أقبلت تَلَهَّبُ*

قال وبرز له عمى عامر فقال:

قَــدَ علِمَتْ خَــيْبَــرُ أنِّى عَــامِــرٌ شَــاكِى السِّــلاح بَطَلٌ مُــغَــامِــرُ

قال: فاختلفا ضربتين فـوقع سيف «مرحب» في ترس عامر، وذهب عامر يسل سيفـه، فرجع سيفـه على نفسه فقطع أكحله، وكـانت فيها نفـسه، قال سلمة، فَـخَرَجْتُ من أصحاب النبـى ﷺ، يقولون: بَطُلَ عَمَلَ عامـر، قتل نفـسه. قـال: فأتيـت النبى ﷺ وأنا أبكى فقـلت: يا رسول الله بطل عـمل عامر. قال رسول الله ﷺ: **«من قال ذلك؟»** قلت: ناس من أصحابك. قال: **«كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين»**.

وفى الصحـيحين عن أنس بن مـالك قال: قـالت أم سليم: يا رسول الله خادمك أنس ادع الله له. فقال: **«اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته»**.

وروى البـخارى قـال دخل النبى ﷺ على أم سليم فـأتته بتـمر وسـمن. فقـال: أعيدوا سـمنكم فى سقائـه، وتمركم فى وعائه[1]، ثم قام إلى ناحـية البيت فصلى غير مكتوبة، فـدعى لأم سليم وأهل بيتها. فقالت أم سليم. يا رسول الله إن لى خويصة فقال: **«ما هى؟»** قالت خادمك أنس، قال فما ترك آخرة ولا دنيا إلا دعى به **«اللهم ارزقه مالاً وولداً وبارك فيه»**.

فإنى لمن أكثر الأنصار مالا، وحـدثنى ابنتى أمينة أنه دفن لصلبى إلى مقدم الحجـاج البصـرة بضع وعشرون ومـائة، وفى رواية «لمسلم» دعـا إلى بثلاث دعوات قد رأيت منها اثنتين وأنا أرجو الثالثة فى الآخرة.

---

(١) فى رواية: (فإنا صائمون). وهذا هو الذى دعا النبى ﷺ إلى رفض (طعام أم سليم).



وفى الترمذى وحسنه عن أبى خلدة قال: قلت لأبى العالية سمع أنس من رسول الله ﷺ؟. قال: خدمه عشر سنين ودعى له النبى ﷺ، وكان له بستان يحمل فى السنة الفاكهة مرتين، كان فيها ريحان يجىء منه ريح المسك.

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى فقلت يا رسول الله إنى كنت أدعو إلى الإسلام وتأبى على فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره، فادع الله أن يهدى أم أبى هريرة. فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم اهد أم أبى هريرة»**. فخرجت مستبشرًا بدعوة رسول الله ﷺ، فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمى خشف قدمى، فقالت: مكانك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب فقالت: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله فأتيته وأنا أبكى من الفرح، فقلت: يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبى هريرة، فحمد الله وقال خيرًا، فقلت يا رسول الله: أدع الله أن يحببنى وأمى إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم حبب عبدك هذا «يعنى أبا هريرة» وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهما المؤمنين»** فما خلق الله مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى.

وفى الصحيحين عن أنس أن النبى ﷺ رأى على عبد الرحمن ابن عوف أثر صفرة فقال: **«ما هذا؟»** قال يا رسول الله إنى تزوجت امرأة. قال: **«كم سقت إليها؟»** قال: وزن نواة من ذهب. قال: فبارك الله لك أولم[1] ولو بشاة. وفى الصحيحين: أنه لما قدم آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه سعد بن الربيع أن يناصفه أهله وماله، فقال له

(١) أولم: يعنى: اصنع وليمة.

عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومـالك، دلنى على السوق فما انقلب إلا بسمن وأقط، ثم تابع الغد، وذكر الحديث، فظهرت بركة دعوة رسول الله ﷺ فبلغ من مـال عبد الرحمن، مـا قاله الزهرى أنه تصدق بأربعـمائه ألف دينار، وحمل على خمسمائة فرس، فى سبـيل الله وخمسمائة بعير فى سبيل الله. قال وكان عامة مـاله التجارة، وقال محمدُ بن سيرين: اقـتسم نساء عبد الرحمن بن عوف ثمنهن فكان ثلاثمائة وعشرين ألفًا.

وقال الزهرى: أوصى عبد الرحمن لمن شـهد بدرًا فوجدوا مائة لكل رجل منهم أربعمائة دينار.

وقال عبـد الله بن جعفر حـدثتنى أم بكر بنت المسور أن عبـد الرحمن باع أرضًـا بأربعين ألف دينار، فقـسمـهـا فى فقـراء بنى زهرة، وفى المهاجـرين وأمهات المؤمنين. وقال محمد بن عمرو بن أبى سلمة أن عبد الرحمن أوصى لأمهات المؤمنين بحديقة قومت بأربعـمائة ألف، وفى الترمذى وصححه ورواه ابن حبـان فى صحـيحـه عن ابن عمـر أن رسول الله ﷺ قال: «اللـهم أعز الإسـلام بأحب الرجلين إليك: بعـمر بن الخطاب أو بـأبى جهل بن هشـام» وكان عمر بن الخطاب أحبهمـا إلى الله؛ فأسلم عمر، وروى أن الدعوة كانت فى يوم الأربعاء فأسلم يوم الخميس، وأعـز الله به الإسلام، قال عبد الله بن مسعود: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر. رواه البخارى، **وظهر من عز الإسلام فى إمارته شرقًا وغربًا، وفتح الشام والعراق ومصر، وكـسر عساكر كسرى وقيصر: ما تحقق به إجابة الدعوة.**

وفى الصحيحين أن ابن عبـاس وضع للنبى ﷺ لما أتى الخلاء وضوءًا فقال لما خرج: **«من وضع هذا؟»** فقـيل: ابن عباس فـقال: **«اللهم فقـهه فى الدين، وعلمه الـتأويل»** وفى رواية قـال: ضمنى رسـول الله ﷺ إلى صدره وقـال:



«اللهم علمه الكتاب» وفي رواية «الحكمة» وظهرت إجابة دعوته حتى كان يسمى «البحر».

وقال فيه ابن مسعود لو أدرك ابن عباس أسناننا لما عشره منا أحد، وكان عمر يقدمه ويدخله مع أكابر الصحابة، وعلم ابن عباس مشهور فى الأمة.

وفى الصحيحين عن جابر قال: كنت أسير على جمل قد أعيا وأردت أن أسيبه قال: فلحقنى رسول الله ﷺ فضربه، ودعا له، فسار سيرًا لم يسر مثله، وفى رواية فقال لى: «ما لبعيرك؟» فقلت عليل. قال: فتخلف رسول الله ﷺ في حيزه، فدعى له فمازال يسير بين يدى الإبل قدامها فقال: بَرأَ بعيرك قلت: بخير قد أصابته بركتك، قال فبعنيه. وذكر الحديث.

وفى الترمذى وغيره، قال النبى ﷺ: «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» وفى لفظ: «اللهم أجب دعوته، وسدد رميته» فكان سعد لا يرمى إلا يصيب، ولا يدعو إلا أجيب.

وروى الحاكم فى صحيحه عن علىّ رضى الله عنه قال: مرضت فعادنى رسول الله ﷺ وأنا أقول: اللهم إن كان أجلى قد حضر فأرحنى، وإن كان متأخرًا فارفعنى، وإن كان بلاء فصبرنى، فقال: «اللهم اشفه، اللهم عافه» ثم قال: «قم» فقمت فما عاد إلىّ ذلك الوجع بعد.

وفى الصحيحين عن أم خالد قالت: أتى رسول الله ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: «من ترون نكسوه هذه الخميصة؟» فسكت القوم فقال: «ائتونى بأم خالد» فأتى بى رسول الله ﷺ فألبسنيها فقال: «ابلي واخلقى» مرتين، فجعل ينظر إلى علم الخميصة ويشير بيده إلىّ ويقول: «يا أم خالد هذا سنا». والسنا بلسان الحبشة «الحسن»، فبقيت حتى دكت، وعن أبى يزيد عمرو بن أخطب الأنصارى قال: قال لى رسول الله ﷺ: «أدن منى» فمسح بيده على رأسى ولحيتى، ثم قال: «اللهم جمِّله وأدم جماله». قال

الراوى عنه: فبلغ بضعًا وثمانين سنة وما فى لحيته بياض إلا نزر يسير، ولقد كان منبسط الوجه ولم ينقبض وجهه حتى مات. رواه الإمام أحمد وقال البيهقى: إسناده صحيح ورواه الترمذى وقال: مسح رسول الله ﷺ يده على وجهى ودعا لى. قال عروة: إنه عاش مائة وعشرين سنة، وليس فى رأسه إلا شعرات بيض، وقال حديث حسن.

وقال البخارى فى تاريخه: ثنا يعقوب بن إسحاق بن حنظلة بن حنيفة بن حزيم قال: قال حزيم: يا رسول الله، إنى رجل ذو سن وهذا أصغر بنى فسمت عليه، قال: **«تعال يا غلام»** فأخذ بيدى ومسح برأسى وقال: **«بارك الله فيك -أو بورك فيك»** فرأيت حنظلة يؤتى بالإنسان الوارم فيمسح بيده ويقول:

بسم الله فيذهب الورم وفى رواية: والشاة والبعير، ويذكر عن أبى سفيان، واسمه مدلوك أنه ذهب به إلى النبى ﷺ فأسلم فدعا له النبى ،، ومسح رأسه بيده ودعا له بالبركة، فكان مقدم رأسه موضع يد النبى ﷺ أسود وسائره أبيض، ذكره أيضًا البخارى فى تاريخه.

وروى أحمد فى مسنده بإسناده عن أبى العلى قال: كنت عند قتادة بن ملحان فى مرضه الذي مات فيه فمر رجل فى مؤخر الدار، فرأيته فى وجه قتادة قال: كان رسول الله ﷺ مسح وجهه قال: وكنت قبل ما رأيته إلا ورأيته كأن على وجهه الدهان.

وفى صحيح البخارى أن عبد الله بن هشام كان يخرج إلى السوق فيتلقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان له أشركنا فإن رسول الله ﷺ قد دعى لك بالبركة، فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هى فيبعث بها إلي المنزل.

وفى مسند الإمام أحمد عن عروة بن أبى قال عرض للنبى ﷺ جلب فأعطانى دينارًا وقال: أى عروة ائت الجلب فاشتر شاة فأتيت الجلب فساومت



صاحبه فاشتريت منه شاتين بدينار، فجئت بهما أسوقهما فلقيني رجل فساومني فابتعته شاة بدينار، فجئت بالدنيار وجئت بالشاة فقلت يا رسول الله هذا ديناركم وهذه شاتكم، قال: «**وصنعت كيف؟**» فحدثته الحديث فقال: «**اللهم بارك فى صفقة يمينه**». فلقد رأيتنى أقف بكناسة الكوفة فأربح أربعين ألفًا قبل أن أصل إلى أهلى. رواه الإمام أحمد، وفى لفظ آخر قال الراوى عنه: فكان لو اشترى التراب لربح فيه. رواه البخارى عن أهل الدار عنه.

وفى صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع أن رجلاً أكل عند رسول الله ﷺ بشماله، فقال له: «**كل بيمينك**». قال لا أستطيع. قال: «**لا استطعت، ما منعه إلا الكبر**» قال: فما رفعها إلى فيه.

وروى مالك فى موطئه عن زيد بن أسلم عن جابر عن عبد الله السلمى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة بنى أنمار، قال جابر: فبينما أنا نازل تحت شجرة إذا رسول الله ﷺ، فقلت: هلم يا رسول الله إلي الظل، فقال: فننزل رسول الله ﷺ، قال جابر: فقمت إلى غرارة لنا فالتمست فيها فوجدت فيها جرد قنا فكسرته ثم قربته إلى رسول الله ﷺ فقال: «**من أين لكم هذا؟**» قلنا: خرجنا به من المدينة، قال: وعندنا صاحب لنا نجهزة يذهب يرعى ظهرنا: فجهزته، ثم أدبر، يذهب إلى الظهر وعليه ثوبان له قد خلقا فنظر رسول الله ﷺ فقال: «**أماله ثوبان غير هذين؟**» فقلت: بلى يا رسول الله، ثوبان فى العيبة كسوته إياهما. قال: «**أدعه فيلبسهما**» ثم ولى يذهب فدعوته فلبسهما فقال رسول الله ﷺ: «**ما له ضرب الله عنقه أليس هذا خير له؟**» فسمعه الرجل فقال يا رسول الله فى سبيل الله. فقال ﷺ: «**فى سبيل الله**» فقتل الرجل فى سبيل الله، ورواه أبو زرعة عن سعيد بن سليمان عن الليث عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء عن جابر.

الشرائع ثلاثة: شريعة عدل وشريعة فضل وشريعة القرآن تجمع العدل والفضل

ثم قالوا: إنا نعجب من هؤلاء القوم الذين مع أدبهم وما يأخذون به أنفسهم من الفضل، كيف لم يعلموا أن الشرائع شريعتان، شريعة عدل، وشريعة فضل، لأنه لما كان البارى عدلاً وجوادًا، وجب أن يظهر عدله على خلقه.

فأرسل موسى إلى بنى إسرائيل، فوضع شريعة العدل، وأمرهم بفعلها إلى أن استقرت فى نفوسهم.

ولما كان الكمال الذى هو الفضل، لا يمكن أن يضعه إلا أكمل الكمال، وجب أن يكون هو -تقدست أسماؤه وجلت آلاؤه- الذى يضعه، لأنه ليس شىء أكمل منه، ولأنه جواد، وجب أن يجود بأجل الموجودات.

وليس فى الموجودات أكمل من كلمته، ولذلك وجب أن يجود بكلمته، فلهذا وجب أن يتخذ بذات محسوسة، يظهر منها قدرته ووجوده.

ولما لم يكن فى المخلوقات أجل من الإنسان، اتحد بالطبيعة البشرية من السيدة الطاهرة، من مريم البتول المصطفاة على نساء العالمين.

وبعد هذا الكمال ما بقى شىء يوضع، لأن جميع ما تقدمه منقصة وما يأتى بعد الكمال، غير محتاج إليه لأنه ليس شىء يأتى بعد الكمال فيكون فاضلاً، بل دونًا، أو أخذ منه، والأخذ منه، فهو فضل لا يحتاج إليه، وفى هذا القول مقنع، والسلام على من اتبع الهدى.

وهذا ما عرفته من القوم الذين رأيتهم وخاطبتهم فى **محمد عليه الصلاة والسلام**، وما يحتجون به عن أنفسهم.



فإن يكن ما ذكروه صحيحًا، فلله الحمد، وإن يكن خلاف ذلك، فمولانا يكتب ذلك بعد أن جعلونى سفيراً، والحمد لله رب العالمين.

والجواب عن هذا من وجوه:

١- أحدها: أن يقال: بل الشرائع ثلاثة، **شريعة عدل فقط، وشريعة فضل فقط، وشريعة تجمع العدل والفضل**، فتوجب العدل وتندب إلى الفضل، وهذه أكمل الشرائع الثلاث، **وهى شريعة القران** الذى يجمع فيه بين العدل والفضل، مع أننا لا ننكر أن يكون موسى عليه السلام أوجب العدل وندب إلى الفضل، وكذلك المسيح أيضًا أوجب العدل وندب إلى الفضل.

وأما من يقول: إن المسيح أوجب الفضل وحرم على كل مظلوم أن يقتص من ظالمه، أو أن موسى لم يندب إلى الإحسان، **فهذا فيه غضاضة بشريعة المرسلين.**

لكن قد يقال: إن ذكر العدل فى التوراة أكثر، وذكر الفضل فى الإنجيل أكثر، والقرآن جمع بينهما على غاية الكمال.

والقرآن بيَّن أن السعداء أهل الجنة، فهم أولياء الله نوعان، أبرار مقتصدون، ومقربون سابقون.

فالدرجة الأولى تحصل بالعدل، وهى أداء الواجبات وترك المحرمات.

والثانية: لا تحصل إلا بالفضل، وهو أداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

فالشريعة الكاملة تجمع العدل والفضل كقوله تعالى: ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ** ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فهذا عدل واجب، من خرج عنه استحق العقوبة فى الدنيا والآخرة

ثم قال: ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

فهذا فضل مستحب مندوب إليه، من فعله أثابه الله ورفع درجته، ومن تركه لم يعاقبه.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ [النساء: ٩٢] فهذا عدل، ثم قال: ﴿ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ﴾ فهذا فضل.

وقال تعالى: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥] فهذا عدل، ثم قال: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ فهذا فضل.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] فهذا فضل.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا فضل.

وقال تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ فهذا عدل، ثم قال: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا فضل.

وهو -سبحانه- دائمًا يحرم الظلم، ويوجب العدل، ويندب إلى الفضل، كما في آخر سورة البقرة، لما ذكر حكم الأموال.

والناس فيها، إما محسن، وإما عادل، وإما ظالم.

فالمحسن، المتصدق، والعادل، المعاوض كالبايع، والظالم كالمرابى.

فبدأ بالإحسان والصدقة، فذكر ذلك ورغب فيه فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ



يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (٢٦١) الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢٦٢) قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم ﴾ [البقرة: ٢٦١ - ٢٦٣].

ثم ذكر تحريم الربا فقال: ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ثم لما أحل البيع ذكر المداينات، وذكر حكم البيع الحالّ والمؤجل، وحفظ ذلك بالكتاب والشهود أو الرهن، وختم السورة بأصول الإيمان، من الإيمان بالكتب والرسل، بعد أن افتتحها بذلك، وذكر أصناف الناس، وهم ثلاثة، إما مؤمن، وإما كافر، وإما منافق.

فذكر نعت المؤمنين، ثم ذكر نعت الكافرين، ثم ذكر نعت المنافقين.

ثم مهد أصول الإيمان، فأمر بعبادة الله تعالى، وذكر آياته وآلائه.

ثم قرر نبوة رسوله ﷺ، ثم ذكر اليوم الآخر، والوعد والوعيد، ثم ذكر بدء العالم وخلق السموات والأرض، ثم خلق آدم وإسجاد الملائكة له، وخروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض.

ثم بعد أن عمَّ بالدعوة جميع الخلق، خص أهل الكتاب فخاطبهم.

خاطب اليهود أولاً بنى إسرائيل، ثم النصارى، ثم خاطب المؤمنين.

فقرر لهم قواعد دينه، فذكر أهل ملة إبراهيم وبناءه للبيت ودعاءه لأهل مكة، ووكد الأمر بملة إبراهيم.

ثم ذكر ما يتعلق بالبيت، من اتخاذه قبلة، ومن تعظيم شعائر الله التى عنده، كالصفا والمروة، ثم ذكر التوحيد والحلال والحرام فى المطاعم للناس عمومًا، ثم للذين آمنوا خصوصًا.

ثم ذكر ما يتعلق بالقتل من القصاص وبالموت، من الوصية.

ثم ذكر شرائع الدين، فذكر صيام شهر رمضان، وما يكون فيه من الاعتكاف.

ثم ذكر ما يتصل بشهر الصيام، وهو أشهر الحج، فذكر الحج، وذكر حكم القتال عمومًا وخصوصًا، فى البلد الحرام.

ولما ذكر الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة، ذكر بعد ذلك الحلال والحرام فى الفروج.

فذكر أحكام وطء النساء، والحُيَّضَ، والإيلاء منهن، والطلاق لهن، واختلاعهن.

وذكر حكم الأولاد وإرضاعهم، واعتداد النساء، وخطبتهن فى العدة، وطلاقهن قبل الدخول وبعده.

ثم ذكر الصلوات والمحافظة عليهن، ثم قرر المعاد، وما يدل عليه من إحياء الموتى فى الدنيا مرة بعد مرة.

فتضمنت هذه السورة الواحدة جميع ما يحتاج الناس إليه فى الدين، أصوله وفروعه، وافتتحها بالإيمان بالكتب والرسل، ووسطها بالإيمان بالكتب والرسل، وختمها بالإيمان بالكتب والرسل.

فإن الإيمان بالكتب والرسل هو عمود الإيمان وقاعدته وجماعه.

وأمر فيها الخلق عمومًا، وخصوصًا بعد عموم، وذكر فيها الإيمان بالخالق وآيات ربوبيته، والإيمان بالمعاد والدار الآخرة والأعمال الصالحة التى أمر بها،

وإن من كان من أتباع الرسل، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، قائمًا بهذه الأصول، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فهو السعيد في الآخرة الذي له أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

بخلاف من بدل منهم الكتاب، أو كذب بكتاب فإن هؤلاء من الكفار.

فمن كان متبعًا لشرع التوراة، قبل مبعث المسيح، غير مبدل له، فهو من السعداء.

وكذلك من كان متبعًا لشرع الإنجيل قبل مبعث محمد ﷺ، غير مبدل له، فهو من السعداء.

ومن بدل شرع التوراة، أو كذب بالمسيح، فهو كافر، كاليهود بعد مبعث المسيح عليه السلام.

وكذلك من بدل شرع الإنجيل، أو كذب محمدًا ﷺ، فهو كافر، كالنصارى بعد مبعث محمد ﷺ.

فقدماء اليهود والنصارى، الذين اتبعوا الدين قبل النسخ والتبديل، سعداء.

وأما اليهود والنصارى الذين تمسكوا بشرع مبدل منسوخ، وتركوا اتباع الكتاب والرسول الذي أرسل إليهم وإلي غيرهم، وعدلوا عن الشرع المنزل المحكم، فهم كفار.

ورد دعاوى اليهودى والنصارى الكاذبة، مثل قول هؤلاء: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا**﴾ وقول هؤلاء: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ**﴾ فقال: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ١١٢].

وبيَّن من كفر اليهود والنصارى، ما عرف بهم حالهم.

لكن أكثر ما ذكر فى هذه السورة اليهود، كما أن أكثر ما ذكر فى سورة آل عمران النصارى، فإن هذه نزلت أول مقدمة المدينة، وكان اليهود جيرانه.

وآل عمران تأخر نزولها إلى آخر الأمر، لما قدم عليه نصارى وفد نجران، وفيها فرض الحج، لما طهر الله مكة والمشركين، فكان أكثر دعائه فى أول الأمر للمشركين، لأنهم جيرانه بمكة، ثم لليهود لأنهم جيرانه بالمدينة، ثم للنصارى لأنهم كانوا أبعد عنه من ناحية الشام، واليمن، والمجوس أيضًا لأنهم كانوا أبعد عنه بأرض العراق وخراسان.

وهذا هو الترتيب المناسب، يدعو الأقرب إليه فالأقرب، ثم يرسل رسله إلى الأبعد.

وهو ﷺ، كان أولاً، مشغولاً بجهاد المشركين واليهود.

فلما صالح المشركين صلح الحديبية، وحارب يهود خيبر عقيب ذلك ففتحها الله عليه وقسمها بين الذين بايعوه تحت الشجرة الذين شهدوا صلح الحديبية، فتفرغ لمن بَعُدَ عنه، فأرسل رسله إلى جميع مَنْ حواليه، من الأمم.

أرسل إلى ملوك النصارى بمصر والشام والحبشة، فإنه كان قد مات ملك الحبشة النجاشى الذى أسلم، وأخبر الناس بموته يوم مات، وخرج بأصحابه إلى ظاهر المدينة، فصلى عليه بهم صلاة الجنازة، كما كان يصلى على سائر موتى المسلمين.

وتولى بعد النجاشى آخر، فأرسل إليه كما ذكره مسلم فى صحيحه وغيره.

وأرسل إلى ملوك اليمن من المشركين واليهود، وإلى ملوك العرب.

وكان فى العرب خلق كثير يهود، وخلق كثير نصارى، وخلق كثير مجوس.



فدعا جميع الخلق من اليهود والنصارى والمجوس والمشركين، عربهم وعجمهم.

٢- الوجه الثانى: أن يقال لهم: الناس لهم فى أمر الله ونهيه، قولان مشهوران.

أحدهما: أنه يرجع إلى محض المشيئة، لا يعتبر فيه أن يكون المأمور به مصلحة للخلق، وإن اتفق أن يكون مصلحة، وإن كان الواقع كونه مصلحة وهذا قول من يقول: لا يفعل ولا يحكم لسبب، ولا لحكمة ولا لغرض.

والقول الثانى: وهو قول جمهور الناس - إن الله إنما أرسل الرسل ليأمروا الناس بما يصلحهم وينفعهم إذا فعلوه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ**﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

فإن قيل بالأول، لم يسأل عن حكمة إرسال الرسل، وإن قيل بالثانى ففى إرسال محمد ﷺ من الحكم والمصالح، وأعظم مما كان فى إرسال موسى والمسيح، والذى حصل به من صلاح العباد فى المعاش والمعاد أضعاف ما حصل بإرسال موسى والمسيح، من جهة الأمر والخلق.

فإن شريعته من الهدى ودين الحق، أكمل مما فى الشريعتين المتقدمتين، وبشر الله من اتباع الخلق له واهتدائهم به، ما لم يتيسر مثله لمن قبله، فحصل فضيلة شريعته من جهة فضلها فى نفسها، ومن جهة كثرة من قبلها وكمال قبولهم لها.

بخلاف شـريعة من قبله، فـإن موسى ﷺ بعث إلى بنى إسـرائيل، وكان فيهم من الرد والعناد فى حياة موسى وبعد موته، ما هو معروف.

وقد ذكر النصارى فى كتابهم هذا من ذلك ما تقدم.

ولم تكن شريعة التوراة فى الكمال، مثل شريعة القرآن، فإن القرآن فيه من ذكر الميعاد، وإقامة الحجج عـليه وتفصيله، ووصف الجنة والنار، ما لم يذكر مثله فى التوراة.

وفيه من ذكر قصة هود وصالح وشعـيب وغيرهم من الأنبياء، ما لم يذكر فى التوراة.

وفيه مـن ذكر أسماء الله الحـسنى وصفاته، ووصف ملائكتـه وأصنافهم، وخلق الإنس والجن، ما لم يفصل مثله فى التوراة.

وفيه من تقرير التوحيد بأنواع تراجع، ما لم يذكر مثله فى التوراة.

وفيه من ذكر أديان أهل الأرض، ما لم يذكر مثله فى التوراة.

وفيه من مناظـرة المخالفين للرسل، وإقامة البراهين عـلى أصول الدين، ما لم يذكر مثله فـى التوراة، مع أنه لم ينزل كتاب من السـماء أهدى من القرآن والتوراة.

وفى شريعة القرآن تحليل الطيبات، وتحريم الخبائث.

وشريعة التوراة فيها تحريم كثـير من الطيبات عليهم، حرمت عليهم عقوبة لهم.

وفى شريعة القـرآن، من قبول الدية فى الدماء، مـا لم يشرع فى التوراة، وفيها من وضع الآصار والأغلال التى فى التوراة مـا يظهر به أن نعمة الله على أهل القرآن أكمل.



وأما الإنجيل، فليس فيه شريعة مستقلة، ولا فيه الكلام على التوحيد وخلق العالم وقصص الأنبياء وأممهم، بل أحالهم على التوراة في أكثر الأمر.

ولكن أحلَّ لهم المسيح بعض ما حرم عليهم، وأمرهم بالإحسان والعفو عن المظالم، واحتمال الأذى، والزهد في الدنيا، وضرب الأمثال لذلك.

فعامة ما امتاز به الإنجيل عن التوراة، بمكارم الأخلاق المستحسنة، والزهد المستحب، وتحليل بعض المحرمات، وهذا كله في القران، وهو في القرآن أكمل.

فليس في التوراة والإنجيل والنبوات، ما هو من العلوم النافعة والأعمال الصالحة إلا وهو في القرآن، أو ما هو أفضل منه.

وفي القرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى، ودين الحق، ما ليس في الكتابين.

لكن النصارى لم يتبعوا، لا التوراة ولا الإنجيل، بل أحدثوا شريعة لم يبعث بها نبي من الأنبياء كما وضعوا لقسطنطين الأمانة، ووضعوا له أربعين كتابًا، ويسمونها القوانين، فيها بعض ما جاءت به الأنبياء، وفيها شيء كثير مخالف لشرع الأنبياء، وصاروا إلى كثير من دين المشركين، الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى وكذبوا رسله، فصار في دينهم من الشرك وتغير دين الرسل، ما غيروا به شريعة الإنجيل، ولهذا التبست عند عامتهم شريعة الإنجيل بغيرها، فلا يعرفون ما نسخه المسيح من شريعة التوراة مما أقره، ولا ما شرعه، مما أحدث بعده.

فالمسيح لم يأمرهم بنصب الصُّوَر وتعظيمها، ولا دعا من صورت تلك التماثيل على صورته ولا أمر بهذا أحد من الأنبياء.

لا يوجد قط عن نبى أنه أمر بدعاء الملائكة والاستشفاع بهم، ولا بدعاء الموتى من الأنبياء والصالحين والاستشفاع بهم، فضلاً عن دعاء تماثيلهم والاستشفاع بها، فإن هذا من أصول الشرك، الذى نهت عنه الرسل، وهذا كان أصل الشرك فى بنى آدم من عهد نوح عليه السلام.

قال الله تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤].

قال كثير من العلماء، منهم ابن عباس وغيره: وهؤلاء كانوا قومًا صالحين فى قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم عبدوهم، وقد ذكر ذلك المسيح وعلماء النصارى.

والمسيح عليه السلام لم يأمرهم بعبادته ولا قاله: إنه الله، ولا أمرهم بما ابتدعوه من التثليث والاتحاد.

والمسيح لم يأمرهم باستحلال كل ما حرمه الله فى التوراة من الخبائث، كالخنزير وغيره، فاستحلوا الخبائث المحرمة وغيَّروا شريعة التوراة والإنجيل.

والمسيح لم يأمرهم أن يصلوا إلى المشرق، ولم يأمرهم أن يعظموا الصليب، ولم يأمرهم بترك الختان ولا بالرهبانية ولا بسائر ما ابتدعوه وبعده.

ولهذا لما ظهر فساد دين النصارى، صار بعض الناس، كأبى عبد الله الرازى يقول: لم يظهر الانتفاع بدين المسيح، إلا فى طائفة قليلة كانوا قبل محمد ﷺ، فإن الدين الذى كان عليه جمهور النصارى، ليس هو دين المسيح.

٣- ويبين هذا بـ«**الوجه الثالث**: -وهو أن يقال هب: إن شريعة الكتابيين كانت كافية، فإنما ذاك إذا كانت محفوظة معمولاً بها، ولم يكن الأمر كذلك، بل كانت قد درس كثير من معالمها.

وقد اختلف أهل الكتاب فى المسيح وغيره اختلافًا عظيمًا كما قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [المائدة: ١٤] وقد قال تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ أى فاختلفوا ﴿ **فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ [البقرة: ٢١٣] والوقت الذى بعث فيه محمد ﷺ لم يكن قد بقى أحد مظهرًا لما بعث الله به الرسل قبله.

فبعثه على حين فترة من الرسل، وطموس من السُّبُل، أحوج ما كان الناس إلى رسول، كما فى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**».

وكان الناس حين مبعث محمد ﷺ إما أميين، لا كتاب لهم يشركون بالرحمن، ويعبدون الأوثان، وإما أهل كتاب قد بدَّلوا معانيه وأحكامه؛ وحرَّفوا حلاله وحرامه، ولبسوا حقه بباطله، كما هو الموجود.

فلو أراد الرجل أن يميز له أهل الكتاب ما جاءت به الأنبياء، مما هم عليه مما أحدثوه بعدهم، لم يعرف جمهورهم ذلك، بل قد صار الجميع -عندهم- دينًا واحدًا.

فبعث الله تبارك وتعالى محمدًا ﷺ بالكتاب الذى أنزله عليه مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، فميز به الحق من الباطل. والهدى من الضلال

والغيّ من الرشاد قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٥- ١٩].

الوجه الرابع: إن شريعة التوراة يغلب عليها الشدة، وشريعة الإنجيل يغلب عليها اللين، وشريعة القرآن معتدلة جامعة، بين هذا وهذا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال في وصف أمته: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] إلخ، وقال أيضًا: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] فوصفهم بالرحمة للمؤمنين، والذلة لهم، والشدة على الكفار والعزة عليهم.

وكذلك كان صفة محمد ﷺ نبيهم، أكمل النبيين وأفضل الرسل، بحيث قال: «**أنا محمد وأنا أحمد، وأنا نبي الرحمة، وأنا نبي الملحمة، وأنا نبي التوبة، وأنا الضحوك القتال**» فوصف نفسه بأنه نبي الرحمة والتوبة، وأنه نبي الملحمة، وأنه الضحوك القتال ﷺ.

وهذا أكمل من نعت بالشدة والبأس غالبًا، أو باللين غالبًا.



وقد قيل: إن سبب ذلك أن بنى إسرائيل كانت نفوسهم قد ذلت بقهر فرعون لهم، واستعباد فرعون وقومه لهم، فشرعت لهم الشدة لتقوى أنفسهم، ويزول عنهم ذلك الذل.

ولهذا لما أمروا بالجهاد نكلوا عنه، وقال لهم موسى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢١- ٢٤].

وأما أصحاب محمد ﷺ، فقال له قائلهم يوم بدر: والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل، قالوا لموسى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ لكن نقاتل أمامك ووراءك: وعن يمينك وعن يسارك، والذى بعثك بالحق نبيًا لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك».

وكان الكلام قريبًا من «بدر» والبحر من جهة الغرب.

و«**برك الغماد**» مكان من يمانى مكة، بينه وبين مكة عدة ليال.

والكفار كانوا -إذ ذاك بمكة، وأصحابه ﷺ من ناحية المدينة شامى مكة، فمكة جنوبهم والبحر غربهم.

يقول: لو طلبت أن ندخل بلد العدو، ونذهب إلى تلك الناحية لفعلناه.

قالوا: فلما نصر الله بنى إسرائيل وأظهرهم، ظهرت فيهم الأحداث بعد ذلك وتجبروا وقست قلوبهم وصاروا شبيهًا بآل فرعون.

فبعث الله المسيح عليه السلام باللين والصفح، والعفو عن المسيء واحتمال أذاه ليُلِّين أخلاقهم، ويزيل ما كانوا فيه من الجبرية والقسوة.

فأفرط هؤلاء في اللين، حتى تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وتركوا الحكم بين الناس بالعدل، وإقامة الحدود، وترَّهب عُبَّادُهم منفردين.

مع أن في ملوك النصارى من الجبرية والقسوة والحكم بغير ما أنزل الله، وسفك الدماء بغير حق، مما يأمرهم به علماؤهم وعبادهم، ومما لم يأمروهم به، ما شاركوا فيه اليهود.

فبعث الله محمدًا ﷺ بالشريعة الكاملة العادلة، وجعل أمته عدلاً خياراً لا ينحرفون إلى هذا الطرف ولا إلى هذا الطرف، بل يشتدون على أعداء الله، ويلينون لأولياء الله، ويستعملون العفو والصفح، فيما كان لنفوسهم، ويستعملون الانتصار والعقوبة، فيما كان حقًا لله.

وهذا كان خلق نبيهم ﷺ كما في الصحيحين عن عائشة قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قط، ولا امرأة له قط، ولا دابة ولا شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله، لم يقم لغضبه شيء، حتى ينتقم لله، وما عرض عليه أمران، أحدهما أيسر من الآخر، إلا أخذ بأيسرهما إلا أن يكون مأثمًا، فإن كان مأثمًا كان أبعد الناس منه».

وفي الصحيحين عن أنس أنه قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ، قط، ولا قال لشيء فعلته لِمَ فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته؟ ولا لما صنعت، لم لا صنعت، وكان بعض أهله إذا عتبوني على شيء يقول: دَعُوهُ، فلو قدر شيء لكان هذا» مع قوله في الحديث الصحيح لما سرقت امرأة كانت من أشرف قريش من بني مخزوم فأمر بقطع يدها،

وإذا كانت النعمة نوعين، فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد ﷺ من هذين الوجهين، وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة، فإن الناس بدونه كانوا جهالاً ضالين أُمِّيَّهُم وأهلُ الكتاب منهم.

ولم يكن قد بقى من أهل الكتاب أتباع المسيح، ومن هو قائم بالدين الذى يوجب السعادة عند الله فى الآخرة، بل كانوا قد بدَّلوا وغيَّروا.

وأيضًا فلو قُدِّر أنهم لم يبدلوا شيئًا، ففى إرساله من كمال النعم وفواضلها، وعُلُوِّ الدرجات فى السعادة، ما لم يكن حاصلاً بالكتاب الأول.

فكان إرساله أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض من نَوْعَيِ النعم.

ومن استقرأ أحوال العالم، تبيَّن له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرساله ﷺ، وإن الذين ردوا رسالته، هم ممن قال الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

الوجه السادس: أن يقال قولهم: «إنا نعجب من هؤلاء القوم» إلى آخر الفصل، قول جاهل ظالم يستحق أن يقال له: بل العجب من هذا العجب هو الواجب، بل هو الذى لا ينقضى منه العجب، وأن كل عاقل ليعجب، ، ممن عرف دين محمد ﷺ وقصده الحق، ثم اتبع غيره، ويعلم أنه لا يفعل ذلك إلا مفرط فى الجهل والضلال، أو مفرط فى الظلم واتباع الهوى.



وذلك أن أهل الأرض نوعان: أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، وغير أهل الكتاب كالمشركين من العرب والهند والترك وغيرهم، وكالمجوس من الفرس وغيرهم، وكالصابئة من المتفلسفة وغيرهم.

وأهل الكتاب يسلمون لنا، أن مَنْ سوى أهل الكتاب انتفع بنبوة محمد ﷺ منفعة ظاهرة، وأنه دعا جميع طوائف المشركين والمجوس والصابئين إلى خير مما كانوا عليه، بل كانوا أحوج الناس إلى رسالته.

وأما أهل الكتاب. فاليهود يسلمون لنا حاجة النصارى إليه، وأنه دعاهم إلي خير ما كانوا عليه.

والنصارى تسلم لنا حاجة اليهود إليه. وأنه دعاهم إلى خير مما كانوا عليه.

فما من طائفة من طوائف أهل الأرض إلا وهم مقرون بأن محمداً ﷺ دعا سائر الطوائف وغيرهم إلى خير مما كانوا عليه.

وهذه شهادة من جميع أهل الأرض بأنه دعا أهل الأرض إلى خير مما كانوا عليه.

فإن شهادة جميع الطوائف مقبولة على غيرهم إذا كانوا غير متهمين عليهم؛ فإنهم معادون لمحمد ﷺ وأمته ومعادون لسائر الطوائف.

وأما شهادتهم لأنفسهم فغير مقبولة، فإنهم خصومه؛ وشهادة الخصم على خصمه غير مقبولة.

وقد اعترف الفلاسفة بأنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموسه. واعترفوا بأنه أفضل من ناموس موسى والمسيح عليهما الصلاة والسلام. بل لهم من الطعن فى نواميس غيره، ما ليس هذا موضع ذكره.

بخلاف ناموس محمد ﷺ، فإنه لم يطعن فيه أحد منهم إلا من كان خارجًا عن قانون الفلسفة التى توجب عندهم العدل والكلام بعلم.

فأما من التزم منهم الكلام بعلم وعدل، فهم متفقون على أن ناموس محمد ﷺ أفضل ناموس طرق العالم، فكيف يتعجب من مثل هذا الناموس؟!

الوجه السابع: أن يقال لأهل الكتاب خصوصًا، فيقال لليهود: أنتم أذل الأمم، فلو قدر أن ما أنتم عليه دين الله الذى لم يبدل، فهو مغلوب مقهور فى جميع الأرض، فهل تعجبون من أن يبعث الله رسولاً يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، فيبعثه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، حتى يصير دين الله الذى بعث به رسله، وأنزل به كتبه، منصورًا ظاهرًا بالحجة والبيان والسيف والسنان؟؟

ويقال للنصارى: أنتم لم تخلصوا دين الله الذى بعث به رسله من دين المشركين والمعطلين بل أخذتم من أصول المشركين المعطلين من الفلاسفة وغيرهم، ما أدخلتموه فى دينكم وليس لكم على أكثر الكفار. لا حجة علمية، ولا يد قهرية، بل للكفار فى قلوبكم من الرعب والخوف والتعظيم، ما أنتم به من أضعف الأمم حجة، وأضيقها محجة وأبعدها عن العالم والبيان وأعجزها عن إقامة الحجة والبرهان، تارة تخافون من الكفار الفلاسفة وغيرهم من المشركين والمعطلين، فإما أن توافقم على أقوالهم وإما أن تخضعوا لهم متواضعين.

وتارة تخافون من سيوف المشركين، فإما أن تتركوا بعض دينكم لأجلهم، وإما أن تذلوا لهم خاضعين.

ففيكم من ضعف سلطان الحجة، وضعف سلطان النصرة، ما يظهر به حاجتكم إلى قيام الهدى ودين الحق الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه.

فالعجب منكم، كيف تعدلون عما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة إلى ما فيه شقاؤكم فى الدنيا والآخرة؟! هذا هو العجب، ليس العجب ممن آمن بما فيه سعادة الدنيا والآخرة، وفى خلافه شقاوة الدنيا والآخرة.

ومثل هذا لا يرد على المسلمين، فإنه لم يزل فيهم طائفة قائمة بالهدى ودين الحق، ظاهرة بالحجة والبيان، واليد واللسان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين. كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله. لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة**» وفي لفظ «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة حتى يأتي الله بأمره**».

الوجه الثامن: أن يقال لأهل الكتاب، لليهود: أنتم لما كنتم متبعين موسى عليه السلام. كنتم على الهدى ودين الحق: فكنتم منصورين ثم كثرت فيكم الأحداث التي تعرفونها. كما قال تعالى لكم: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة: ٥٩، ٦٠].

وقوله: «وعبد الطاغوت» معطوف على قوله: «لعنه الله» أي من لعنه الله وغضب عليه وعبد الطاغوت، ليس داخلاً في خبر جعل، حتى يلزم إشكال كما ظنه بعض الناس.

وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات، وقتلوا الأنبياء.

وقال تعالى: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ**

وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤- ٨] وهم معترفون بأن بيت المقدس خرب مرتين.

فالخراب الأول: لما جاء «بُخْتَ نَصَّر» وسباهم إلى بابل، وبقى خرابًا سبعين سنة.

والخراب الثانى: بعد المسيح بنحو سبعين سنة.

وقد قيل: هذا تأويل قوله: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨].

فبعد الخراب الثانى، تفرقوا فى الأرض، ولم يبق لهم ملك.

وبين الخرابين، كانوا تحت قهر الملوك الكفار.

وبعث المسيح عليه السلام، وهم كذلك.

ويقال للنصارى: أنتم ما زلتم مقهورين مغلوبين مهددين فى الأرض، حتى ظهر قسطنطين وأقام دين النصرانية بالسيف، وقتل من خالفه من المشركين واليهود.

لكن أظهر دينًا مبدلاً مغيرًا، ليس هو دين المسيح عليه السلام.

ومع هذا فكانت أرض العراق وفارس كفارًا من المجوس، وغيرهم مجوسًا مشركين.

وكانوا فى بعض الأزمنة يقهرون النصارى على بلادهم.

وأما أرض المشرق والمغرب ففيهما من أنواع المشركين أمم.

وكان الشرك والكفر ظاهرًا فى أرض اليمن والحجاز والشام والعراق.



فلما بعث الله محمداً ﷺ، أظهر به توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ظهوراً لم يعرف فى أمة من الأمم، ولم يحصل مثله لنبى من الأنبياء، وأظهر به من تصديق الكتب والرسل والتوراة والإنجيل والزبور، وموسى وعيسى، وداود وسليمان وغيرهم من الرسل ما لم يكن ظاهراً، لا عند أهل الكتاب ولا غيرهم.

فأهل الكتاب، وإن كانوا خيرًا من غيرهم، فلم يكونوا قائمين بما يجب من الإيمان بالله ورسله ولا باليوم الآخر، ولا شرائع دينه، ولا كانوا قاهرين لأكثر الكفار، بل ولا كانوا منصورين عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة: ٢٩].

أما اليهود ففيهم من التنقص بالأنبياء وسبِّهم، وذكر عيوب نَزَّههم الله منها، ما هو معروف.

حتى إن منهم من يقول: إن سليمان كان ساحراً، وداود كان منجمًا لم يكن نبيًا، إلى أمثال ذلك مما يطول وصفه.

ففيهم من كفر بالأنبياء، من جنس ما كان فى سلفهم الخبيث.

وأما النصارى -فمع غُلُوِّهم فى المسيح وأتباعه- يستخفون بغيره، فتارة يجعلون الحواريين، مثل إبراهيم وموسى أو أفضل منهم، وتارة يقولون كما قال اليهود: إن سليمان لم يكن نبيًا، بل سقط من النبوة، وتارة يجعلون ما خاطب الله به داود وغيره من الأنبياء، إنما أريد به المسيح.

مع أن اللفظ لا يدل على ذلك، بل يتأولون كُتُبَ الله بمجرد هوى أنفسهم.

وتارة يقولون: إن الواحد منهم إذا أطاع الله بما يزعمون أنه طاعة، صار

مثل واحد من الأنبياء وأفضل منه، ووجب طاعته كما تجب طاعة الأنبياء، ويسوغون لمثل هؤلاء أن يغيروا شرائع الأنبياء، ويضعوا دينًا ابتدعوه.

ومحمد ﷺ وأمته، أقاموا توحيد الله الذي كان عليه إبراهيم وموسى وسائر الرسل، وآمنوا بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول بعثه الله، وأقاموا دين الرحمن إقامة لم يُقمها أحدٌ من الأمم.

فعامة أهل الأرض مع محمد ﷺ، إما مؤمن به باطنًا وظاهرًا، وهم أولياء الله المتقون وحزبه المفلحون، وجنده الغالبون.

وإما مسلمون فى الظاهر، تُقْيَة وخوفًا من أمته، وهم المنافقون؛ وإما مسالمون له بالعهد والذمة والهدنة وهم أهل الذمة والهدنة فى جميع الأرض، وإما خائفون من أمته.

وحيث كان الواحد والطائفة من أمته متمسكًا بدينه، كان نوره ظاهرًا وبرهانه قاهرًا معظمًا منصورًا، يعرف فضله على كل ما سواه.

وهذا أمر يعرفه الناس فى أرض الكفار من المشركين وأهل الكتاب لما خص الله به محمدًا ﷺ وأمته من الهدى ودين الحق.

وقد أظهروا دين الرب فى مشارق الأرض ومغاربها بالقول والعمل.

فهل يقول عاقل ممن عنده علم وعدل: إنه لا فائدة فى إرسال محمد ﷺ وإنه يستغنى بما عند أهل الكتاب عن رسالته؟!

فبين الله لكل قوم، بل لكل شخص من الآيات والبراهين ما لا يبين لقوم آخرين، كما أن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كل دليل على كل مدلول، ولكل قوم، ولكل إنسان من الدلائل المعينة التى يريه الله إياها فى نفسه وفى الآفاق ما لا يعرف أعيانها قوم آخرون، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] والضمير

في ذلك عائد إلى القرآن عند المفسرين والسلف وعامة العلماء، كما يدل على ذلك القرآن بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٢، ٥٣].

وقد قيل: إن الضمير عائد إلى الله، والصواب الأول كما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾ وهذا هو القرآن. ثم قال بعد ذلك: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

فأخبر أنه سيرى الناس فى أنفسهم، وفى الآفاق من الآيات العيانية المشهودة والمعقولة ما يتبين أن الآيات القرآنية المسموعة المتلوة حق، فيتطابق العقل، والسمع، ويتفق العيان والقرآن، وتصدق المعاينة للخبر.

وإذا كان القرآن حقًا لزم كون الرسول ﷺ الذى جاء به صادقًا، وأن الله أنزله وأنه يحب التصديق لما أخبر والطاعة لما أوجب وأمر، وذلك يتضمن إثبات الصانع وتوحيده، وأسماءه، وصفاته وإثبات النبوات وإثبات المعاد، وهذه هى أصول العلم والإيمان التى علقت بها السعادة والنجاة.

آيات النبوة فى حياة الرسول ﷺ وقبل مولده وبعد مماته

وآيات النبوة وبراهينها تكون فى حياة الرسول ﷺ، وقبل مولده، وبعد مماته، لا تختص بحياته فضلاً عن أن تختص بحال دعوى النبوة، أو حال التحدى، كما ظنه بعض أهل الكلام، بل لابد من آيات فى حياته تدل على صدقه

تقوم بها الحجة، وتظهر به المحجة، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

وقد قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١- ١٠] الآية.

فأخبر أن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله أتتهم رسلهم بالبينات، فعلم أنهم جاءوا بالبينات.

وقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٧- ٣٩].

فأخبر أنه سبحانه ضرب الأمثال لجميع هؤلاء الذين أرسلهم إليهم وأهلكهم. فلم يعاقبهم إلا بعد أن أقام عليهم الحجة.



وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

فأخبر أنه لم يرسل إلا رجالاً يوحى إليهم، لم يرسل إليهم ملائكة ولا نساء، وأنه أرسلهم بالبينات.

والزبر: جمع زبور، وهى الكتب، فإن منهم من أنزل عليه كتاب، ومنهم من أرسل بتجديد الكتاب الذى قبله.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيرا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٤، ٢٥].

أخبر أنه ليس أمة من الأمم إلا خلا فيها نذير، كما قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم أخبر أن الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر وبالكتاب المنير، وهذا من عطف الخاص على العام، لاختصاصه بوصف يختص به كقوله: ﴿وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فإن الزبر من البينات والكتاب المنير من الزبر، وهو كقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

وبين أنه أخذ الذين كفروا بربهم، وهذا أنزله ليبين عاقبة المكذبين.

ولهذا بنى الفعل للفاعل فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهذه السورة مكية.

ثم أنزل فى آل عمران وهى مدنية فى سياق الآيات التى فيها تسلية الرسول والمؤمنين به، وتثبيتهم وتعزيتهم لما أصابهم من المكذبين يوم أحد وغيره فقال: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٢- ١٧٥] أى يخوفكم أولياءه كما قاله جمهور العلماء.

ثم قال: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ [آل عمران: ١٧٦]. وسياق الكلام فى بيان أن الكفار لا يضرون الله ولا عباده المؤمنين، بل ضررهم على أنفسهم وأن ما حصل لهم من نعمة إنما هو استدراج وإملاء، إلى أن قال: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٨١-١٨٣].

بين سبحانه أن هذا القول منهم مع أنه كذب فلم يقولوه إلا دفعًا للحق لا ليؤمنوا بمن جاءهم بذلك، إذ قد جاءهم رسل من قبله بالآيات البينات والقربان الذى تأكله النار، ومع هذا قتلوهم، والكلام فى مثل هذا الجنس الذى يوالى بعضهم بعضًا ويتبع بعضهم بعضًا كاليهود الذين هم على دين سلفهم الذين فعلوا ذلك.

ولهذا يخاطبهم بصيغة الخطاب كقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠] إلى قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

فالخطاب لجنس بنى إسرائيل وإن كان الذين عاينوا ذلك ماتوا.

ثم قال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

فحذف هنا الفاعل وبنى الفعل للمفعول، إذ المقصود هنا: تسلية الرسول وتعزيته لا ذكر عقوبة المكذبين فلهذا كانت هذه أخص من تلك.

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم

ومن آيات الأنبياء إهلاك الله لمكذبيهم ونصره للمؤمنين بهم، فهذا من أعلام نبوتهم ودلائل صدقهم، كإغراق الله قوم نوح لما كذبوه كإهلاكه قوم عاد بالريح الصرصر، وإهلاك قوم صالح بالصيحة، وإهلاك قوم شعيب بالظلة، وإهلاك قوم لوط بقلب مداينهم ورجمهم بالحجارة، وكإهلاك قوم فرعون بالغرق.

وقد ذكر الله هذه القصص فى القرآن فى غير موضع، وبين أنها من آيات الأنبياء الدالة على صدقهم، كما ذكره فى سورة الشعراء لما ذكر قصة موسى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨].

ثم ذكر قصة إبراهيم وقال فى آخرها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وكذلك ذكر مثل ذلك في قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ومن ذلك ما جعله من اللعنة الشائعة لمن كذبهم، ومن لسان الصدق بالثناء والدعاء لهم، ولمن آمن بهم كما قال تعالى في قصة نوح: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٨، ٧٩].

وكذلك في قصة إبراهيم: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨، ١٠٩] أي تركنا هذا القول الذي يقوله المتأخرون وكذلك في قصة موسى وهارون: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠] ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات، ١٣٠]، وكذلك في قصة إبراهيم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩، ٥٠].

وقال في قصة فرعون: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٣٩-٤٢].

ولهذا قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] قال لمحمد ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

فأخبر أن العاقبة للمتقين، ثم إنه ما وقع لهؤلاء وهؤلاء يعلم بالسمع والنقل تارة، ويعلم بالعقل والاعتبار بآثارهم تارة، كما قال عن أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].



كما ذكر الله الطريقين في قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

ثم قال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٢-٤٥].

ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ٩، ١٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢-٨٥].

وقال لما قص قصص نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى في سورة هود: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢].

ولما ذكر قصة لوط في سورة الصافات قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وفي سورة الحجر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥-٧٧].

ثم قال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩]، والإمام المبين: **هو الطريق المستبين الواضح**.

بين سبحانه: أن هذه وهذه كلاهما بسبيل الناس، يرونها بأبصارهم فيعلمون بذلك ما فعل الله بمن كذب رسله وعصاهم، ودلالة نصر الله للمؤمنين، وانتقامه من الكافرين، على صدق الأنبياء من جنس دلالة الآيات والمعجزات على صدقهم فكون هذا فعل لأجل هذا، أو كون ذاك سبب هذا



هو مما يعلم بالاضطرار عند تصور الأمر على ما هو عليه، كانقلاب العصا حية عقب سؤال فرعون الآية، وانشقاق القمر عند سؤال مشركى مكة آية، وأمثال ذلك.

والسؤال المشهور يورد فى هذا الموضع على قول من ينفى التعليل فى أعمال الله، أو يجوز على الله كل فعل؟ حيث قيل لهم على أصلكم لا يفعل الله شيئًا لأجل شىء، وحينئذ فلم يأت بالآيات الخارقة للعادة، لأجل تصديق الرسول ﷺ، ولم عاقب هؤلاء لتكذيبهم له؟ ولم أنجى هؤلاء ونصرهم لإيمانهم به إذا كان لا يفعل شيئًا لشىء عندكم، وقالوا لهم أيضًا: إذا جوزتم على الرب كل فعل جاز أن يظهر الخوارق على يد الكاذب، ويقال لهم أيضًا: أنتم لا تعلمون ما يفعل الرب إلا بعادة أو خبر الأنبياء، فقيل العلم يصدق النبى لا يعلم شىء بخبره، والعادة إنما تكون فيما تكرر، كطلواع الشمس، ونزول المطر ونحو ذلك، والإتيان بالخارق للتصديق ليس معتاداً.

فيقال فى جوابه: هذا السؤال إن كان متوجهًا فإنما يقدح فى قول هؤلاء الذين يقولون لا يفعل شيئًا لأجل شىء، ويجوزون عليه فعل كل شىء ممكن لا ينزهونه عن فعل من الأفعال، وليس عندهم قبيح وظلم إلا ما كان ممتنعًا، مثل جعل الشىء موجودًا معدومًا، وجعل الجسم فى مكانين، ولهذا ذكر ذلك مخالفوهم حجة فى إبطال مذهبهم، وقالوا قولهم يقدح فى العلوم الضرورية، ويسد باب العلم بصدق الرسل، قالوا إذا جوزتم أن يفعل كل شىء فجوزوا أن تكون الجبال انقلبت ياقوتًا والبحار لبنًا ونحو ذلك مما يعلم بالضرورة بطلانه، وجوزوا أن يخلق للمعجزات على يد الكذابين، وليس المقصود هنا الجواب عن هؤلاء ببيان فساد قولهم، ولكن المقصود: أن السؤال إن كان متوجهًا، فإنما يقدح فى قول هؤلاء، لا يقدح فيما علم بالاضطرار من دلالات الآيات المذكورة على حال هؤلاء وهؤلاء، وأن الله سبحانه

وتعالى نجى موسى ونصره لصدقه، ونبوته، وإيمانه، وأهلك فرعون لتكذيبه.

وكذلك نصر محمدًا ﷺ ومن اتبعه على من كذبه من قومه، ونصر نوحًا على من كفر به، ونصر المسيح على من كذبه ونصر سائر الرسل وأتباعهم المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، كما لا يقدح فيما علم بالاضطرار من أن الله ينزل المطر فى إبانه لسقى المزارع، وأنه يسوق النيل لسقى أرض مصر، وأنه جعل أعضاء الإنسان بما فيها من المنافع، كالبطش باليدين، والمشى بالرجلين، والنظر بالعينين والسمع بالأذنين، والنطق باللسان، وجعل ماء العين ملحًا لكونها شحمة، والملوحة تمنعها أن تذوب، وماء الأذن مرًا ليمنع الذباب من الولوج فى الدماغ، وماء الفم عذبًا ليطيب الطعام والشراب، وجعل ماء البحر مالحًا لبقاء الأنام، فإنه لو كان عذبًا فيموت فيه من الحيوان العظيم، فيفسد الريح فيموت الآدميون والبهائم بهذه الريح، إلى ما لا يحصى من حكمة الله المشهودة فى خلقه.

ونفاة التعليل يقولون نحن نعلم أن هذا مقارن لهذا بحكم العادة التى أجراها الله وإن لم يخلق شيئًا لشىء، وكذلك من نفى الأسباب مع نفى التعليل أيضًا يقولون نحن نعلم أنه يخلق هذا عند هذا لا به، فاقتران المعجز بالتصديق من هذا الباب عندهم لكن يبقى عليهم، أن هذا لا يعلم إلا بالعادة ولا عادة فلا جرم رجعوا إلى فطرتهم من أن هذا أمر معلوم بالاضطرار وإن كان مناقضًا لأصلهم الفاسد، وضربوا له مثلا بالملك الذى أظهر ما يناقض عادته لتصديق رسوله ﷺ.



لكن يقال لهم: الملك يفعل فعلاً لمقصود، فأمكن أن يقال: إنه قام ليصدق رسوله، وأنتم عندكم أن الله لا يفعل شيئًا لشيء، فلم يبق المثل مطابقًا، ولهذا صاروا مضطرين بين هذا الموضع تارة يقولون: المعجز دل على الصدق، لئلا يفضى إلى تعجيز الرب، فإنه لا دليل على الصدق إلا خلق المعجز، فلو لم يكن دليلا لزم أن يكون الرب غير قادر على تصديق الرسول الصادق وهذه طريقة الأشعرى فى أكثر كتبه، وأحد قوليه، وسلكها القاضى أبو بكر أحيانًا وأبو إسحاق الإسفرائينى، وأبو بكر بن فورك، وأبو محمد ابن اللبان، وأبو على بن شاذان، والقاضى أبو يعلى وغيرهم.

والثانى قالوا: نحن نعلم بالاضطرار أنه فعل هذا لأجل التصديق كالمثل المضروب، وهذا هو القول الآخر وهى طريقة أبى الحسن الأشعرى فى أماليه، وهى طريقة أبى المعالى وأتباعه كالرازى وغيره، وتنازعوا هل يمكن خلق ذلك على يد كذاب؟

فقيل: لا يمكن، لأنه لو أمكن لجاز وقوعه، وقيل: بل هو مقدور، لكن نعلم أنه لا يفعله، كما نعلم أنه لا يفعل كثيرًا من الخوارق المقدورات، كقلب الجبل ياقوتًا، والبحر زئبقًا.

قالوا: فنحن نجوز أشياء ونعلم بالضرورة أنه لا يفعلها، فلا يلزم من كونها مقدورة ممكنة أن لا يعلم انتفاء وقوعها، بل قد علم عدم وقوعها بالاضطرار، وإن كنا نقول: إنها ممكنة مقدورة.

وظهور المعجزات على يد الكذاب فى دعوى النبوة من هذا الباب عندنا. وقالوا: المعجز علم على صدق الأنبياء فيمتنع أن يكون الدليل غير مستلزم للمدلول عليه، وهذا القول حق، لكن منازعوهم يقولون: هو يستلزم نقيض ما نفوه من كون الله يخلق شيئًا لشيء ويخلق شيئًا بشيء، وما قالوا من كونه يجوز عليه فعل كل شيء، وكان ما ذكروه من الحق دليلا على أن الخلق

يعلمون ما يعلمونه من حكمة الرب ومراده بما يخلقه لأمر آخر، وأنه سبحانه منزه عن أن يفعل شيئًا، لا يجوز منه فعل كل شيء.

وهم يقولون هنا: قد يكون الشيء ممكنًا جائزًا مع العلم بأنه غير واقع، كانقلاب الجبال ياقوتًا، والبحر زئبقًا، وموت أهل البلد كلهم فى لحظة، ومصير الأطفال علماء حكماء فى لحظة واحدة.

وعلى هذا الجواب: يعتمدون كثيرا كما يذكره القاضى أبو بكر، والقاضى أبو يعلى، وأبو المعالى والرازى وغيرهم، ثم إنهم يقولون فى العقل: إنه علوم ضرورية، كالعلم بوجوب الواجبات، وامتناع الممتنعات، وجواز الجائزات، فالممتنعات: كانقلاب دجلة دمًا، وأمثال ذلك من الأمور العادية، فيجعلون العادات واجبة تارة وممتنعة أخرى، مع أنه لا سبب يوجب لا هذا ولا هذا.

ويقولون: نعلم أن هذا جائز ممكن لا يتوقف على سبب ولا له مانع كالآخر، ثم نعلم أن هذا واقع، وهذا غير واقع لمجرد العادة، مع أن خرق العادة ليس له عنده ضابط، بل كل ما يخرق من العادات معجزات الأنبياء، فيجوز أن يكون عندهم للولى وللساحر.

والفرق بينهما عندهم: التحدى أو عدم المعارضة، وكذلك المتفلسفة الملاحدة الذين يقولون: أسباب الآيات القوى الفلكية، والقوى النفسانية والطبيعية، وهذه كلها مشتركة عندهم بين الأنبياء والسحرة، لكن النبى يقصد الخير، والعدل، والساحر يقصد الشر، والظلم.

وكذلك أولئك الذين وافقوا جهمًا على أصله فى القدر، لا فرق عندهم بين كرامات الأولياء وخوارق السحرة، لكن الولى مطيع لله، والساحر غير مطيع الله.



هذا عمدة هؤلاء النفاة للحكمة والأسباب فى أفعال الله تعالى.

وجمهور الناس يخالفونهم ويقولون: هذا القول فاسد، بل نفس تصوره كاف فى العلم بفساده، فإنه إذا تماثل هذا وهذا من كل وجه، فمن أين يعلم وجود هذا أو وجوبه، وعدم هذا أو امتناعه.

وإذا قيل: مستندى العادة. قيل له: منازعوك يقولون: هذا باطل من وجهين.

أحدهما: أنك أنت لا تجوز انتقاض العادة، وليس لانتقاضها عندك سبب يختص به، ولا حكمة انتقضت لأجلها، بل لا فرق عندك بين انتقاضها للأنبياء والأولياء والسحرة وغير ذلك، ولهذا قلتم ليس بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والسحرة فرق إلا مجرد اقتران دعوى النبوة، والتحدى بالمعارضة مع عدم المعارضة، مع أن التحدى بالمعارضة قد يقع من المشرك، بل ومن الساحر فلم يثبتوا فرقًا يعود إلى جنس الخوارق المفعولة، ولا إلى قصد الفاعل والخالق ولا قدرته ولا حكمته.

والثانى: أن العادة لابد لها من أسباب وموانع يعلم بها اطرادها تارة، وانتقاضا أخرى، وبهذا يظهر الجواب عما قالوه: من أن انقلاب الجبل ذهبًا، والبحر زئبقًا، والأناسى قرودًا، ونحو ذلك ممكن معلوم الجواز، مع العلم بأنه لم يقع، فإنهم يقال لهم: الناس لا يسلمون لكم أن هذا ممكن إلا مع لوازمه وانتفاء أضداده، وحينئذ فيقال: لم قلتم إن هذا لا يستلزم أسبابًا تكون قبله، وموانع ترتفع كسائر ما يحدثه الله من الأمور الخارقة للعادة فإنه لا يحدث شيئًا إلا بإحداث أسباب، ودفع موانع.

مثال ذلك: غرق قوم نوح لم يكن ماء وجد بلا سبب، بل أنزل الله ماء السماء وأنبع ماء الأرض، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا

عبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ٩-١٣].

وكذلك عاد لما أهلكهم، أرسل عليهم الريح الصرصر سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة٦-٨].

وكذلك ثمود قال لهم صالح: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٤-٦٨] وكل ما وجد في العالم من خوارق العادات: آيات الأنبياء وغيرها لم يأت منها شيء، إلا بأسباب تقدمته، فآيات موسى من مثل مصير العصى حية كانت بعد أن ألقاها، إما عند أمر الله له بذلك لما ناداه من الشجرة ورأى النار الخارقة، وإما عند مطالبة فرعون له بالآية، وإما عند معارضة السحرة لتبتلع حبالهم وعصيهم.

وكذلك سائر آياته، حتى إغراق فرعون، كان بعد مسير الجيش وضربه البحر بالعصا، وكذلك تفجير الماء من الحجر كان بعد أن ضرب الحجر بعصاه واستسقاء قومه إياه وهم في برية لا ماء عندهم.



وكذلك آيات نبينا ﷺ، مثل تكثير الماء، كان بوضع يده فيه حتى نبع الماء من بين الأصابع، أى تفجر الماء من بين الأصابع لم يخرج من نفس الأصابع.

وكذلك البئر، كان ماؤها يكثر إما بإلقائه سهما من كنانته فيها، وإما بصبه الماء الذى بصق فيها.

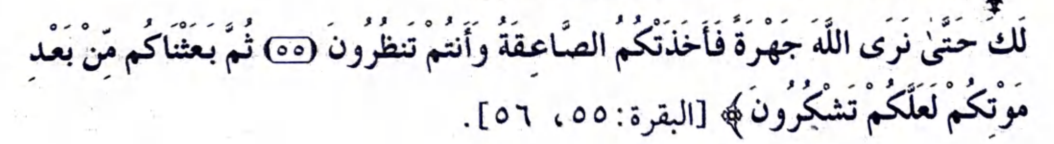
وكذلك المسيح، كان يأخذ من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله إلى أمثال ذلك.

فأما جبل ينقلب ياقوتا بلا أسباب تقدمت ذلك، فهذا لا كان ولا يكون.

وكذلك نهر يطرد يصبح لبنا بلا أسباب تقتضى ذلك يخلقها الله، فهذا لا كان ولا يكون، ومن قال إن الشىء ممكن، فهذا يعنى به شيئان: يعنى به الإمكان الذهنى، والإمكان الخارجى.

فالإمكان الذهنى: هو عدم بالإمتناع، وهذا ليس فيه إلا عدم العلم بالامتناع وعدم العلم بالامتناع غير العلم بالإمكان، فكل من لم يعلم امتناع شىء، كان عنده ممكنًا بهذا الإعتبار، لكن هذا ليس بعلم بإمكانه، ومن استدل على إمكان الشىء بأنه لو قدر لم يلزم منه محال من غير بيان انتفاء لزوم كل محال، كما يفعله طائفة من أهل الكلام، كالآمدى ونحوه لم يكن فيما ذكره إلا مجرد الدعوى.

وأما الثانى: وهو العلم بإمكان الشىء فى الخارج، فهذا يعلم بأن يعلم وجوده أو وجوده نظيره، أو وجود ما هو أقرب إلى الامتناع منه، فإذا كان حمل البعير للقنطار ممكنًا كان حمله لتسعين رطلا أولى بالإمكان، وبهذه الطريقة يبين الله فى القرآن إمكان ما يريد بيان إمكانه، كإحياء الموتى والمعاد فإنه يبين ذلك تارة ببيان وقوعه، كما أخبر أن قوم موسى قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ



لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وكما أخبر عن المقتول الذى ضربوه بالبقرة فأحياه الله، كما قال: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

وكما أخبر عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم.

وكما أخبر عن الذى: ﴿ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وأخبر سبحانه بنظير ذلك فى قصة إبراهيم حيث قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

واستدل سبحانه بما هو أعظم من ذلك، وهو النشأة الأولى، قال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١] وقال: ﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ



الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: ٥].

فاستدل سبحانه على إمكان الإحياء بابتداء خلق الحيوان وبخلق النبات، وذكر ذلك فى القرآن فى غير موضع، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود: أن قول القائل هذا ممكن، لا يحتاج إلى دليل لا يكفى فى العالم بإمكانه عدم العلم بامتناعه، والله سبحانه على كل شىء قدير.

والممتنع ليس بشىء باتفاق العقلاء، وكل ما خلقه الله فلا بد أن يخلق لوازمه ويمتنع أضداده وإلا فيمتنع وجود الملزوم بدون اللازم، ويمتنع اجتماع الضدين وليس للعباد إطلاع على لوازم كل مخلوق ولا أضداده المنافية لوجوده.

فالجزم بإمكان وجوده بدون العلم بلوازمه وإمكانها وأضدادها وانتفائها جهل. والله سبحانه قادر على تغيير ما شاءه من العالم، وهو يشق السموات، ويسير الجبال ويبسها بسًا، فيجعلها هباء منبثًا، وإلى أمثال ذلك مما أخبر الله به، كما يخلق سائر ما يخلقه بما يسره من الأسباب، وهذا مبسوط فى موضع آخر.

والمقصود هنا: أن آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل المبعث، وحين المبعث فى حياتهم وبعد موتهم، فقيل: مثل أخبار من تقدم من الأنبياء، ومثل الإرهاصات الدالة عليه.

وأما حين المبعث فظاهر، وأما فى حياته فمثل نصره، وإنجائه وإهلاك أعدائه، وأما بعد موته، فمثل نصر أتباعه وإهلاك أعدائه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ

﴿١٧٢﴾ وإنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣] وقال للمسيح: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ومحمد ﷺ، جعلت له الآيات البينات قبل مبعثه وحين مبعثه، وفي حياته وبعد موته، وإلى قيام الساعة، فإن ذكره إلى الساعة وذكر كتابه والبشارة بذلك موجود في الكتب المتقدمة، كما قد بسط في موضعه، وقد تقدم بعض ذلك.

والخليل دعا ربه فقال في دعائه لذريته: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ولما ولد اقترن بمولده من الآيات ما هو معروف وجرى ذلك العام قصة أصحاب الفيل المشهورة، وكان يحصل له في مدة نشأته من الآيات والدلائل أمور كثيرة، قد ذكر طرف منها في كتب دلائل النبوة والسيرة وغيرها مثل الآيات التي حصلت لمرضعته لما صار عندها ﷺ.

ومثل ما شوهد من أحواله في صغره، وأما انتصار الله له ولأتباعه وإعلاء ذكره، ونشر لسان الصدق له، وإهلاك أعدائه، وإذلال من يحاده ويشاقه، وإظهار دينه على كل دين باليد، واللسان، والدليل، والبرهان، فهذا مما يطول وصف تفصيله، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].



وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

والأنبياء صلوات الله عليهم وأتباعهم المؤمنون وإن كانوا يبتلون فى أول الأمر، فالعاقبة لهم، كما قال تعالى لما قص قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وفى الحديث المتفق على صحته لما أرسل النبى ﷺ رسولا إلى ملك الروم فطلب من يخبره بسيرته، وكان المشركون حينئذ أعداءه لم يكونوا آمنوا به فقال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قالوا ﷺ: الحرب بيننا وبينه سجال، يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى ﷺ.

فقال: كذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة.

فإنه كان يوم بدر، نصر الله المؤمنين، ثم يوم أحد ابتلى المؤمنين، ثم ينصر الكفار بعدها حتى أظهر الله الإسلام.

فإن قيل: ففى الأنبياء من قد قتل، كما أخبر الله أن بنى إسرائيل يقتلون النبيين بغير حق، وفى أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطانًا، ويسلطه على المتدينين، كما سلط «بخت نصر» على بنى إسرائيل، وكما سلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانًا على المسلمين.

قيل: أما من قتل الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين فى الجهاد شهيداً. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيدًا في القتال، كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه، قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢].

أي: إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة، ثم الدين الذى قاتل عليه الشهداء ينصر، ويظهر، فيكون لطائفته السعادة فى الدنيا والآخرة، من قتل منهم كان شهيدًا، ومن عاش منصورًا سعيدًا، وهذا غاية ما يكون من النصر، إذا كان الموت لابد منه، فالموت على الوجه الذى تحصل بها سعادة الدنيا والآخرة أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته، فلا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم، وفعلوا الأسباب التى بها قتلوا، كالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فهم اختاروا هذا الموت، إما أنهم قصدوا الشهادة، وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء عالمين بأن لهم السعادة فى الآخرة وفى الدنيا بانتصار طائفتهم، وببقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء، بخلاف من أهلك من الكفار، فإنهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكًا لا يرجون معه سعادة الآخرة، ولم يحصل لهم ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا، بل اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة هم المقبوحين وقيل فيهم: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٩].

وقد أخبر سبحانه أن كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير، أى ألوف كثيرة، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك، بل استغفروا من ذنوبهم التى كانت سبب ظهور العدو، وأن الله أتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة.

فإذا كان هذا قتل المؤمنين، فما الظن بقتل الأنبياء، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو أعظم الفلاح.

وظهور الكفار على المؤمنين أحيانًا هو سبب ذنوب المسلمين، كيوم أحد، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم، كما قد جرى مثل هذا للمسلمين فى ملاحمهم مع الكفار، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها، فإن النبى ﷺ إذا قاموا بعهوده وصاياه نصرهم الله وظهرهم على المخالفين له، فإذا ضيعوا عهوده ظهر عليهم، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبى ﷺ وجودًا، وعدما من غير سبب يزاحم ذلك، ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأن المدار علة للدائر.

وقولنا من غير مزاحمة وصف آخر يزيل النقوض الواردة، فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبى، وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفهم، وأن يجعل لهم السعادة، ولمن خالفهم الشقاء، وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا، ومن خالفه كان شقيًا، ومن هذا: ظهور **بخت نصر** على بنى إسرائيل، فإنه من دلائل نبوة موسى إذا كان ظهور **بخت نصر**، إنما كان لما غيروا عهود موسى، وتركوا اتباعه، فعوقبوا بذلك وكانوا إذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين، كما كانوا فى زمن داود وسليمان وغيرهما. قال تعال:

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ

الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٤-٨].

فكان ظهور بنى إسرائيل على عدوهم تارة، وظهور عدوهم عليهم تارة من دلائل نبوة موسى عليه السلام وآياته، وكذلك ظهور أمة محمد ﷺ على عدوهم تارة، وظهور عدوهم تارة، هو من دلائل رسالة محمد وأعلام نبوته وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم فى حياته وبعد موته كما جرى لهم من «يوشع» وغيره، من دلائل نبوة موسى.

وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد ﷺ فى حياته وبعد مماته مع خلفائه، من أعلام نبوته ودلائلها، وهذا بخلاف الكفار الذين ينتصرون على أهل الكتاب أحيانًا، فإن أولئك لا يقول مطاعهم إنى نبى، ولا يقاتلون أتباع الأنبياء على دين، ولا يطلبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم، بل قد يصرحون بأنا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم وأن لو اتبعتم لم ننصر عليكم، وأيضًا فلا عاقبة لهم، بل الله يهلك الظالم بالظالم، ثم يهلك الظالمين جميعًا ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت، فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم، وبين ظهور بعض الكفار على المؤمنين أو ظهور بعضهم على بعض.

وبين أن ظهور **محمد** ﷺ وأمته على أهل الكتاب: اليهود والنصارى، هو من جنس ظهورهم على المشركين عباد الأوثان، وذلك من أعلام نبوته ودلائل رسالته ليس هو كظهور بختنصر على بنى إسرائيل وظهور الكفار على المسلمين، وهذه الآية مما أخبر بها موسى.



وبين أن الكذاب المدعى للنبوة لا يتم أمره، وإنما يتم أمر الصادق، فإن من أهل الكتاب من يقول: محمد ﷺ وأمته سلطوا علينا بذنوبنا مع صحة ديننا الذى نحن عليه، كما سلط بخت نصر وغيره من الملوك.

وهذا قياس فاسد، فإن بختنصر لم يدع نبوة، ولا قاتل على دين ولا طالب من بنى إسرائيل أن ينتقلوا عن شريعة موسى إلى شريعته، فلم يكن فى ظهوره إتمام لما ادعاه من النبوة، ودعا إليه من الدين، بل كان بمنزلة المحاربين قطاع الطريق، إذا ظهروا على القوافل بخلاف من ادعى نبوة ودينا دعا إليه، ووعد أهله بسعادة الدنيا والآخرة، وتوعد مخالفيه بشقاوة الدنيا والآخرة، ثم نصره الله وأظهره، وأتم دينه، وأعلا كلمته، وجعل له العاقبة وأذل مخالفيه.

فإن هذا من جنس خرق العادات المقترن بدعوى النبوة، فإنه دليل عليها وذاك من جنس خرق العادات التى لم تقترن بدعوى النبوة، فإنه ليس دليلا عليها، وقد يغرق فى البحر أمم كثيرة، فلا يكون ذلك دليلا على نبوة نبى بخلاف غرق فرعون وقومه، فإنه كان آية بينة لموسى، وهذا موافق لما أخبر به موسى عليه الصلاة والسلام من أن الكذاب لا يتم أمره، وذلك بأن الله حكيم لا يليق به تأييد الكذاب على كذبه من غير أن يبين كذبه، ولهذا أعظم الفتن فتنة الدجال الكذاب، لما اقترن بدعواه الإلهية بعض الخوارق، كان معها ما يدل على كذبه من وجوه.

منها: دعواه الإلهية وهو أعور، والله ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارىء وغير قارىء، والله تعالى لا يراه أحد حتى يموت.

وقد ذكر النبى ﷺ هذه العلامات الثلاث فى الأحاديث الصحيحة، فأما تأييد الكذاب ونصره وإظهار دعوته دائمًا، فهذا لم يقع قط، فمن يستدل على ما يفعله الرب سبحانه بالعادة والسنة، فهذا هو الواقع على ذلك أيضًا

بالحكمة، فحكمته تناقض أن يفعل ذلك إذ الحكيم لا يفعل هذا، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣].

فأخبر أن سنة الله التى لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين.

والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله ﷺ فإذا نقص الإيمان بالمعاصى كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٢، ٤٣].

فأخبر أن الكفار لا ينظرون إلا سنة الأولين، ولا يوجد لسنة الله تبديل، لا تبدل بغيرها، ولا تتحول فكيف النصر للكفار على المؤمنين الذين يستحقون هذا الاسم؟

وكذلك قال المنافقين وهم الكفار فى الباطن دون الظاهر ومن فيه شعبة نفاق ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦٢].

والسنة هى العادة، فهذه عادة الله المعلومة، فإذا نصر من ادعى النبوة واتباعه على من خالفه، إما ظاهراً وإما باطنًا نصراً مستقراً، فإن ذلك دليل على أنه نبى صادق إذ كانت سنة الله وعادته نصر المؤمنين بالأنبياء الصادقين على الكافرين والمنافقين، كما أن سنته تأييدهم بالآيات البينات وهذه منها.



ومن ادعى النبوة وهو كاذب، فهو من أكفر الكفار، أو أظلم الظالمين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ [العنكبوت: ٦٨] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ومن كان كذلك، كان الله يمقته، ويبغضه، ويعاقبه، ولا يدوم أمره، بل هو كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة قال: «**إن الله يملى للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال أيضًا فى الصحيح عن أبى موسى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تقيمها الرياح تارة وتميلها أخرى، ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجلاعها مرة واحدة**».

فالكاذب الفاجر وإن عظمت دولته، فلابد من زوالها بالكلية وبقاء ذَمِّه، ولسان السوء له فى العالم وهو يظهر سريعًا ويزول سريعًا كدولة الأسود العنسى ومسيلمة الكذاب، والحارث الدمشقى، وبابا الرومى ونحوهم.

وأما الأنبياء، فإنهم يبتلون كثيرًا ليمحصوا بالبلاء، فإن الله إنما يمكن العبد إذا ابتلاه ويظهر أمرهم شيئًا فشيئًا، كالزرع، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي

الإنجيل كزرع أخرج شطأه -أى فراخه- فآزره -أى قواه- فاستغلظ فاستوى على سوقه -أى قوائمه- يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ [الفتح: ٢٩].

ولهذا كان أول ما يتبعهم ضعفاء الناس، فاعتبار هذه الأمور وسنة الله فى أوليائه وأنبيائه الصادقين، وفى أعداء الله والمتنبئين الكذابين مما يوجب الفرق بين النوعين، وبين دلائل النبى الصادق ودلائل المتنبىء الكذاب.

وقد ذكر ابتلاء النبى ﷺ والمؤمنين، ثم كون العاقبة لهم فى غير موضع، كقوله تعالى: ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون (١٠٩) حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين (١١٠) لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف: ١٠٩-١١١].

فصل

ومما ينبغى أن يعرف، أن الدلالة نوعان:

نوع: يدل على مجرد العلم بالمدلول عليه.

ونوع: يحض مع ذلك على الرغبة فيه، أو الرهبة منه.

فالأول: من جنس الخبر المجرد.

والثاني: من جنس الحث، والطلب، والإرادة والأمر بالشيء والنهي عنه وذلك كمن أعلم أن في المكان الفُلاني جمادات أو حيوانات أو نبات ليس له فيها غرض، لا حب، ولا بغض، فليس هو بمنزلة من علم أن في المكان الفلاني صديقه، وولده، ومحبوبه، وماله، وأهله، وأهل دينه، وفي المكان الفُلاني عدوه، ومبغضه، ومن يقطع عليه الطريق، ويقتله، ويأخذ ماله.

فكذلك دلائل النبوة، هي كلها تدل على صدق النبي ﷺ، ثم يعلم ما يخبر به النبي من الأمر والنهي والوعد والوعيد، لأنه أخبر عن الله بذلك وهو صادق فيما يخبر به، فهذا طريق صحيح عام.

وأما إثبات نبوة الأنبياء بما فعله بهم وبأتباعهم من النجاة، والسعادة، والنصرة، وحسن العاقبة، وما جعله لهم من لسان الصدق، وما فعله بمكذبيه ومخالفيه من الهلاك، والعذاب، وسوء العاقبة، واتباعهم اللعنة في الدنيا مع عذاب الآخرة، فهذا يدل مع صدق الأنبياء على الرغبة في اتباعهم، والرهبة من مخالفتهم، ففيه العلم بصدقهم، والموعظة للخلق، والوعظ هو أمر ونهي بترغيب وترهيب، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٦٦، ٦٧] أي: ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، وما يؤمرون به وقال: ﴿**يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [النور: ١٧] أي ينهاكم الله أن تعودوا لمثله، وهذا الطريق أكمل وأبلغ في حصول المقصود، فإنها تفيد العلم بصدقهم، والرغبة

فى اتباعهم، والرهبة من خلافهم، وتفيد ثبوت صحة الدين الذى دعوا إليه، وسعادة أهله، وفساد الدين المخالف لدينهم وشقاوة أهله.

ولهذا كان النبى ﷺ يقرأ فى المجامع الكبار، كصلاة العيد «بقاف» و«اقتربت الساعة» لما فيهما من بيان ذلك، وسورة «قاف»، كان يقرأ بها فى الجمعة، فإنها جامعة لإثبات النبوات والمعاد، مع ما فيها من التوحيد، وأصول الشرائع، وبيان حال متبعى الأنبياء ومخالفيهم فى الدنيا، كما قال تعالى فيها: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤].

وفد النصارى إلى الرسول ﷺ

قال ابن إسحاق: وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال: قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب، قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبى ﷺ: يومئذ ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم. وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ فقال: دعوهم فصلوا إلى المشرق، قال ابن إسحاق وكان تسمية الأربعة عشر الذين يئول إليهم أمرهم: العاقب وهو عبد المسيح، والسيد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأوس، والحارث، وزيد، وقيش، ويزيد وبنيه، وخويلد، وعمرو، وخالد، وعبد الله، ويحنس فى ستين راكبًا فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة. والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد. وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلافهم فى أمرهم يقولون: هو الله.

ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، وكذلك قول النصارى، فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرًا، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية للناس، ويحتجون في قولهم إنه ولد الله فإنهم يقولون لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد وهذا شيء لم يصنعه أحد من ولد آدم. ويحتجون في قولهم ثالث ثلاثة بقول الله فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا فيقولون لو كان واحدًا ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم ففي كل ذلك من أقوالهم قد نزل القرآن فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ: «أسلما» قالا قد أسلما، قال: «إنكما لم تسلما فأسلما». قالا: بل قد أسلمنا قبلك، قال كذبتما يمنعكما من الإسلام دعواكما لله ولدًا، وعبادتكما للصليب وأكلكما الخنزير. قالا فمن أبوه يا محمد! فصمت رسول الله ﷺ: «عنهما فلم يجبهما» فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلافهم في أمرهم كله صدرًا من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية، وذكر نزول الآيات بسببهم غير واحد، مثلما ذكره محمد بن جرير الطبري في تفسيره قال حدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبي جعفر – يعني عبد الله بن أبي جعفر الرازي– عن أبيه عن الربيع في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]. قال: إن النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى ابن مريم، وقالوا له من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان. لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، فقال لهم النبي ﷺ: «ألستم تعلمون أنه لا يكون ولدًا إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: نعم، قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه

ويحفظه ويرزقه! قالوا: بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما علم؟ قالوا: لا. قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء. قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟. قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذى كما يتغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا» فأنزل الله ﴿الٓمٓ ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢].

مناقشة نصارى نجران للرسول ﷺ

وقد ثبت في الصحاح حديث وفد نجران ففي البخاري ومسلم عن حذيفة وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال لما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]. دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنًا وحسينا فقال: اللهم هؤلاء أهلي.

وفي البخاري عن حذيفة بن اليمان قال جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا أمينًا فلا تبعث معنا إلا أمينًا، قال لأبعثن معكم رجلا أمينًا حق أمين. قال فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة».

وفى سنن أبى داود وغيره قال أبو داود أخبرنا مصرف بن عمرو اليامى حدثنا يونس -يعنى ابن بكير- حدثنا أسباط بن نصير الهمدانى عن إسماعيل بن عبد الرحمن القرشى، عن ابن عباس قال: صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفى حلة: النصف فى صفر، والنصف فى رجب، يؤدونها إلى المسلمين وعارية ثلاثين درعًا وثلاثين فرسًا وثلاثين بعيراً وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم إن كان باليمن كيد ذات عذر. على أن لا يهدم لهم بيعة ولا يخرج لهم قس ولا يفتنون عن دينهم ما لم يحدثوا حدثًا، أو يأكلوا الربا. قال إسماعيل: فقد أكلوا الربا قال أبو داود إذًا نقضوا بعض ما شرط عليهم، فقد أحدثوا، وما ذكره أبو داود وأهل السير من مصالحته لأهل نجران على الجزية المذكورة معروف عند أهل العلم. وقد ذكر ذلك أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب «**الأموال**» ذكره من طريقين.

كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم

قدم على هرقل كتاب رسول الله ﷺ مع دحية بن خليفة الكلبى فيه «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من ابتع الهدى، أما بعد: فأسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**» -يعنى الأكارين-.

قال ابن إسحاق، وقال ابن شهاب: حدثنى أسقف النصارى فى زمان عبد الملك بن مروان زعم لى أنه أدرك ذلك من أمر رسول الله ﷺ. وأمر هرقل وعقله، قال: لما قدم عليه كتاب رسول الله ﷺ مع دحية أخذه فجعله على خاصرته، ثم كتب إلى رجل برومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ يذكر له

أمره ويصف له شأنه، ويخبره ما جاء منه، قال: فكتب إليه صاحب رومية أنه النبى ﷺ الذى ننتظره لا شك فيه فاتبعه وصدقه، فأمر هرقل ببطارقة الروم فجمعوا له فى دسكرة ملكه، وأمر بها فاسترخت عليهم أبوابها، ثم طلع عليهم من عليه وخافهم على نفسه وقال: **يا معشر الروم إنى قد جمعتكم لخير، إنه قد أتانى كتاب هذا الرجل يدعونى إلى دينه، وإنه والله للرجل الذى كنا ننتظره ونجده فى كتبنا، فهلم فلنتبعه ولنصدقه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا، فنخروا نخرة رجل واحد، ثم ابتدروا أبواب الدسكرة ليخرجوا منها، فوجدوها قد أغلقت دونهم فقال: كروهم على وخافهم على نفسه فكروا عليه، وقال: يا معشر الروم، إنما قلت لكم هذه المقالة التى قلت لكم، لأنظر كيف صلابتكم على دينكم الأمر الذى حدث، فقد رأيت منكم الذى أسر به فوقعوا سجوداً وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا.**

وهذا حديث مشهور من حديث محمد بن إسحاق -وهو ذو علم وبصيرة بهذا الشأن. حفظ ما لا يحفظه غيره -قال ابن إسحاق: وأخذ هرقل كتاب رسول الله ﷺ فجعله فى قصبة من ذهب وأمسكها عنده تعظيما له، وهذه القصة مشهورة ذكرها أصحاب الصحاح، ففى البخارى ومسلم والسياق للبخارى عن الزهرى قال: أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان بن حرب وكفار قريش فأتوه وهو بإيليا فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم بالترجمان فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال: أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال: لترجمانه: إنى سائل هذا عن

هذا الرجل. فإن كذبني فكذبوه. قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على الكذب لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. فقال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا. ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها. قال: ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: فبماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف، والصلة. فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا. فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى يقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. فقلت: لو كان فى آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل

فيه؟ فذكـرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشـته القلوب لا يسخطه أحد، وسألتك هل يغدر! فذكـرت أن لا. وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بم يأمركم؟ فذكرت أنـه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيـئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعـفاف، فإن كان ما تقول حقًا، فسيملك مـوضع قدمى هاتين، وقد كنتُ أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعى بكتاب رسـول الله ﷺ الذى بعث به مع دحيـة الكلبى إلى عظيم بصرى فـدفعـه عظيم بصرى إلى هرقل فـقرأه فـإذا فيه: «بسـم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مـرتين، فإن توليت، فـإن عليك إثم الأريسين، ويا أهـل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعـبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتـخـذ بعـضنا بعـضًا أربابًـا من دون الله، فإن تولـوا فقـولوا اشـهـدوا بأنا مسلمون».

قال أبو سـفيان: فـلما قال مـا قال، وفرغ من قـراءة الكتاب، كـثر عنده الصخب، وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابى حين أخرجنا: لقد أمر ابن أبى كبـشة إنه ليخافه ملك بنـى الأصفر، فما زلت مـوقنا أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام.

وكان ابن الناطور صاحب إيليا أسقـفًا على نصارى أهل الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيليـا أصبح يومًا خبيث النعس، فقال له بـعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك. قال ابن الناطور: وكـان هرقل حزاء ينظر فى النجوم، فقال

لهم حين سألوه: إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم أن ملك الختان قد ظهر؛ فمن يختتن من هذه الأمة؟ فقالوا: ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم واكتب إلى مدائن ملكك فليقتلوا من فيهم من اليهود؛ فبينما هم على أمرهم، أتى هرقل برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن رسول الله ﷺ؛ فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن وسأله عن العرب قال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر؛ ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان هرقل نظيره فى العلم. وسار هرقل إلى حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﷺ وأنه نبى. فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص. ثم أمر بأبوابها فغلقت. ثم اطلع عليهم فقال: يا معشر الروم. هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبى. فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت دونهم. فلما رأى هرقل نفرتهم ويئس من الإيمان منهم قال: ردوهم علىَّ. قال: إنى قلت مقالتى آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عليه. فكان هذا آخر شأن هرقل.

قلت: وكان هرقل من أجل ملوك النصارى فى ذلك الوقت. وقد أخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق إلى الآن عند ذرية هرقل فى أرفع صوان وأعز مكان يتوارثونه كابرًا عن كابر، وأخبر غير واحد أن هذا الكتاب باق الآن عند الفنش صاحب قشتالة وبلاد الأندلس يفتخرون به وهذا أمر مشهور ومعروف.

وقد روى سنيد -وهو شيخ البخارى- فى تفسيره قال: حدثنا هشام قال: أخبرنا حصين عبد الله بن شداد بن الهاد قال: لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل فقرأ كتابه وجمع الروم فأبوا عليه قال: فلما كان يوم الأحد لم يحضر

أسقفهم الكبير وتمارض، فأرسل إليه فأبى، ثم أرسل إليه، فأبى ثلاث مرات فركب إليه فقال له: أليس قد عرفت أنه رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: أليس قد رأيت ما ركبوا منى فأنت أطوع فيهم منى فتعال فادعهم. قال: أو تأذن لى فى ذلك! قال: نعم. قال: اذهب هو ذا أجىء، قال: فجاء بسواده إلى كنيستهم العظمى، فلما رأوه خروا له سجداً الملك وغيره، فقام فى المذبح فقال: يا أبناء الموتى، هذا النبى ﷺ الذى بشر به عيسى، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فنخروا ووثبوا» إليه فعضوه بأفواههم حتى قتلوه، قال: وجعلوا يخرجون أضلاعه بالكلبتين حتى مات.

كتاب رسول الله ﷺ إلى ملك مصر المقوقس -ملك النصارى بالإسكندرية

وأرسل النبى ﷺ رسولاً أيضًا إلى ملك مصر المقوقس -ملك النصارى فى ذلك الوقت بالإسكندرية- وكان رسوله إليه حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه -قال حاطب: قدمت على المقوقس- واسمه جريح بن مينا- بكتاب رسول الله ﷺ فقلت له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك. قال: هات، قلت: إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافى بعدما سواه، إن هذا النبى دعا الناس إلى الله، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل من أدرك نبيًا فهو من أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبى

ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به، ثم ناوله كتاب رسول الله ﷺ، فلما قرأه قال: خيرًا قد نظرت فى هذا فوجدته قد لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة، ثم جعل الكتاب فى حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى خازنه، وكتب جوابه إلى رسول الله ﷺ: قد علمت أن نبيًا قد بقى وقد أكرمت رسلك، وأهدى للنبى ﷺ جاريتين وبغلة تسمى الدلدل، فقبل النبى ﷺ هديته، واصطفى الجارية الواحدة -واسمها **مارية القبطية**- لنفسه فولدت منه إبراهيم، وأعطى الأخرى لحسان ابن ثابت، فولدت منه عبد الرحمن، وعاشت البغلة إلى زمان معاوية فقال النبى ﷺ: **«ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه»**.

قال محمد بن سعد: حدثنا محمد بن عمر قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال: لما رجع النبى ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة سنةست من الهجرة، بعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس القبطى صاحب الإسكندرية، وكتب إليه معه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، فلما قرأ الكتاب قال له: خيرًا، وأخذ الكتاب -وكان مختومًا- فجعله فى حق من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى خازنه وكتب إلى النبى ﷺ جواب كتابه ولم يسلم، وأهدى إلى النبى ﷺ ما تقدم ذكره.

فكل من الملكين عظم أمر رسول الله ﷺ وتواضع له ولكتابه، واعترف بأنه الرسول المنتظر الذى بشرت به الأنبياء عليهم السلام. وقد كان المقوقس يعرف أنه حق بما يسمع من صفاته من أهل الكتاب ولكن ضن بملكه ولم يؤمن، وكان قد خرج إليه المغيرة بن شعبة قبل إسلام المغيرة فحدثه بذلك.

قال محمد بن عمر الواقدى: حدثنى محمد بن سعد الثقفى، وعبد الرحمن ابن عبد العزيز بن عبد الله بن عثمان بن سهل بن حنيف، وعبد

الملك بن عيسى، وعبد الله بن عبد الرحمن، ومحمد بن يعقوب بن عتبة عن أبيه وغيرهم، كل قد حدثنى من هذا الحديث بطائفة منه قال: قال المغيرة بن شعبة فى خروجه إلى المقوقس مع بنى مالك وإنهم لما دخلوا على المقوقس قال: كيف خلصتم إلىَّ من طائفتكم ومحمد ﷺ وأصحابه بينى وبينكم؟ قالوا: ألصقنا بالبحر وقد خفناه على ذلك. قال: فكيف صنعتم فيما دعاكم إليه؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد. قال: ولم ذلك؟ قالوا: جاءنا بدين مجرد لا تدين به الآباء، ولا يدين به الملك، ونحن على ما كان عليه آباؤنا. قال: فكيف صنع قومه؟ قالوا تبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه من قومه وغيرهم من العرب فى مواطن، مرة تكون عليهم الدائرة ومرة تكون له. قال: ألا تخبرونى إلى ماذا يدعوا إليه؟ قالوا: يدعونا إلى أن نعبد الله وحده لاشريك له، ونخلع ما كان آباؤنا، ويدعو إلى الصلاة والزكاة؟ ألها وقت يعرف وعدد ينتهى إليه؟ قالوا: يصلون فى اليوم والليلة خمس صلوات لمواقيت وعدد سموه له، ويؤدون من كل ما بلغ عشرين مثقالا نصف مثقال، وأخبروه بصدقة الأموال كلها. قال: أفرأيتم إذا أخذها أين يضعها؟ قالوا يردها على فقرائهم ويأمر بصلة الأرحام والوفاء بالعهود وتحريم الزنا والخمر ، ولا يأكل مما ذبح لغير الله **فقال المقوقس: هذا نبى مرسل إلى الناس، ولو أصاب القبط والروم اتبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى ابن مريم، وهذا الذى تصفون منه بعث الأنبياء من قبله**، وسيكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر إلى منتهى الخف والحافر ومنقطع البحور ويوشك قومه أن يدافعوه بالراح. قالوا: فلو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا، قال المغيرة: فأنغض المقوقس رأسه وقال: أنتم فى اللعب، ثم قال: كيف نسبه فى قومه؟ قلنا: هو أوسطهم نسبًا. قال: كذلك والمسيح، الأنبياء تبعث فى نسب قومها، ثم قال: فكيف صدق حديثه؟ قال: قلنا: ما يسمى إلا الأمين من صدقه، قال: انظروا

فى أمركم أترونه يصدق فيما بينكم وبينه ويكذب على الله قال: فمن تبعه؟ قلنا الأحداث. قال: هم والمسيح أتباع الأنبياء قبله. قال: فما فعلت يهود يثرب فهم أهل التوراة؟ قلنا خالفوه فأوقع بهم فقتلهم وسباهم وتفرقوا فى كل ناحية. قال: هم قوم حسدة حسدوه، أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف؟ قال المغيرة: فقمنا من عنده وقد سمعنا كلامًا ذللنا لمحمد ﷺ وخضعنا له، وقلنا: ملوك العجم يصدقونه ويخافونه فى بعد أرحامهم منه، ونحن أقرباؤه وجيرانه ولم ندخل معه، وقد جاءنا داعيًا إلى منازلنا. قال المغيرة: فرجعت إلى منزلنا فأقمت بالإسكندرية لا أدع كنيسة إلا دخلتها وسألت أساقفتها من قبطها ورومها عما يجدون من صفة محمد ﷺ، وكان أسقف من القبط هو رأس كنيسة يوحنس، كانوا يأتونه بمرضاهم فيدعوا لهم لم أر قط أشد اجتهادًا منه فأتيته فقلت: هل بقى أحد من الأنبياء؟ قال: **نعم، هو آخر الأنبياء ليس بينه وبين عيسى ابن مريم أحد، وهو نبى مرسل وقد أمرنا عيسى باتباعه، وهو النبى الأمى والعربى اسمه أحمد، ليس بالطويل ولا بالقصير، فى عينيه حمرة، وليس بالأبيض ولا بالأدم، يعفى شعره، ويلبس ما غلظ من الثياب، ويجتزى بما لقى من الطعام، سيفه على عاتقه. ولا يبالى بمن لاقى، يباشر القتال بنفسه، ومعه أصحابه يفدونه بأنفسهم، هم له أشد حبًا من أولادهم وآبائهم، يخرجهم من أرض حرم ويأتى إلى حرم، يهاجر إلى أرض سباخ ونخل، يدين بدين إبراهيم** عليه السلام. قال المغيرة: فقلت له: زدنى فى صفته. قال: يأتزر على وسطه، ويغسل أطرافه، ويخص بما لا تخص به الأنبياء قبله، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعث هو إلى الناس كافة، وجعلت له الأرض مسجدًا وطهورًا، أينما أدركته الصلاة تيمم وصلى، ومن كان قبله كان مشددًا عليهم لا يصلون إلى الكنائس والبيع، قال المغيرة بن شعبة: فوعيت ذلك كله من قوله وقول غيره، وما سمعت من ذلك.

فذكر الواقدى حديثًا طويلاً فى رجوعـه وإسلامه، وما أخبر به من صفات النبى ﷺ، وكان ذلك مما يعجب النبى ﷺ، ويحب أن يسمعه أصحابه. قال المغيـرة: فكنت أحدثهم بـذلك، وهذا أمر معـروف عند علماء أهل الـكتاب وعظمائهم.

وقد أخـرج أبو حاتم فى صحـيحه عن عـمرُو بن العاص أنه قـال: خرج جيش من المسلمـين -أنا أميـرهم- حتى نزلنا بالإسكندرية، فـقال عظيم من عظمائهم: أخرجـوا إلى رجل يكلمنى وأكلمه. فقلت لا يخرج إليـه غيرى. قال: فخرجت إليـه ومعى ترجمانى ومعه ترجمانه. فـقال: ما أنتم؟ فقلت: نحن العـرب، ونحن أهل الشـوك، ونحن أهل بيت الله الحـرام، كنا أضـيق الناس أرضًا وأجهدهم عيشًا، نأكل الميتة والدم ويغير بعضنا على بعض، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمـنا يومئذ، ولا بأكثرنا مالا، فـقال: أنا رسول الله إليكم. فأمرنا بما لا نعرف، ونهانا عما كنا عليه، وكان عليه آباؤنا، فكذبناه، ورددنا عليه مقالتـه، حتى خرج إليه قوم غيرنا، فـقاتلنا وظهر علينا: وغلبنا وتناول من يليه من العرب فقـاتلهم حتى ظهر عليهم ولو يعلم من ورائى من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحـد إلا جاءكم حتى يشرككم فيما أنتم فيه مـن العيش فضحك، ثم قـال: إن رسولكم قد صدق، قـد جاءتنا رسلنا بمثل الذى جاء به رسولكم، فإن أنتم أخذتم بـأمر نبيكم ﷺ لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه، ولن يشارككم أحد إلا ظهـرتم عليه، وإن فعلتم مثل الذى فعلنا وتركتم أمر نبيكم، لِم تكونوا أكثر عددًا منا ولا أشد منا قوة.

ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله الله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك..

فلما جـاء النبى ﷺ قالت: «يا رسـول الله إن عمـر قال كذا وكـذا، قال رسول الله ﷺ: فماذا قلت له؟ قالت: قلت كذا ،كذا، قال: ليس بأحق بى منكم وله ولأصحابه هجرة واجدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان».

قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونى أرسالا يسألونى عن هذا الحديث ما من الدنيا شيئ هم به أفرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال رسول الله ﷺ.

قال أبو بردة: قالت أسماء رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى أخرجاه فى الصحيحين البخارى ومسلم.

وأخرجاه فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى ﷺ نعى لهم النجاشى صاحب الحبشة فى اليوم الذى مات فيه قال: «**استغفروا لأخيكم**».

وعنه -رضى الله عنه- قال: نعى النبى ﷺ النجاشى يوم توفى وقال: «**استغفروا لأخيكم**» ثم خرج بالناس إلى المصلى فصفوا وراءه وصلى عليه أربع تكبيرات. أخرجاه.

وقال جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما- إن رسول الله ﷺ صلى على أصحمة، النجاشى فكبر عليه أربعًا. زخرجاه فى الصحيحين.

فصل

وكان أول ما أنزل الله تعالى عليه ﷺ الوحى عرضت خديجة امرأته أمره على عالم من علماء النصارى يقال له ورقة بن نوفل، وكان من العرب المتنصرة، فقال هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى بن عمران ياليتنى أكون فيها جذعًا حين يخرجك قومك -يعنى ليتنى أكون شابًا- فقال له النبى ﷺ «أو مخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودى. وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا» . رواه أصحاب الصحيح.

وقدم إليه بمكة طائفة من أهل الكتاب من النصارى فآمنوا به، فآذاهم المشركون فصبروا واحتملوا، فأنزل الله فيهم ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم**

به يؤمنون ﴿٥٢﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴿٥٣﴾ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴿٥٤﴾ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾ [القصص: ٥٢-٥٥] .

وقصتهم مشهورة فى كتب التفسير وغيرها، وروى البيهقى فى كتاب دلائل النبوة وأعلام الرسالة فقال: أنبأنا يونس عن ابن إسحاق قال: ثم قدم على رسول الله ﷺ عشرون رجلا - وهو بمكة أو قريب من ذلك -من النصارى حين ظهر خبره فى الحبشة فوجدوه فى المجلس فكلموه وساءلوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مساءلة رسول الله عما أرادو، ودعاهم رسول الله ﷺ وتلا عليهم القران، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش فقالوا خيبكم الله من ركب بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم فتأتونهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال لكم ما نعلم ركبًا أحمق منكم أو كما قال لهم، فقالوا سلام عليكم لانجاهلكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا نألوا لأنفسنا.

كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى ملك الفرس

وقاتل عمر بن الخطاب الفرس والمجوس، وفتح أرضهم، وظهر تصديق خبر رسول الله ﷺ حيث قال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله عز وجل**» أخرجاه فى الصحيحين.

وهذا بعد أن بعث رسول الله ﷺ إلى المجوس ، وكتب كتابه إلى كسرى ملك الفرس، كما كتب إلى ملوك النصارى كما تقدم عن قيصر والمقوقس، ولكن ملوك النصارى تأدبوا معه وخضعوا له فبقى ملكهم وأما ملك الفرس فمزق كتابه فدعا عليهم فقال: «اللهم مزق ملكهم كل ممزق» فلم يبق لهم ملك.

قال ابن عباس: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة بكتابه إلى كسرى يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى فلما قرأه -يعنى كسرى- مزقه فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق.

وقال ابن إسحاق: **كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر فأما كسرى: فلما قرأ الكتاب مزقه، وأما قيصر: فلما قرأ الكتاب طواه ووضعه عنده، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أما هؤلاء -يعنى كسرى- فيمزقون، وأما هؤلاء، فستكون لهم بقية»** .

قال ابن إسحاق: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذاقة ابن قيس السهمى إلى كسرى بن هرمز ملك الفرس وكتب: **«بسم الله الرحمن الرحيم» من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى، آمن بالله ورسوله ﷺ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ، فإنى أدعوك بدعاية الله، فإنى رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم وإن وإن أبيت، فإن إثم المجوسية عليك»** .

فلما قرأ كتاب رسول الله ﷺ شققه وقال: يكتب إلىَّ بهذا الكتاب وهو عبدى؟

قلت: وسبب قول كسرى هذا واستعلائه: أن الحبشة كانوا قد ملكوا اليمن، وملكهم سار إلى مكة بالفيل ليخرب البيت وكانوا نصارى، فأرسل الله عليهم من ناحية البحر طيرًا أبابيل، وهى جماعات فى تفرقة، تحمل حجارة من طين، فألقتها على الحبشة النصارى فأهلكتهم، وكان هذا آية عظيمة خضعت بها الأمم للبيت وجيران البيت، وعلم العقلاء أن هذا لم يكن نصرًا من الله لمشركى العرب، فإن دين النصارى خير من دينهم، وإنما كان نصرًا للبيت وللأمة المسلمة التى تعظمه وللنبى المبعوث من البيت، وكان ذلك عام مولد النبى ﷺ فأنزل الله فى ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل]

ثم إن سيف بن ذى يزن ذهب إلى كسرى، وطلب منه جيشًا يغزو به الحبشة ،فأرسل معه عسكرًا من الفرس المجوس، فأخرجوا الحبشة من اليمن، وصارت اليمن بيد العرب، وبها نائب كسرى، وسيف بن ذى يزن هذا ممن بشر بالنبى ﷺ قبل ظهوره، وأخبر بذلك جده عبد المطلب لما وفد عليه.

فلما كانت اليمن مطيعة لكسرى، لهذا أرسل إلى نائبه باليمن أن يأتيه بالنبى ﷺ؛ لأن عسكر اليمن فى العادة يقهر أهل مكة والمدينة. قال ابن إسحاق: فبلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «مزق الله ملكه» حين بلغه أن شقق كتابه.

ثم كتب إلى بأذان، وهو على اليمن أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز من عندك رجلين جلدين فليأتيانى به. قال: فبعث باذان قهرمانه، وهو بانويه. قال غيره: فيروز الديلمى -وكان حاسبًا كاتبًا- وبعث معه برجل من الفرس، وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى وقال لبانويه: ويلك انظر ما الرجل كلمه وائتنى بخبره.

قال: فخرجا حتى قدما إلى الطائف، فسألا عن النبى ﷺ قالوا: هو بالمدينة واستبشروا -يعنى الكفار- وقالوا: قد نصب له كسرى كفيتم الرجل، فخرجا حتى قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فكلمه بانويه، فقال: إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثنى إليك فانطلق معى، فإن فعلت كتبت معك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به، وإن أبيت فهو من قد علمت وهم فهلكك ومهلك قومك ومخرب بلادك، **وكانا قد دخلا على رسول الله ﷺ، وقال لهما: «ويلكما من أمركما بهذا؟ قالا: أمرنا بهذا ربنا -يعنينان كسرى- فقال لهما رسول الله ﷺ: لكن ربى عز وجل أمرنى بإعفاء لحيتى وبقص شاربى ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتيانى الغد».**

قال: وجاء الخبر من السماء، أن الله عز وجل سلط على كسرى ولده شيرويه، فقتله فى شهر كذا، فى ليلة كذا، فى ساعة كذا؛ فلما أتيا رسول الله ﷺ قال لهما: **«إن ربى قتل ربكما ليلة كذا، فى شهر كذا، بعد ما مضى من الليل كذا، سلط عليه ابنه شيرويه فقتله،** فقالا له: هل تدرى ما تقول؟ إنا قد نقمنا منك ما هو أيسر من هذا فنكتب بهذا عنك، ونخبر الملك به. قال: **نعم،** أخبراه ذلك عنى وقولا له: إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى، وينتهى إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يديك، وملكتك على قومك من الأبناء»، وأعطى رفيقه منطقة من ذهب وفضة، كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر.

فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإنى لأرى الرجل نبيًا كما يقول، ولننظرن ما قد قال، فلئن كان ما قد قال حقًا ما بقى فيه كلام إنه لنبى

مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأينا، فلم يلبث باذان أن قدم عليه كتاب شيرويه: أما بعد، فإنى قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبًا لفارس لما كان قد استحل من قتل أشرافهم وتجهيزهم فى بعوثهم، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب إليك فيه، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه. فلما انتهى الكتابُ -كتاب شيرويه- إلى باذان قال: إن هذا الرجل لرسول الله، وأسلم لله وأسلمت أبناء فارس من كان منهم باليمن.

وقال أبو معشر: حدثنى المقبر، قال: جاء فيروز الديلمى إلى رسول الله ﷺ فقال إن: كسرى كتب إلى باذان: بلغنى أن فى أرضك رجلا تنبأ تنبؤاً فاربطه وابعث به إلىَّ، فقال له رسول الله ﷺ: **«إن ربى غضب على ربك فقتله فدمه بنحره سخن الساعة»** فخرج من عنده فسمع الخبر فأسلم وحسن إسلامه، وكان رجلا صالحًا له فى الإسلام آثار جميلة منها: **قتل الأسود العنسى الكذاب**، الذى ادعى النبوة على عهد رسول الله ﷺ وكان الأسود جبارًا، استدعى بأبى مسلم الخولانى فقال له: **أتشهد أنى رسول الله؟** فقال أبو مسلم: ما أسمع، فقال له: **أتشهد أن محمداً رسول الله؟** قال: نعم، فردد ذلك عليه مرارًا فأمر بنار عظيمة فأضرمت، ثم أمر بإلقاء أبى مسلم فيها فلم تضره، فأخمدها الله تعالى حين ألقى فيها، فقيل له: أخرج هذا عنك من أرضك لئلا يفسد عليك أتباعك» فأخرجه.

فقدم أبو مسلم المدينة وقد توفى رسول الله ﷺ، واستخلف أبو بكر، فأناخ راحلته بباب المسجد، ثم دخل المسجد فقام يصلى إلى سارية فبصر به عمر فقام إليه، ممن الرجل؟ قال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الذى حرقه الكذاب؟ قال: ذلك عبد الله بن ثوب. قال: نشدتك بالله أنت هو؟ قال:



اللهم نعم، فاعتنقه ثم بكى، ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبى بكر، فقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ من فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الرحمن، ثم خرج فيروز الديلمى على الأسود العنسى فقتله، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ بقتله وهو فى مرض موته، فخرج فأخبر أصحابه بذلك، وقال: «**قتل الأسود العنسى الليلة قتله رجل صالح من قوم صالحين**» وقصته مشهورة، وكذلك قصة مسيلمة الكذاب، ونحوهما من المتنبئين الكذابين.

فصل

ولما فتح خلفاء النبى ﷺ: عمر وعثمان العراق وخراسان ضربوا الجزية على المجوس، كما ضربوها على النصارى بعد أن دعوهم إلى الإسلام، وفى السفر الخامس قول موسى لبنى إسرائيل: (لا تهابوهم ولا تخافوهم، لأن الله ربكم السائر بين أيديكم، وهو يحارب عنكم).

وفى موضع آخر قال موسى: (إن الشعب هو شعبك، فقال: يا موسى أنا أمضى أمامك فارتحل، فقال: إن لم تمض أنت معنا وإلا فلا تصعدنا من ههبنا، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أنى وجدت أمامك نعمة، كذا بعلمك إلا بسيرك معنا).

وفى المزمور الرابع من الزبور عندهم يقول: (وليفرح المتكلون عليك إلى الأبد ويبتهجون ويحل فيهم ويفتخرون) فأخبر أنه يحل فى جميع الصديقين أى معرفته ومحبته فإنهم متفقون على أن ذات الله لم تحل فى الصديقين، وكذلك فى رسائل يوحنا الإنجيلى: (إذا أخفا بعضنا بعضًا نعلم أن الله يلبث فينا)، أى محبته ونظائره كثيرة.

فيما يوافق فيه المسلمون النصارى

قالوا: وقال «عاموص» النبى: (ستشرق الشمس على الأرض، ويهتدى بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل)، قالوا: فالشمس هو السيد المسيح، والضالون الذين اهتدوا به هم النصارى المختلفة ألسنتهم، الذين كانوا من قبله عابدين الأصنام وضالين عن معرفة الله، فلما أتوهم التلاميذ وأنذروهم بما أوصاهم السيد المسيح فتركوا عبادة الأصنام واهتدوا باتباعهم السيد المسيح.

فيقال هذا مما لا ينازع فيه المسلمون وإنما ينازع فى مثل هذا وأمثاله اليهود المكذبون للمسيح عليه السلام، كما ينازع كفار أهل الكتاب فى محمد ﷺ.

وأما المسلمون فيؤمنون بجميع كتب الله ورسله، وأن المسيح عليه الصلاة والسلام أشرق نوره على الأرض! كما أشرق قبله نور موسى عليه الصلاة والسلام، وأشرق بعده نور محمد ﷺ.

وقد قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

فسماه الله سراجًا منيرًا وسمى الشمس سراجًا وهاجًا، والسراج المنير أكمل من السراج الوهاج فإن الوهاج له حرارة تؤذى، والمنير يهتدى بنوره من غير أذى بوهجه.

وقال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ**



وَلَكِن جعلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

والمسلمون مقرون بأن كل من كان متبعًا لدين المسيح عليه السلام الذي لم يغير ولم يُبدل فإنه اهتدى بالمسيح من الضلالة ومن كفر به من بني إسرائيل، فإنه ضال، بل كافر كما قال تعالى: **﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** [آل عمران: ٥٥-٥٧].

وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾** [الصف: ١٤].

وقوله: (ستشرق الشمس على الأرض ويهتدي بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل)، يناسب قوله في التوراة: (جاء الرب من طور سينا، وأشرق من ساعير، **واستعلن من جبال فاران**)، فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سينا: هو ظهور نوره بموسى، واستعلائه من **جبال فاران هو ظهور نوره بمحمد** ﷺ.

وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله في القرآن بقوله: **﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾** [التين ١ ٣]. **فبلد التين والزيتون هي**

الأرض المقدسة التى بعث منها المسيح، وكان بهـا أنبياء بنى إسرائيل، **وأسرى بمحمد ﷺ إليها وظهرت بها نبوته**، وطور سنين المكان الذى كلم الله فيه موسى بن عمران، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة التى بعث الله منه محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن.

فى شهادة الرب

قالوا: وقال فى السفر الثـالث من أسفار الملوك: (والآن يارب إله إسرائيل لتحـقق كلامك لـداود، لأنه حق أن يكون، إنه سيـسكن الله مع الناس على الأرض، اسمـعوا أيتهـا الشعـوب كلكم، ولتنصت الأرض، وكل من فيـها فيكون الرب عليها شاهداً من بيتـه القدوس، ويخرج من موضعه وينزل ويطأ على مشاريق الأرض فى شأن خطيئة بنى يعقوب هذا كله).

فيـقال هذا السفر يـحتاج إلى أن يثبت أن الذى تـكلم به نبى، وأن ألفاظه ضبطت وترجمت إلى العربـية ترجمة مطابقة، ثم بعد ذلك يقال فـيه ما يقال فى أمثاله من الألفاظ الموجودة عندهم، وليس فيها ما يدل على اتحاده بالمسيح فإن قوله: (إن الله سيسكن مع الناس فى الأرض) **لا يدل على المسيح**، إذ كان المسـيح لـم يسكن مع الناس فى الأرض، بـل لما أظهـر الدعـوة لـم يبق فى الأرض إلا مدة قليلة، ولم يكن ساكنًا فى موضع معين، وقبل ذلك لم يظهر عنه شيء من دعوى النبوة فضلا عن الإلهية، ثم إنه بعد ذلك رفع إلى السماء فلم يسكن مع الناس فى الأرض، وأيضًا فإذا قالوا كونه هو ظهوره فى المسيح عليه السـلام قيل لهُمَ: أما الظهور الممكن المعـقول، كظهور معـرفته ومحـبته ونوره، وذكره وعبادته، فهذا لا فرق فيه بين المسيح وغيره.

وحينئذ فليس فى هذا اللفظ ما يدل على أن هذا السكون كان بالمسيح دون غيـره، وإن كان بالمسـيح فليس هذا من خصـائصه عليه الـسلام، وليس فى ظهوره فيه أو حلوله معرفته ومَحبته ومثاله العلمى ما يوجب اتحاد ذاته به.



وأما قوله: (فيكون الرب عليها شاهدًا)، فيقال أولاً شهود الله على عباده لا يستلزم حلوله، أو اتحاده ببعض مخلوقاته، بل هو شهيد على العباد بأعمالهم كما قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

ولفظ النص: (ولتنصت الأرض، وكل من فيها فيكون الرب عليها شاهدًا)، وهذا كما في التوراة: إن موسى لما خاطب بني إسرائيل أشهد عليهم، وكذلك محمد ﷺ كان يقول لأمته لما بلغ الناس يقول: «ألا هل بلغت؟ فيقولون: نعم، فيقول اللهم اشهد».

وحينئذ فليس في هذا تعرض لكون المسيح هو الله، وقد يقال أيضًا: ليس فيه أن المراد بلفظ الرب هنا هو الله، ولفظ الرب يراد به السيد المطاع، وقد غاير بين اللفظين، فقال: هناك إنه سيسكن الله مع الناس، فقال: فيكون الرب عليها شاهدًا، والأنبياء يشهدون على أممهم، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

فصل في دعوى النصارى أنهم هم المعنيون بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]

ثم قالوا: مع الأمر له في فاتحة الكتاب أن يسأل الهداية إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فإنه عنى بقوله المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين الثلاث أمم الذين كانوا في عصره، وهم النصارى واليهود وعباد الأصنام، ولم يكن في زمانه غير هؤلاء الثلاث أمم.

فالمنعم عليهم نحن النصارى والمغضوب عليهم -فلا يشك- أنهم اليهود

والذين غضب الله عليهم فى كتب التوراة والأنبياء وهذا الكتاب، والضالين فهم عباد الأصنام الذين ضلوا عن الله، فهذا أمر واضح بين ظاهر عند كل أحد ولاسيما عند ذوى العقول والمعرفة، والصراط: هو المذهب، أى الطريق، وهذه اللفظة رومية لأن الطريق بالرومية أسطراطًا.

والجواب: أما قولهم: المنعم عليهم نحن النصارى، فمن العجائب التى تدل على فرط صاحبها، وأعجب من ذلك قولهم إن هذا شىء بين واضح عند كل أحد، لاسيما عند ذوى العقل والمعرفة، فيا سبحان الله! ألم يعرف العام والخاص علمًا لا تمكن المنازعة فيه من دين محمد ﷺ ودين أمته الذى تلقوه عنه من تكفير النصارى وتجهيلهم وتضليلهم واستحلال جهادهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم ما يناقض كل المناقضة أن يكون محمد ﷺ وأمته فى كل صلاة يقولون: اللهم اهدنا صراط النصارى، وهل ينسب محمداً ﷺ وأمته إلى أنهم فى كل صلاة يطلبون من الله أن يهديهم صراط النصارى إلا من هو من أكذب الكذابين وأعظم الخلق افتراء ووقاحة وجهلاً وضلالاً؟ ولو كانوا يسألون الله هداية طريق النصارى لدخلوا فى دين النصارى، ولم يكفروهم ويقاتلوهم، ويضعوا عليهم الجزية التى يؤدونها عن يد وهم صاغرون، ولم يشهدوا عليهم بأنهم من أهل النار، وأمته أخذوا ذلك جميعه عنه منقولاً عنه بالنقل المتواتر بإجماعهم لم يبتدعوا ذلك، كما ابتدعت النصارى من العقائد والشرائع ما لم يأذن به الله، فلا يلام المسلمون فى اتباعهم لرسول الله ﷺ الذى جاء بالبينات والهدى.

ومحمد ﷺ إن كان رسولاً صادقًا، فقد كفر النصارى، وأمر بجهادهم، وتبرأ من دينهم، وإن كان كاذبًا لم يقبل شىء مما نقله عن الله عز وجل.

وقد تقدم غير مرة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾

[المائدة: ٧٣]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١].

فمن يقول عن النصارى مثل هذه الأقوال هل يأمر أمته فى كل صلاة أن يقولوا: اهدنا طريقهم؟ ثم يقال: أى شىء فى الآية مما يدل على قوله صراط الذين أنعمت عليهم هم النصارى.

وإنما المنعم عليهم هم الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فهؤلاء الذين أمر الله عباده أن يسألوا هداية صراطهم.

وأما النصارى الذين كانوا على دين المسيح قبل النسخ والتبديل فهم من المنعم عليهم، كما أن اليهود الذين كانوا على دين موسى قبل النسخ والتبديل كانوا من المنعم عليهم، وأما النصارى بعد النسخ والتبديل فهم من الضالين، لا من المنعم عليهم عند الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وعباد الأصنام من الضالين المغضوب عليهم، وقد قال النبى ﷺ: «**اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون**» رواه الإمام أحمد والترمذى عن عدى بن حاتم عن النبى ﷺ.

وقال الترمذى هذا حديث صحيح، وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحق ولا يعلمون، والنصارى يعبدون بلا علم، وقد وصف الله اليهود بأعمال، والنصارى بأعمال فوصف **اليهود بالكبر والبخل والجبن والقسوة وكتمان العلم وسلوك الغى وهو سبيل الشهوات والعدوان**. وذكر عن **النصارى الغلو والبدع فى العبادات والشرك والضلاك واستحلال محارم الله**، فقال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا**﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٣].

وقال: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾ [الحديد: ٢٧].

أى لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله لم نكتب عليهم الرهبانية، بل هم ابتدعوها مع ابتداعهم وإياها فما رعوها حق رعايتها، وكل بدعة ضلالة فهم مذمومون على ابتداع الرهبانية وعلى أنهم لم يرعوها حق رعايتها.

فأما ما كتب عليهم من ابتغاء رضوان الله فيحصل بفعل ما شرعه لهم من واجب ومستحب فإن ذلك هو الذى يرضاه، ومن فعل ما يرضاه الله فقد فعل ما كتب عليه، ويحصل رضوان الله أيضًا بمجرد فعل الواجبات وهذا هو الذى كتب على العباد، فإذا لم يكتب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كان ابتغاء رضوانه واجبًا، فما ليس بواجب لا يشترط فى حصول ما كتب عليهم.

ولهذا ضعف أحمد بن حنبل وغيره الحديث المروى: «**أول الوقت رضوان الله وآخره عفو الله**» فإن من صلى فى آخر الوقت كما أمر فقد فعل الواجب وبذلك يرضى الله عنه، وإن كان فعل المستحبات والمسابقة إلى الطاعات أبلغ فى إرضاء الله عنه ويحصل بذلك من رضوان الله ومحبته ما لا يحصل بمجرد الواجبات.

كما قال موسى عليه السلام: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ**﴾ [طه: ٨٤] وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى من عادى لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع، وبى يبصر، وبى يبطش، وبى يمشى، فلئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولابُد له منه**». فقوله حتى أحبه: يريد المحبة المطلقة الكاملة.

وأما أصل المحبة: فهى حاصلة بفعل الواجبات، فإن الله يحب المتقين.

وقال تعالى فيهم: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

وهو سبحانه خاطب النصارى بهذا لأن النصارى يعتمدون فى دينهم على ما يقوله كبراؤهم الذين وضعوا القوانين والنواميس ويسوغون لأكابرهم الذين صار عندهم عظماء فى الدين أن يصنعوا لهم شريعة وينسخوا بعض ما كانوا عليه قبل ذلك لا يردون ما يتنازعون فيه من دينهم إلى الله ورسله بحيث لا يمكنون أحدًا من الخروج عن كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل وعن اتباع ما جاء به المسيح، ومن قبله من الأنبياء عليهم السلام.

ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، بل ما وضعه لهم أكابرهم من القوانين الدينية والنواميس الشرعية بعضها ينقلونه عن الأنبياء وبعضها عن الحواريين وكثير من ذلك ليس منقولاً، لا عن الأنبياء ولا عن الحواريين، بل من وضع أكابرهم وابتداعهم، كما ابتدعوا لهم الأمانة التى هى أصل عقيدتهم وابتدعوا لهم الصلاة إلى الشرق، وابتدعوا لهم تحليل لحم الخنزير وسائر المحرمات، وابتدعوا لهم الصوم وقت الربيع وجعلوه خمسين يومًا، وابتدعوا لهم أعيادهم كعيد الصليب وغيره من الإعياد.

وكذلك قال النبى ﷺ لعدى بن حاتم لما سمعه يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فقال: لم يعبدوهم فقال له النبى ﷺ: «إنهم أحلوا الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم».



ولهذا قال تعالى ﴿ورهْبانيَّةً ابْتدعُوها ما كتبْناها عليْهمْ إلاَّ ابْتغاء رِضْوانِ اللَّه فما رعوْها حقَّ رعايتها﴾ [الحديد: ٢٧].

فإنهم يتبعون أهواء أكابـرهم الذين مضوا من قبلهم أولئك ضلوا من قبل هؤلاء وأضلوا أتباعهم وهم كثيـرون، وضلوا عن سواء السبيل، وهو وسط السبيل، وهو الصراط المستقيم، فـإذا كانوا هم وأتباعهم ضالين عن الصراط المستـقيم، فكيف يجـوز أن يأمر الله عـباده أن يهديهم الصـراط المستـقيم، ويعنى به صراط هؤلاء الضـالين المضلين، الضالين عن سواء السـبيل، وهو الصراط المستقيم.

وقد قـال سبـحانه: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ﴾ هؤلاء لأن أصل ابتـداعهم هذه البدعة كان من هَوى أنفسهم مع ظن كاذب، فكانوا ممن قيل فيهم: ﴿يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]. وممن قيل فـيه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وسبب ذلك أن المسيح ﷺ لما رفع إلى السماء وعـاداه اليهود وعادوا أتباعه عداوة شـديدة، وبالغـوا فى أذاهم وإذلالهم وطلب قتلهم ونفـيهم صـار فى قلوبهم من بغض اليهود، وطلب الانتقـام منهم ما لا يوصف، فلما صار لهم دولة وملك مثل ما صار لهم فى دولة قسطنطين صـاروا يريدون مقابلة اليهود كمـا جرت العـادة فى مثل ذلك بين الطوائف المتـقابلة المتنازعـين فى الملك، والمتنازعين فـى البدع كالخـوارج والروافض والجبرية مع القـدرية والمعطلة مع الممثلة وكـالدولتين المتنازعتـين على الملك والأهواء بمنزلة قيس ويمن وأمـثال ذلك إذا ظهرت طائفة على الأخـرى بعدما آذتها الأخرى وانتـقمت منها تريد أن تأخذ بثأرها، ولا تقف عند حد العدل، بل تعـتدى على تلك كما اعتدت

تلك عليها، فصار النصارى يريدون مناقضة اليهود فأحلوا ما يحرمه اليهود كالخنزير وغيره، وصاروا يمتحنون من دخل فى دينهم يأكل الخنزير فإن أكله وإلا لم يجعلوه نصرانيًا.

وتركوا الختان وقالوا: إن المعموديه عوض عنه وصلوا إلى قبلة غير قبلة اليهود، وكان اليهود قد أسرفوا فى المسيح وزعموا أنه ولد زنا، وأنه كذاب ساحر فغلوا هؤلاء فى تعظيم المسيح، وقالوا: إنه الله وابن الله وأمثال ذلك، وصار من يطلب أن يقول فيه القول العدل مثل كثير من علمائهم وعبادهم، يجمعون لهم مجمعًا ويلعنونه فيه على وجه التعصب، واتباع الهوى، والغلو فيمن يعظمونه كما يجرى مثل ذلك لأهل الأهواء كالغلاة فى بعض المشايخ، وبعض أهل البيت، وبعض العلماء، وبعض الملوك، وبعض القبائل، وبعض المذاهب، وبعض الطرائق، فإنما كان مصدر ضلالهم أهواء نفوسهم، قال تعالى للنصارى الذين كانوا فى وقت النبى ﷺ، ومن بعدهم: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾. وأما قولهم إن الصراط هو المذهب، أى الطريق، وهذه لفظة رومية لأن الطريق بالرومية أسطراطًا.

فيقال لهم: الصراط فى لغة العرب: هو الطريق. يقال: هو الطريق الواضح، ويقال: هو الطريق المحدود بجانبين الذى لا يخرج عنه، ومنه الصراط المنصوب على جهنم، وهو الجسر الذى يعبر عليه المؤمنون إلى الجنة وإذا عبر عليه الكفار سقطوا فى جهنم، ويقال فيه معنى الاستواء الاعتدال الذى يوجب سرعة العبور عليه، وفيه ثلاث لغات، هى ثلاث قراءات: الصراط، والسراط، والزراط، وهى لغة عربية عرباء ليست من المعرب، ولا مأخوذة من لغة الروم كما زعموا.



ويقال أصله من قولهم سرطت الشيء أسرطة الشيء أسرطة إذا ابتلعته واسترطته ابتلعته، فإن المبتلع يجري بسرعة في مجرى محدود.

ومن أمثال العرب: لا تكن حلوا فتسترط ولا مرًا فتعفى، من قولهم الشيء، إذا أزلته من فيك لمرارته ويقال فلان يسترط ما يأخذ من الدين.

وحكى يعقوب بن السكيت، الأخذ: سريط، والقضا: صريط، والسرطاط: الفالوذج، لأنه يسترط استراطًا وسيف سراطي أي قاطع فإنه ماض سريع المذهب في مضربه.

فالصراط: هو الطريق المحدود المعتدل الذي يصل سالكه إلى مطلوبه بسرعة وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع ولم يسم الله سبل الشيطان سراطًا بل سماها سبلا وخص طريقه باسم الصراط، كقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي السنن عن عبد الله بن مسعود قال: «خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وخط خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، من أجابه قذفه في النار، ثم قرأ ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾.

وقال تعالى عن موسى وهارون: ﴿**وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨]. وقال تعالى ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا**﴾ [الفتح: ١- ٣]. وهذه الهداية الخاصة التي أعطاها إياها بعد فتح الحديبية أخص مما تقدم فإن

السالك إلى الله لا يزال يتقرب إليه بشىء بعد شىء، ويزيده الله هدى بعد هدى، وأقوم الطريق وأكملها الطريق التى بعث الله بها نبيه محمداً ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فى بطلان ما قاله النصارى فى المسيح (شهادة أحد علمائهم بعد إسلامه)

قال الحسن بن أيوب: المهتدى للإسلام ومثل هذا أنه لما خاطبه الرجل على ما كتب فى الإنجيل فقال: أيها الخير، فقال ليس الخير إلا الله وحده، قلت: وبعضهم يترجمه أيها الصالح فقال: ليس الصالح إلا الله وحده، قال: ومثله قوله فى الإنجيل [**إنى لم آت لأعمل بمشيئتى لكن بمشيئة من أرسلنى**] قال: ولو كانت له مشيئة لاهوتية كما يقولون: لما قال هذا القول فقد أبطل به ما تدعونه فى ذلك، قال: ثم أنتم مع ذلك تدعون أن المسيح كلمة الله، ومن قوة الله غير بائنة ولا متصلة عنه، وتشهدون عليه فى الإنجيل بقوله: إنه يصعد السماء، ويجلس عن يمين أبيه، ويدين الناس يوم القيامة، ويجازيهم بأعمالهم، ويتولى الحكم بينهم وأن الله عز وجل منحه ذلك إذ كان لا يراه أحد من خلقه فى الدنيا ولا فى الآخرة، فإن كان هذا الجالس للحكومة بين العالمين يوم الدين والقاعد عن يمين أبيه هو شخص قائم بذاته لا يشك فيه هو الجسد الذى كان فى الأرض المتوحد به شخصين متباينين أحدهما عن يمين صاحبه، وهذا كفر وشرك بالله عز وجل، وإن كان جسداً خالياً من الإلهية، وهى الكلمة، وقد عادت إلى الله كما بدت منه فقد زال عنه حكم الربوبية التى تنتحلونه إياها.

قال: ونسألكم عن واحدة نحب أن تخبرونا بها أصل ما وضعتموه من



عبادة الثلاثة الأقانيم التى ترجع بزعمكم إلى جوهر واحد، وهو اللاهوت ما هو؟ ومن أين أخذتموه؟ ومن أين أمركم به؟ وفى أى كتاب نزل؟ وأى نبى تنبأ به، أو أى قول للمسيح تدعونه فيه؟ وهل بنيتم أمركم فى ذلك إلا على قول «متى» التلميذ عن المسيح عليه السلام أنه قال لتلاميذه حيث أراد أن يفارقهم [اذهبوا فعمدوا الناس باسم الأب والإبن وروح القدس].

قال: وهذا كلام يحتمل معناه -إن كان صحيحًا- أن يكون ذهب فيه بأن يجمع هذه الألفاظ إلى أن تجتمع لهم بركات الله وبركة نبيه المسيح وروح القدس التى يؤيد بها الأنبياء والرسل، وقد نراكم إذا أردتم الدعاء بعضكم لبعض قلتم صلاة فلان القديس تكون معك، ومعنى الصلاة الدعاء، واسم فلان النبى يعينك على أمورك.

وكما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩] يقرن طاعته بطاعة نبيه وأولى الأمر من المسلمين، أفنقول فلذلك إنهم جميعًا آلهة؟

قال: وقد يجوز أن يكون له معنى يدق عن الوقوف عليه بغير التأويل، إن لم يكن معناه ما قلناه، أو يكون المسيح عليه السلام ذهب فيه إلى ما هو أعلم به، فلم حكم بأنه ذهب إلى أن هذه الأسماء لما أضافها إلى الله صارت آلهة، وجعلتم لها أقانيم لكل اسم أقنوم بعينه، وهو شخص، وكيف استجزتم ما أشركتموه مع الله بالتأويل الذى لا يصح.

وإذا قلتم بثلاثة أقانيم كل أقنوم بذاته، فلا بد أن تعترضوا ضرورة بأن كل أقنوم منها سميع حى بصير عالم حكيم منفرد بذاته، كما يقولون فى المسيح: إنه جالس عن يمين أبيه فتراكم أخذتم الأقنومين اللذين أحدثتموهما مع الله من جهة أن الله حكيم حى فحكمته الكلمة وهى المسيح وروحه وروح

القدس، و هذه صفة من صفات الله مثلها كثير، لأنه يقال حكيم عليم سميع بصير حى قدير.

وكـذا ربنا تعالى وإن كـانت صـفاتنا إياه لا تلحـق صفـاته، ولا تبلغ كنه مجده إلا بالتمثيل لعظمته وعزته وجلاله وعلوهِ فنحلتم صفاته التى هى معناه وليست سـواه غيره وجعلـتموه أقانيم لكل واحـد من الحياة والحكمـة وسائر الصفات مثل الذى له، وما فيها أقنوم له صفة إلا ويحتمل على قياس قولكم أن تكونوا صفته مثله، فإذا كانت هذه الأقانيم آلهة، وكل صفة إله، وهى من جوهره فيـجب أن تكون كل صفة لكل واحد من الثلاثة الأقـاليم إلهًا مثله إذ كان من جوهره فيتسع الأمر فى ذلك حتى لا يكون له غاية ولا نهاية.

قال: وإذا قلتم بثلاثة أقاليم هى فى السـماء من جوهر قديم أفليس يلزمكم الإقرار بثلاثة آلهـة، لأن الأقانيم أشخاص يوماُ إليها، ويقـع الحد عليها، وإلا فما الحجة وأنتم تذكرون فى بعض احتجاجكم أنها ثلاثة ترجح إلى واحد غير متبعضة ولا منفصلة وتشبهونها فى اجـتماعها وظهور ما يظهر منها بالشمس، وقد نراكم عقدتم شريعة إيمانكم على **أن المسيح إله وإنسان متحدين وأنه يصعد إلى السـمـاء ويجلس عن يمـين أبيـه**، والجـالس عن يمين صـاحبـه أليس هو منفصلا عنه مفروزًا عنه؟ فكيف يصح على هذا القول قياس، أو يصح به عقد دين؟ تقولون مرة مجتمع، ومرة منفصل، ومـا شبهتموه به من الشمس، فقد تقدم شرحنا لبطلانِ الحجة فيه، وأنه لا يكون قياسه القياس الذى تعلقتم به.

على أنا وجدناكم تقولون فى معنى التثليث: إن الذى دعاكم إليه ما ذكرتم أن «متى» التلميذ حكاه فى الإِنجيـل عن المسيح عليه السلام، **إذ قال لتلاميذه: (سـيـروا فى البـلاد، وعـمـدوا الناس باسم الأب والإبن والروح القـدس)** وأنكم فكرتم فى هذا القول بعـقولكم فعلمـتم أن المراد بذلك أنه لما أن ثبت حدوث



العالم علمتم أن له محدثا فتوهمتموه شيئًا موجودًا، ثم توهمتموه حيًا ناطقًا لأن الشيء ينقسم لحي، ولا حي، والحي ينقسم لناطق، ولا ناطق.

وأنكم علمتم بذلك أنه شيء حي ناطق فأثبتم له حياة ونطقًا غيره في الشخص وهما في الجوهرية.

فنقول لكم في ذلك: إذا كان الحي له حياة ونطق فأخبرونا عنه أتقولون إنه قادر عزيز أم عاجز ذليل؟

فإن قلتم: لا بل قادر عزيز، قلنا: فأثبتوا له قدرة وعزة كما أثبتم له حياة وحكمة.

فإن قلتم: لا يلزمنا ذلك لأنه قادر بنفسه عزيز بنفسه، قلنا لكم: وكذلك، فقولوا: إنه حي بنفسه، وناطق بنفسه، ولابد لكم مع ذلك من إبطال التثليث أو إبطال التخميس، وإلا فما الفرق، وهيهات من فرق.

وقال الحسن بن أيوب أيضًا: إنا كلما تأملنا معكم في نسبة المسيح عليه السلام إلى الإلهية وعبادتكم له مع الله على الجهة التي تذهبون إليها وطلبنا لكم الحجة في ذلك من كتبكم، ازددنا بصيرة في استحالة ذلك، ووضعكم له من القول ما لا يثبت لكم به حجة ولا يشهد به لكم شيء من كتبكم، ووجدنا أبين ما جاء في المسيح وصحة أمره فيما أتى ما قال «متى» التلميذ (إنه لما جاء يسوع إلى أرض قيسارية سأل تلاميذه فقال: ماذا يقول الناس في أني ابن البشر؟ فقالوا: منهم من يقول: إنك يوحنا المعمداني، وآخرون يقولون: إنك أرميا أو أحد الأنبياء).

(فقال لهم يسوع: فأنتم ماذا تقولون؟ فأجابه سمعان الصفا وهو رئيسهم فقال: أنت المسيح ابن الله الحق فأجابه المسيح، وقال: طوبى لك يا سمعان ابن يونان إنه لم يطلعك على هذا لحم ولا دم، ولكن أبي الذي في السماء).

وحكى لوقا فى إنجيله هذا الخبر فقال: إن سمعان أجابه فقال: **(أنت مسيح الله)** ولم يقل ابن الله فهذا كلام تلميذه الرئيس فيه وأرضاه ما قال.

وقوله: إنه لم ينطق بذلك إلا ما أوحاه الله فى قلبه ولم ندفعكم قط عن أنه مسيح الله، ولا عن أنه كما تقولون فى لغتكم إنه ابن الله بالرحمة الصفوة مع الاختلاف الواقع فى ذلك فى الإنجيلين، وقدُ قال: مثل ذلك فيكم جميعًا (إن الله إلهى وإلهكم وأبى وأبوكم) فتعمل على احتجاجكم بأنه ليس مثلكم فى معنى النبوة ونجعله مثل من سمى فى الكتب إبنا على جهة الاصطفاء والمحبة مثل إسرائيل وغيره بل قد خص إسرائيل بأن قال عز وجل: (أنت إبنى بكرى). وهذا كلام له مذهب فى اللغة القديمة التى جاءت بها الكتب، وليست بموجبة الإلهية إذ كان قد شاركه فى هذا الاسم غيره فلم لاجعلتموه كما جعل نفسه؟

ومما يؤكد المعنى فى ذلك ويزيل تأويل من يتأول له ما لم يدعه ولم يرض به قوله فى علم الساعة: (إن ذلك شىء لا يعلمه أحد من الخلق ولا الملائكة المقربون ولا الإبن -يعنى نفسه- إلا الأب وحده)، ثم قال للرجل الذى أتاه فقال له: (أيها العالم الصالح، أى الأعمال خير لى، الذى تكون لى حياة إلى يوم الدين؟ فقال له: لم تقل لى صالحًا، ليس الصالح إلا الله وحده) فاعترف لله بأنه واحد لا شريك له، ونفى عن نفسه فلم يجعلها -ولا أحد من الخلق- أهلا لذلك.

وقوله للمرأة التى جاءته فقالت: أنت ذلك النبى الذى كنا ننتظر مجيئه.

فقال لها المسيح **(صدقت طوبى لك)** ثم قال الشيطان حين اختبره فسامه أن يلقى نفسه من رأس الهيكل، فقال: أمرنا أن لا نجرب الرب ثم سامه أن يسجد له، فقال: **(أمرنا أن لا نسجد إلا لله وحده ولا نعبد سواه)** ثم صلاته فى



غيـر وقت لله، وآخرها الليلة التى أخـذته اليهود فـيها، فـإذا كان إلهًا كـما زعمتم فلمن كان يصلى ويسجد؟

ثم قول الجـموع الذين كـانوا معـه حين دخل أورشليم، وهى مـدينة بيت المقدس على الأتان لمن كان يسأله عن أمره لما راجت المدينة به: هذا هو يسوع الناصرى الـنبى الذى من الناصرة. ثم قـوله فى بعض الإنجيل: (اخـرجوا بنا من هذه المدينة فإن النبى لا يبجل فى مدينتـه)، وفى موضع آخر إنه قال: (لا يهان نبى إلا فى مدينته وفى بيته وأقاربه).

وقوله فى بعض خطبه (إن هذا الجـيل السوء يريد آية وأنه لا يعطى إلا آية يونس، كمـا كان يونس لأهل «نينوى» كذلك يكون ابن الـبشر لهـذا الجيل، رجال نينوى يقدمـون فى الدين مع هذا الجيل فيخصـمونهم لأنهم تابوا على قول يونس النبى، وإن هاهنا أفضل من يونس).

ثم قول داود فى نـبوته عليه: (من هـذا الرجل الذى ذكرته وجـعلته دون الملائكة قليلا) ثم قـول تلاميذه فـيه ما شرحناه فى صـدر كتابنا هذا مـا تقدم ووصفهم أنه رجل أتى من عند الله بالأيدى والقوة.

ومما يشبه ذلك أنه لما قدم تلاميذته فركبوا السفينة، وقال لهم: (امضوا فإنى ألحق بكم فأتاهم يمـشى على البحـر فلما رأوه فى تلك الحال قـالوا: ما هذا الحال ويح، ومن الغـرق صاحوا، فقـال لهم يسوع: اطمئنوا ولا تخـافوا أنا هو، فأجابه شمعـون الصفا، وقال له: يارب إن كنت أنت هو فأذن لى آتيك على الماء. فقـال له: تعالى فنزل سمعـان إلى الماء ليمشى عليـه، فلم يستطع وجعل يغرق، فصاح، وقال: يارب أغثنـى فبسط يده يسوع فأخذه، وقال له تشككت يا قليل الأمـانة؟) قال فـبان بذلك عـجز المسـيح عن إتمام ما سـأله شمعـون الصفا، ومثله أمر الرجل الذى قـال ليسوع خبر ابنتـه وما ينالها من

الشيطان، وأنه قد قدمها إلى تلاميذه، فلم يستطيعوا أن يخرجوه، وقد كان جعل لهم ذلك وغيره فأخرجه هو منها.

وقال فى الإنجيل، وهو يذكر الأمثال التى ضربها لرؤساء الكهنة إنهم سمعوها منه علموا أنها فى شأنهم، فهموا أن يأخذوه، ثم فرقوا من الجموع لأنها كانوا ينزلونه مثل النبى.

وقال فى الإنجيل؟ (لما جاءته أم ابنى زندا، وكالت من تلامذته مع ابنيها، فقال لها: ما تريدين؟ قالت: أريد أن تجلس ابناى أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك فى ملكوتك، فقال: ليس إلى ذلك سبيل، لأنه ليس لى أن أعطيه، ولكن من وعد له أبى).

قال الحسن بن أيوب: فما يكون يا هؤلاء أفصح وأبين وأوضح من اجتماع هذه الشواهد لكم فى كتبكم ما رضيتم بقوله فى نفسه، ولا بقول تلامذته فيه، ولا بقول من تنبأ عليه من الأنبياء، ولا قول جموعه الذين تولوه لمن سألهم من مخالفيهم عنه وتركتم ذلك كله، وأخذتم بآراء قوم تأولوا لكم على علمكم فإنهم قد اختلفوا أيضًا فى الرأى، فقال كل قوم فى المسيح ما اختاروا، واتبع كلامهم طائفة قالوا بقولهم ثم سلك من بعدهم سبيل الآباء فى الاقتداء بهم، فبينوا لنا حجتكم فى ذلك وهيهات من حجة، ونحن نستوهب الله العصمة والتوفيق منه.

قال: ومما يشبه بما تقدم قوله لتلاميذه فى إنجيل لوقا: (فأما أنتم الذين صبرتم معى فى بلائى ومخازىَّ، فإن أعدكم كما وعدنى أبى الملكوت لتأكلوا وتشربوا معى على مائدتى فى ملكوتى) فبين أن الله عز وجل ثناؤه وعده أن يجعله فى ملكوت السماء يأكل ويشرب مع تلاميذه على مائدته، وهذا ما لا شك لكم فيه وهو مخالف لقولكم فيما يصير إليه، وفى الأكل والشرب



والنعيم هناك، ثم قوله لشمعون حين أتته الجموع فأخذوه: (أم يظن أنى لست قادرًا أن أطلب إلى أبى فيقيم لى اثنى عشر جندًا من ملائكته أو أكثر، ولكن كيف يتم الكتب أنه هكذا ينبغى أن يكون)، ولم يقل: إنى قادر أن أدفعهم عن نفسى، ولا أبى آمر الملائكة أن يمنعوا عنى، كما يقول من له القدرة والأمر.

قال: ونجدكم تقولون فى المسيح عليه السلام: **إنه مولود من أبيه أزلى** ويجب على المدعى القول أن يثبت الحجة فيه، ويعلم أنه مطالب بإيضاحها لا سيما فى مثل هذا الخطب الجليل الذى لا يقع التلاعب به، ولا تجترىء النفوس على ركوب الشبهات فيه، والويل الطويل لمن تأول فى ذلك تأويلا لا حقيقة له، فإنه يهلك نفسه، ومن كان من الناس معه ممن يتبع قوله إن كان هذا الإبن أزليًا على ما فى شريعة إيمانكم، فليس بمولود، وإن كان مولودًا فليس بأزلى، لأن اسم الأزلية إنما يقع على من لا أول له ولا آخر.

ومعنى المولود أنه حادث مفعول، وكل مفعول فله أول، فكيف ما أردتم القول فيه كان بطلان الشريعة، قال: **ونسألكم أيضًا عن واحدة لم سميتم الأب أبًا، والإبن إبنًا،** فإنه إن كان وجب للأب اسم الأبوة لقدمه فالإبن أيضًا يستحق هذا الاسم بعينه إذ كان قديمًا مثله، وإن كان الأب عالمًا عزيزًا فهو أيضًا عالم عزيز تشهد له شريعة الإيمان له بذلك فى قولها إنه خلق الخلائق كلها، وأتقنت على يده وأنه نزل لخلاصكم، ومن قدر على ذلك لم يكن إلا عالمًا عزيزًا، فهذه المعانى التى ذكرناها تبطل اسم الأبوة والبنوة، وفى إبطالها بطلان الشريعة التى تقول ولد من أبيه، وإلا فإن كان الأب والإبن متكافئين فى القدم والقدرة، فأى فضل وسلطان للأب عليه أمره ونهاه فصار الأب باعثًا والإبن مبعوثًا والأب متبوعًا مطاعًا والإبن تابعًا مطيعًا.



ومما يشهد بصحة قولنا وبطلان ما تأوّله أولوكم فى عبودية المسيح أن «متى» **التلميذ حين بنى كتابه الإنجيل أول ما ابتدأ به أن قال كتاب مولد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم فنسبه إلى من كان منه على الصحة**، ولم يقل: إنه ابن الله، ولا إنه إله من إله، كما يقولون. فإن قلتم: إن تسمية يسوع للناسوت الذى قد جعلتموه حجة بينكم وبين كل من التمس الحِجة منكم عند الانقطاع فيما يعترف به المسيح من العبودية، فقد نسق متى اسم يسوع الذى هو عندكم اسم للناسوت المسيح الذى هو جامع الناسوت واللاهوت، فأى حجة فى إبطال هذا التأويل أوضح من هذا.

ومما يصحح قولنا ويؤكده قول جبريل الملك لمريم عند مخاطبته إياها إنه ابن داود على ما ثبت من ذلك فى الإنجيل، قال: ووجدنا كم قد ذكرتم فى شريعة الإيمان أن يسوع المسيح بكر الخلائق.

فإن كنتم ذهبتم فى ذلك إلى أنه على نحو ما يسمى أول ولد الرجل وكبيرهم فجائز. وهو محقق لقولنا فى عبوديته، وإن كنتم أردتم بذكر البكر أنه أول قديم. فلسنا نعرف للبكر معنى فى لغة من اللغات إلا للأكبر من الأخوة، والأول من الولد وبكر الخلائق لا يكون إلا من الخلائق.

كما أن بكر الرجل والمرأة لا يكون إلا من جنسهما، وباكورة الثمار لا يكون إلا ثمرة، ولأن من المحال أن يقول قائل بكر ولد آدم ملك من الملائكة، وكذلك من المحال أن يكون بكر المصنوعات ليس بمصنوع وبكر المخلوقات ليس بمخلوق.

وقد قال الله تعالى فى التوراة: (يا ابنى بكرى) أى إسرائيل، وقال فى آخر: (إنه نظر بنو الله إلى بنات الناس فشغفوا بهن)، فهل يوجب لآل إسرائيل الإلهية بهذا القول؟



قال: وقلتم: إن المسيح ولد من أبيه قبل العوالم، وليس بمصنوع فليس يخلو الأب من أن يكون أولد شيئًا موجودًا أو غير موجود. فإن كان لم يزل موجودًا فإن الأب لم يلد شيئًا. وإن كان غير موجود، وإنما هو حادث لم يكن فهو مخلوق كما قلنا. قال: ومما يبين قولنا فى خلق المسيح: إن هذا الإسم إنما وقع له، ولأنه مسح للنبوة والخير، وماسحه الله تبارك وتعالى، وقد قال داود فى زبوره قولا يشهد على ذلك بعينه: (**من أجل هذا البر مسحك الله إلهك أكثر مما مسح به نظراءك**)، فأبان داود بهذه الآية معنى المسح بإنجيله، وأن ماسحه الله إلهه، وأنه مصطفى مكرم بزيادة على نظرائه، وقال داود أيضًا فى مزمور إحدى وثلاثين يخاطب الله: (من أجل داود عبدك لا يغلب وجه مسيحك عهد الرب لداود بالحق، ولا يرجع عنه)، يعنى بمسيحه نفسه لأن الله مسحه للنبوة والملك، وقد قال فى مثل هذا فى غير موضع من زبوره (فسمى نفسه مسيح الله)، وإذا نظر فى الإنجيل.

وكتب «بولص» وغيره ممن يحتج به النصارى وجد نحواً من عشرين ألف آية مما فيه اسم المسيح، وكلها تنطق بعبودية المسيح، وأنه مبعوث مربوب، وأن الله اختصه بالكرامات، ما خلا آيات يسيرة مشكلات قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد، وتركوا المعظم الذى ينطق بعبوديته، فلو كانوا قصدوا الحق لردوا تلك المشكلات الشاذة اليسيرة التى يوجد لها من التأويل خلاف ما يتأولونه على الواضحات الكثيرة التى قد بانت بغير تأويل، لأنه إنما يجب أن يقاس الجزء على الكل، ويستدل على ما غاب بما حضر، وعلى ما أشكل بما ظهر، فمن تلك الآيات المشكلات ما قد ذكرناه فى كتابنا هذا وبينا معناه والحجة فيه، وإنه ليس كما تأولوه.

ومنها ما يحكمون عن المسيح أنه قال: «**أنا بأبى**»، وقد فسر المسيح عليه السلام ذلك، وكشفه قال: «يوحنا» فى إنجيله: إن المسيح تضرع إلى الله فى تلاميذه، وقال: «يا أيها الرب القدوس احفظهم باسمك الذى أعطيتنى ليكونوا هم أيضًا واحدًا، كما أنا شىء واحد، وكما أنك أرسلتنى إلى العالم، وكذلك أرسلهم أنا أيضًا، ثم قال بعدُ هذا أيضًا: إنى قد منحتهم من المجد الذى أعطيتنى ومنحتنى؛ ليكونوا أيضًا شيئًا واحدًا كما أنا شىء واحد، فأنا بهم،وأنت بى» قال: هو معنى ذلك أنه قال أنت لى كما أنا مع تلاميذى ولهم.

قلت: أو أراد إنك بى هديت الخلق وعلمتهم وأنا أهديهم وأعلمهم، والباء للسببية، فإن الله برسله هدى عباده وعلمهم، والرسل علموا الغائبين عنهم، فالحاضرين الذين بلغوا عنهم، وقوله ليكونوا شيئًا واحدًا: أراد به اتفاق صدقهم وأمرهم ومرادهم، وهذا مفسر، وقد قال: ليكونوا شيئًا واحدًا. كما أنا شىء واحد فقد طلب لهم مثل ما حصل له ولربه.

وهذا يبين أن قوله كما أنا شىء واحد أى أنا موافق فى أمرك ونهيك ومحبتك ورضاك، لم يرد اتحاد ذاته به، كما يرد أن تتحد ذوات بعضهم ببعض، فإنه طلب لهم مثل ما حصل له من الموافقة لأمر الله ونهيه ومحبته ورضاه، قال: أو يكون ذهب فيه إلى معنى دقيق لا يعرفه، إلا أنه قد بطل على كل حال بهذا القول تأويلكم ممازجته فى اللاهوت بقوله فى تلاميذه: إنه بهم، كما أن أباه به، لأن إن تأول متأول فى هذا المعنى أنه ذهب فى بعض وصفه بأبيه، وأن أباه به إلى مشاركته فى اللاهوت فقد قال: فى تلامذته مثل هذا القول فيجب أن يكونوا على هذا القياس شركاء فى المحل، وهذا ما لا يكون، ولا يجترىء على القول به أحد.

قال: ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها وعبودتها ومعبودها واحدًا، يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام، وتلامذته، وإنجيله، وسننه، وشرائعه، وهم مع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف، **فمنهم من يقول: إنه عبد، ومنهم من يقول: إنه إله، ومنهم من يقول: إنه ولد، ومنهم من يقول إنه أقنوم وطبيعة، ومنهم من يقول: إنه أقنومان وطبيعتان.**

وكل يُكَفِّرُ صاحبه: ويقول إنه الحق فى يده، وكلهم لا يأتى من الكتاب بحجة واضحة يثبت بها دعواه، ولا من قياسه لنفسه، وتأويله بما يصح له عند المناظرة وإنما يرجع فى دينه واعتقاده إلى ما تأوله المتأولون، بما خالف إنجيلهم، وكتبهم بالهوى والعناد من بعضهم. فهم يشركون بالله على التأويل ولا شريك له ويدعون له ولدًا من جهة ما أحدثوا لأنفسهم، **سبحانه أنى يكون له ولد!!!**

وقال الحسن بن أيوب: وقد بينا الحجج فى بطلان كل قول لكم مما عقدتم به شريعة إيمانكم، ووجدنا قومًا منكم إذا نوظروا فى ذلك قالوا: قد وجدنا أكثر الأديان يختلف أهلها فيها، ويفترقون على مقالات شَتَّى، هم عليها وكل منهم يَّدعى أن الصواب فى يده.

وهذا أيضًا من سوء الاختبار، وذهاب القلوب عن رشدها، وانصرامها عن سبيل حقها.

فلم يختلف أهل دين من الأديان فى عقد معبودهم، ولا شكُّوا فيه، ولا تفرقوا القول فيما اختاروه إلا أهل مِلَلَ النصرانية فقط.

وسائر من سواهم إنما اختلفوا فى فرع من فروع الدين وشرائعه. مثل اختلاف اليهود فى أعيادهم وسنن لهم، ومثل اختلاف المسلمين فى القدر. فمنهم من قال به، ومنهم من دفعه.

وفى تفضيل قوم من أصحاب محمد ﷺ على نظرائهم بعد اتفاق جماعتهم على إلههم ومعبودهم وخالقهم، وأن الله إله الخلق كلهم، واحد لا شريك له ولا ولد.

ثم إتفاقهم بعد ذلك على نبيهم محمد ﷺ، لا يشكون فيه، وعلى القرآن، وأنه كتاب الله المنزل على محمد ﷺ المُرسل لا يختلفون فيه.

فإذا صح إتفاقهم على هذه الأصول، كان ما سواها جللاً[1] لا يقع منه كفر، ولا يبطل دين.

والبلاد العظيم الاختلاف فى المعبود.

فلو أن قومًا لم يعرفوا إلهًا ولا دينًا، ثم عرض عليهم دين النصرانية، وجب أن يتوقفوا عنه، إذ كان أهله لم يتفقوا على شىء فيه.

ودل اختلافهم فى مقالاتهم وما بينها مما فى كتبهم على باطله.

فأما قولنا فى باب التوحيد، واعترافنا بوحدانية الله تعالى، ونَفْيُنَا عنه الشركاء والأنداد والأمثال والأولاد فهو قول لا يشكون فى صحته، ولا يشك فيه أحد من أهل الكتب وسائر الملل ولا غيرهم من أهل القول بالدهر وسائر عبدة الأصنام والأوثان وكل منهم يُقِرُّ به ويرجع إليه.

إلا أن منهم من يتابعنا على تحديد التوحيد. ومنهم من يدخل العلل فيه، بأن يقول: ثلاثة ترجع إلى واحد، وصنمًا نعبده إجلالاً لله ليقربنا إلى ربنا وربه، ومدبر للأمور قديم لا بد أن نعترف به خالقها وباريها.

وكلٌ منهم مقرٌ بقولنا وذاهب إلى مذهبنا على الاعتراف بالله على الجهة التى يذهب إليها وأنه واحد لا شريك له.

(١) قوله: جللاً. أى يسيرًا، فكلمة «الجلل» من الأضداد يطلق على الأمر العظيم واليسير.



فقد صح عقدنا بلا شك منكم، ولا من أحد من الأمم فيه، ولا فى شىء منه، بل تقودكم الضرورة إلى الإقرار به والاجتماع معنا عليه.

والحمد لله رب العالمين على توفيقه، وإياه نسأل أن يتم علينا تسديده بقدرته، وأن يحيينا على الإسلام، غير مشركين ولا جاحدين ولا مبدلين، إنه على كل شىء قدير، وكل مستصعب عليه يسير، وهو بمن خافه واتقاه وطلب ما عنده ولم يلحد فى دينه رءوف رحيم.

قلت: هذا آخر ما كتبه من كلام الحسن بن أيوب وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى وأخبرالناس بأقوالهم فنقله لقولهم أصح من نقل غيره وقد ذكر فى كتابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية، ما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية ما يبين ذلك.

●●●



محتويات الكتاب



وبالله التوفيق.

وصل الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلِّف في سطور

- الأستاذ الدكتور مصطفى محمد حلمي .
- دكتوراه في الآداب من جامعة الإسكندرية - قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧١م .
- عين في كلية دار العلوم قسم الفلسفة الإسلامية عام ١٩٧٢م .
- أعير لجامعة الملك سعود من عام ١٩٧٥م إلى عام ١٩٨٠م .
- تدرج في كلية دار العلوم حتى أصبح رئيسًا لقسم الفلسفة الإسلامية في الفترة من ١٩٨٢م إلى ١٩٨٧م .
- أعير للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد عام ١٩٨٧م .
- أعير للتدريس بجامعة أم القرى بمكة المكرمة من عام ١٩٨٧م حتى عام ١٩٩٢م .
- حائز على جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية عام ١٣٨٥هـ - ١٩٨٥م عن المؤلفات التالية :
  - منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين .
  - قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي .
  - السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية .
- يعمل حاليًا أستاذًا غير متفرغ بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .
- للمؤلف عدد كبير من المؤلفات القيمة يزيد على ٢٥ كتابًا ، وله كذلك العديد من الدراسات والأبحاث والمقالات المنشورة في الدوريات المختلفة في أنحاء العالم العربي والإسلامي .



٤ شارع الأسقفية - المنشية - الأسكندرية
تليفاكس: ٠٣/٤٨٣٣٤٠٥ - محمول: ٠١٢/٣١٦٦١١٨
www.dar-alebdaa.com
E.mail: info@dar-alebdaa.com